مجلة علمية أكاديمية محكمة نصف سنوية (مارس، سبتمبر)، تصدرها جامعة الجزائر2 مارس 2011 – العدد 1

محتوى العدد

دراسات وبحوث

1 -السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب
2 -معدلات الإنجاز العالي في الرياضيات والعلوم والذكاء: دروس وعبر للعالم العربي
3 -الواسطة والفساد في إدارة المال والأعمال: دراسة إقليمية مقارنة
4 -نحو مقاربة جديدة لتاريخ العرب الحديث: مناقشة مفاهيم وعرض التصورات
5 -التاريخ بين الذاكرة والسياسة: سطو فرنسا على التاريخ
6 - الفرنسيون الأحرار وإستقلال المغرب
7 - تاجماعت في منطقة القبائل: مجلس القرية أم مجلس العرش؟
8 -من أدب الرحلة المقربة: وصف البحر
9 -المساواة والاختلاف بين الذكورة والأنوثة في فلسفة الوجود وفلسفة السياسة عند ابن رشد
10 -مدى توافر مناخ نفسي إجتماعي في الأسرة لتنمية الموهبة لدى الأبناء
11-السياسات الثقافية العربية: إلى أين؟

قـــراءات

1 -قراءة نفسية لكتاب الاستعمار الإبادة: تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية
2 -عرض ونقد لكتاب الأدب الأوروبي من منظور الآخر

تقـــاريـر

1 -تقرير حول الملتقى الدولي الثالث عشر للرواية «عبد الحميد بن هدوقة»
2 -بورتريه الأديب عبد الحميد بن هدوقة
3 -تقرير حول مؤتمر التضامن العربي الافريقي في الخرطوم

أفكار وآفاق

مجلة علمية أكاديمية محكمة، نصف سنوية (مارس، سبتمبر)
تصدرها جامعة الجزائر 2

مدير المجلة
أ.د. عبد القادر هني

مدير التحرير
أ.د. محمود بوسنه

هيئة التحرير
أ.د. مصطفى عشوي
أ.د. محمد العيد رتيمة
أ.د. محمد بوخلوف
د. علي تابليت
د. مصطفى نويصر
د. حسين عبد اللاوي
د. ابراهيم صحراوي

لجنة المراجعة اللغوية
د. محمد بلقاسم
د. يوسف إيمون
أ. بثينة عثامنية
أ. فضيلة أولبصير

أمانة المجلة
أ. نعيمة بن صام

تصميم وإخراج
أ.د. محمود بوسنه
أ. نعيمة بن صام

مارس 2011 – العدد 1

اللجنة العلمية

أ.د. **سعد الله أبو القاسم** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **عمار بوحوش** (جامعة الجزائر3)
أ.د. **رشيد بن مالك** (المركز التقني لتطوير اللغة العربية)
أ.د. **جمال يحياوي** (مركز البحث في الحركة الوطنية)
أ.د. **الهاشمي لوكيا** (جامعة قسنطينة)
أ.د. **نور الدين زمام** (جامعة بسكرة)
أ.د. **جمال معتوق** (جامعة البليدة)
د. **عبد الرزاق عبيد** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **أحمد منور** (جامعة الجزائر2)
د. **الزبير عروس** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **حمو بوظريفة** (جامعة الجزائر2)
د. **سعيد بومعيزة** (جامعة الجزائر3)
أ.د. **عبد القادر خياطي** (جامعة الجزائر2)
د. **أحسن بشاني** (جامعة الجزائر2)
أ.د. **بشير معمرية** (جامعة باتنة)
د. **محمد الطيبي** (جامعة وهران)
أ.د. **رابح علاهم** (جامعة الجزائر2)

اللجنة العلمية الدولية

أ.د. **جمال تركي** (تونس)
أ.د. **زكي مبارك** (المغرب)
أ.د. **علي خليفة الكواري** (قطر)
أ.د. **مصطفى عمر التير** (ليبيا)
أ.د. **محمد عبد الشفيع عيسى** (مصر)
أ.د. **حسين جمعة** (سوريا)
أ.د. **محمود الربداوي** (سوريا)
أ.د. **ساسين عساف** (لبنان)
أ.د. **محمد قيراط** (الإمارات)
أ.د. **عمر هارون الخليفة** (السودان)
أ.د. **محمد بن ناصر** (فرنسا)
أ.د. **عبد الرحمن طه** (المغرب)
أ.د. **يحيى علوان** (ليبيا)
أ.د. **حماه الله ولد السالم** (موريتانية)
أ.د. **عباس السوسوة** (اليمن)

المراسلة والاشتراك

الموقع الإلكتروني: www.afkar-affak.org : ***URL***

البريد الإلكتروني: afkar.affak@univ-alger2.dz : ***E-mail***

contact@afkar-affak.org - univ.alger2@gmail.com

الهاتف/الفاكس: 021.90.89.95

العنوان: جامعة الجزائر2، عمارة البحث، حي جمال الدين الأفغاني- بوزريعة- الجزائر

توجه مبالغ الإشتراك إلى الحساب المالي لجامعة الجزائر2:

حساب الخزينة: 116 / 1127

حساب مركز الصكوك البريدية (CCP): 3224 - 92 clé 34

© جميع الحقوق محفوظة لجامعة الجزائر2

قواعد النشر

أهداف المجلة:

مجلة «أفكـــار وآفـــاق» مجلة أكاديمية محكمة، تهدف إلى نشر الدراسات والبحوث الأصيلة المبتكرة في مختلف العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان من حيث آدابه ومجتمعه وسلوكه وتاريخه وسياسته وتواصله وتحديات مستقبله.

تقبل البحوث والدراسات المكتوبة باللغة العربية للنشر في مجلة «أفكـار وآفاق» بشرط احترام قواعد النشر العامة والخاصة الموالية. إن المجلة مفتوحة أمام كل الباحثين العاملين في مختلف الجامعات ومراكز البحث الجزائرية والعربية والأجنبية.

أ- قواعد النشر العامة:

1. الالتزام بالقواعد العلمية المتعارف عليها في كتابة البحوث الميدانية والتجريبية والدراسات النظرية.
2. الالتزام بمراجعة البحث من حيث الأسلوب واللغة.
3. يجب أن لا تزيد صفحات البحث عن 30 صفحة وأن لا تقل عن 06 صفحات.
4. الالتزام بكتابة العناوين الرئيسية في وسط السطر والفرعية في الجانب.
5. الالتزام بإرسال السيرة الذاتية المختصرة بالنسبة للباحثين الذين يراسلون المجلة لأول مرة.
6. الالتزام بإرسال البحث إلى البريد الإلكتروني الموالي:

   afkar.affak@univ-alger2.dz - univ.alger2@gmail.com - contact@afkar-affak.org

7. يجب أن لا يكون البحث قد سبق نشره في السابق.

ب- قواعد النشر الخاصة:

- **فيما يخص كتابة النصوص:**

8. يكتب نص المقال ببرنامج وورد(Word)، بخط أريال أبجد هوز، وبحجم 14 بالعربية و12 باللغات الأجنبية.
9. تخصص الصفحة الأولى من المقال لكتابة المعلومات الأساسية الموالية فقط: عنوان البحث، اسم الباحث أو الباحثين والدرجة العلمية، اسم المؤسسة أو المؤسسات التي يعملون لديها ، عنوان المراسلة، البريد الإليكتروني.
10. تخصص الصفحة الثانية من المقال لتقديم ملخص للبحث في حدود 150-250 كلمة والكلمات الدالة (من 3 إلى 5 كلمات). يجب أن يعبر الملخص عن محتوى المقال بصورة شاملة وصادقة.

11. تخصص الصفحة الثالثة من المقال لتقديم ترجمات بالفرنسية والإنجليزية فيما يخص كل من: العنوان و إسم الباحث والملخص والكلمات الدالة، مع احترام الدقة في هذه الترجمات.

ملاحظة: يمكن لهيئة التحرير أن تتكفل بإحدى الترجمات أي الترجمة إلى الفرنسية أو الإنجليزية.

12. يبدأ تقديم البحث من الصفحة الرابعة بتكرار عنوان البحث وبدون تكرار اسم الباحث أو الباحثين.
13. في حالة ما إذا كان أساس البحث المقدم للنشر مداخلة في ملتقي علمي، فإنه يجب على الباحث ذكر الملتقي وتاريخ انعقاده والعنوان الأصلي للمداخلة.
14. يجب ترقيم الصفحات في الوسط وفي أسفل الصفحة.

- **فيما يخص إعداد الجداول والأشكال:**

15. ترقم الجداول والأشكال ترتيبا تصاعديا وتوضع في مكانها المناسب في المقال. ويجب أن تقدم هذه الجداول في حدود مقاس من نوع A4 (A4 Format) والنمط العمودي (Portrait).
16. يجب الابتعاد عن استخدام جداول الإكسال داخل المقال.

- **فيما يخص الخرائط والصور:**

17. ترقم الخرائط والصور والأشكال ترتيبا تصاعديا وتوضع داخل النص، ويشار إلى مصدرها كما يلي:

إسم الخريطة أو الصورة أو الشكل رقم ( )

مصدر الخريطة أو الصورة أو الشكل

18. ترسل الخرائط والصور في ملفات أخرى إيضافية مستقلة عن النص، أي ملف لكل خريطة أو صورة وهذا من نوع جبيك (jpeg). مثال (nom de l'image.jpeg)، شريطة أن تكون نوعية الصورة لا تقل عن (dpi 300).
19. إننا لا نقبل إلا الصور الرقمية ومن نوع جبيك (jpeg).
20. يجب أن تكون الصور رقمية وبإسم المؤلف؛ مثال: "إسم المؤلف الصورة رقمjpeg.1".
21. يجب أن يكون عدد الخرائط والصور محدود وتخص فقط تلك التي تقدم معلومات هامة لا يمكن الاستغناء عنها (أقصى حد من الصور هو 5).

- **فيما يخص إثبات المراجع والهوامش:**
- **تكتب المراجع كما يلي:**

22. يشار إلى المراجع داخل المقال وتسجل في قائمة بآخره بصورة مرتبة ترتيبا أبجديا أو ألف بائيا.
23. تسجل الكتب في قائمة المراجع كما يلي: اسم الباحث أو الباحثين(السنة)، عنوان الكتاب، الجزء أو المجلد، دار النشر، مكان النشر.
24. تسجل الدوريات في قائمة المراجع كما يلي: اسم الباحث (السنة)، عنوان البحث، اسم الدورية، العدد، مكان الصدور.

- **تكتب الهوامش كما يلي:**

25. يجب أن تكون الإحالات (الهوامش) متسلسلة بأرقام متتابعة وتوضع أسفل الصفحة.
26. سجل إحالات الهوامش في أسفل الصفحة كما يلي:
   - إذا كانت الإحالة إلى كتاب: يكتب رقم الإحالة، اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة التي توجد بها الفكرة أو الفقرة المنقولة.
   - إذا كانت الإحالة إلى مقال منشور في دورية: يكتب رقم الإحالة، اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة التي توجد بها الفكرة أو الفقرة المنقولة.
   - عند تكرار ذكر نفس المرجع، يكتب بعد رقم الإحالة نفس المرجع السابق والصفحة، في حالة ما إذا كان التكرار مباشر، وإذا فصل تكرار المرجع بمرجع آخر أو عدة مراجع أو صفحة جديدة، يجب ذكر بعد رقم الإحالة اسم ولقب الباحث (السنة)، الصفحة ثم مرجع سابق.

- **تكتب الإحالات للمراجع الإلكترونية كما يلي:**
   - **إذا كان المرجع موقع إلكتروني:**

27. إسم الكاتب أو المنظمة. عنوان الصفحة الرئيسية، (شبكة الأنتيرنت). عنوان الموقع URL (تاريخ تصفح الموقع: اليوم، الشهر، السنة).

   - **إذا كان المرجع صفحة من موقع إلكتروني:**

28. إسم الكاتب (عنوان المصدر). عنوان صفحة المصدر أو الوثيقة التي تتضمن المصدر،(عنوان الصفحة الرئيسية)، (شبكة الأنتيرنت). عنوان الموقع URL (تاريخ تصفح صفحة الموقع: اليوم، الشهر، السنة).

ج- فيما يخص التحكيم:

29. تخضع كل البحوث والدراسات إلى التحكيم السري من قبل محكمين مختصين.
30. تعرض الدراسات والبحوث على محكمين أثنين على الأقل لتقديم الخبرة حولها. وتعتبر هذه التقارير أساس القبول أو التأجيل لأي بحث أو دراسة. مع العلم أن المجلة يمكنها أن تطلب إدخال التعديلات التي تراها مناسبة بناء على تقارير المحكمين.
31. يمنح الباحث عددين من المجلة التي نشر بها بحثه و05 مستلات من البحث المنشور.

د- فيما يخص الكتب والملتقيات العلمية:

32. تنشر المجلة مراجعات للكتب الجديدة والهامة.
33. تنشر المجلة تقارير عن الملتقيات العلمية التي تتناول مواضيع تعبر على إشكاليات تهم المجلة.

÷ هيئة التحرير

الفهرس

– تقديم المجلة X

أ.د. عبد القادر هني

– كلمة العدد الأول XIII

أ.د بوسنه محمود

دراســـات وبحــوث

1. السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب 1

أ.د. فتحي التريكي

2. معدلات الانجاز العالمي في الرياضيات والعلوم والذكاء: دروس وعبر للعالم العربي 11

أ.د. عمر هارون الخليفة

3. الواسطة والفساد في إدارة المال والأعمال: دراسة إقليمية مقارنة 33

أ. د. مصطفى عشوي، أ. د. بيتر سميث، أ. د. محمود بوسنه، د. عبد الله الأمين، أ. جميلة السيار

4. نحو مقاربة جديدة لتاريخ العرب الحديث: مناقشة مفاهيم وعرض تصورات 55

أ.د. ناصر الدين سعيدوني

5. التاريخ، الذاكرة والسياسية: سطو فرنسا÷على التاريخ، حالة الجزائر (1830-2009) 77

أ.د. محمد القورصو

6. الفرنسيون الأحرار واستقلال المغرب 93

أ.د. زكي مبارك

7. تجماعت في منطقة القبائل: مجلس العرش أم مجلس القرية ؟ 103

د. محمد الهادي حارش

8. من أدب الرحلة المقربة وصف البحر (دراسة أسلوبية) 111

د. محمد السعيد بن سعد

* الأفكار والآراء التي تتضمنها الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة على رأي المجلة.

9. المساواة والاختلاف بين الذكورة والأنوثة في فلسفة الوجود وفلسفة السياسة عند ابن رشد 123
د. محمد مصباحي

10. مدى توافر مناخ نفسي اجتماعي في الأسرة لتنمية الموهبة لدى الأبناء : دراسة ميدانية على تلاميذ التعليم الثانوي 133
أ. د. بشير معمرية؛ د. عبد الحميد خزار

11. السياسات الثقافية العربية: أي دور؟ 151
أ.د. مخلوف بوكروح

قـــــراءات

1. قراءة نفسية لكتاب الاستعمار الإبادة : تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية 167
قراءة وتعليق: أ.د. عشوي مصطفى

2. عرض ونقد لكتاب الأدب الأوروبي من منظور الآخر 173
قراءة ونقد: أ.د. عباس السوسوة

تقـــاريـــر

1. تقرير حول الملتقى الدولي الثالث عشر للرواية «عبد الحميد بن هدوقة» 181
أ.د. الشريف مريبعي

2. بورتريه عبد الحميد بن هدوقة 185
إعداد : أ.د عبد القادر بوزيدة

3. تقرير حول مؤتمر التضامن العربي الإفريقي الأول 187
د. نويصر مصطفى

الملخصـــات

- الملخصات بالفرنسية 191
- الملخصات بالإنجليزية 205

* الأفكار والآراء التي تتضمنها الدراسات والبحوث المنشورة في المجلة لا تعبر بالضرورة على رأي المجلة.

Sommaire

- Préface XI
Pr. Heni A.

- Introduction XIII
Pr. Boussena M.

- Etudes

1- La plume et le sabre: Ibn Khaldûn et la problématique de la guerre 01
Pr. Atteriki F.

2- Les performances internationales en mathématiques, sciences et en intelligence : des enseignements pour les pays arabes..... 11
Pr. Khalifa O. H.

3- Le piston et la corruption dans le monde des affaires : étude régionale comparative..... 33
Pr. Achoui M., Pr. Peter S., Pr. Boussena M., Dr. Al-amine Ab., Dr. Assaiar J.

4- Pour une nouvelle approche de l'histoire arabe moderne 55
Pr. Saidouni N.

5- Histoire, mémoire et politique: assaut français sur l'Histoire. le cas de l'Algérie (1830-2009) 77
Pr. El-korso M.

6- Les Français libéraux et l'indépendance du Maroc 93
Pr. Zaki M.

7- Tadjmaat dans la région de la Kabylie: conseil des Arches ou conseil de village ? 103
Dr. Hereche M.

8- De la littérature de voyage et description de la mer : étude stylistique..... 111
Dr. Bensaad M.

9- Egalité et différence entre masculinité et féminité dans la philosophie de l'existence et la philosophie de la politique chez Ibn Rochd (Averroès) 123
Dr. Masbahi M.

10- La disponibilité d'un climat psychosociologique familial pour le développement du talent chez les enfants: étude empirique avec les élèves du secondaire 133
Pr. Maamaria B., Dr. Khazar A.

11- Les politiques Culturelles Arabes: quel rôle ? 151
Pr. Boukrouh M.

- Analyses bibliographiques

- Rapports

- Résumés

1- Résumés en Français 191
2- Résumés en anglais 205

Content

- Preface XI
Pr. Heni A.

- Introduction XIII
Pr. Boussena M.

- Studies and research

1- The Pen and the Sword: Ibn Khaldûn and the problematic of war 01
Pr. Atteriki F.

2- The international achievement of math, sciences and intelligence: lessons for the Arab countries 11
Pr. Khaleefa O. H.

3- Pulling Strings and corruption in doing business: a regional comparative study..... 33
Pr. Achoui M., Pr. Peter S., Pr. Boussena M., Dr. Al-amine Ab., Dr. Assaiar J.

4- Towards a New approach of Modern Arab History 55
Pr. Saidouni N.

5- History, Memory and Policy: France's assault on history : The case of Algeria (1830-2009) 77
Pr. El-korso M.

6- The French Liberals and the Independence of Morocco 93
Pr. Zaki M.

7- Tadjmaat in the Kabylia Region : Counsel of the Archs or counsel of the village? 103
Dr. Hereche M.

8- Literature of traveling: description of the sea (stylistic study)..... 111
Dr. Bensaad M.

9- Equality and difference between masculinity and feminity In Rochd's philosophy of existence and philosophy of politics 123
Dr. Masbahi M.

10- The availability of a family psycho-sociological atmosphere for children's talent development: empirical study among pupils' secondary school 133
Pr. Maamaria B., Dr. Khazar A.

11- Arabic Cultural Policies: which role?..... 151
Pr. Boukrouh M.

- Books reviews

- Reports

- Abstracts

1- Abstracts in French 191
2- Abstracts in English 205

تقديم المجلة

أ.د. عبد القادر هني
رئيس جامعة الجزائر2

إنصب الاهتمام منذ أن تفرعت جامعة الجزائر العريقة إلى ثلاثة جامعات على توفير الظروف الملائمة لبناء جامعة الجزائر2 على أسس علمية صلبة متينة، فتضافرت الجهود واتجهت لترقية الأداء البيداغوجي والبحثي وفقا لقواعد العمل العلمي المتعارف عليها دوليا، كما إنعقد العزم على تحديث طرق التسيير الإداري وتحسين مستوى الكفاءات البشرية بما يضمن لهذه الجامعة الفتية الارتقاء التدريجي إلى مصاف الجامعات ذات السمعة الدولية، كيما تغدو منبرا أكاديميا حرا ومفتوحا، مدعما بآليات عمل علمية خالصة، تعرض فيه دوريا ثمار جهود الباحثين الأكفاء في ميداني البحث العلمي والعمل الإبداعي، أسوة بمنابر نشر وتحكيم البحوث والدراسات العلمية الجادة والأعمال الإبداعية المتوافرة في الجامعات النظيرة إقليميا ودوليا.

ونحن على وعي أن بلوغ هذه الغاية لا يكون بالتمني إنما يكون بالعمل الجاد المخلص وبتوفير شروط أساسية من دونها لا يمكن الحديث عن مؤسسة جامعية تتطلع إلى أن تكون ضمن مصاف الجامعات الرائدة التي أضحت موارد يتزاحم في منابعها المريدون ويشدون إليها الرحال على كل ضامر من كل فج عميق، ولعل من بين هذه الشروط الحرص على أن يركز الجامعيون الجهد على ما يتناغم مع الرسالة الحضارية للجامعة من حيث هي صرح تلتقي بل تتعانق وتتكافل فيه الكفاءات العلمية التي تمثل بحق خلاصة المجتمع وعقله المفكر الذي يحدد معالمه ويعد مشروعه الحضاري ويرسم أهدافه المستقبلية ويقوده بثقة وبخطى وئيدة ثابتة وبوعي في الطريق المؤدية إلى بناء ذات منفتحة دوما على غد أفضل من دون أن تُرخى اليد عما يميزها عن بقية الذوات التي من حقها هي الأخرى التمسك بتقاسيمها في عالم لا يُصاخ فيه للأبَحِّ إنما يُصغى لصاحب الصوت البيّن الصراح، والكلمة فيه لا تهدى ولا تعطى مجانا إنما تؤخذ غلابا، والمغالبة فيه ليس الحسام أداتها إنما أداتها إنتاج العلم وصناعة المعرفة ووسيلتهما الإنسان الذي يأتي بناؤه في الصدارة قبل بناء المصانع وتشييد العمران، بحسبه –أي الإنسان– العنصر الأساس وحجر الزاوية في كل نمو أو تطور من أي نوع كان، فهو الذي بفكره تتحقق الوثبة الحضارية وعلى أكتافه تشاد، بعبارة أخرى إن تخطي عتبة التخلف وكسب رهان التطور لا يكون إلا بالإنسان ومن خلاله.

إن تهيئة الإنسان للاضطلاع بهذه المهمة الحيوية يمر حتمًا عبر بوابة العلوم الإنسانية والاجتماعية بحسبها هي وحدها المؤهلة علميا لإعداد صانع الحضارات، المخرج من الأزمات المنتج للخيرات. فهذه العلوم التي يعلوها الغبار في الدول المتخلفة ويُصَنَّفُ أهلها أو قل محترفوها في الفئة غير المنتجة أو المعوّقة التي تثقل كاهل المجتمع بمطالبها، هي التي تبني الإنسان وتعده لأية معركة حضارية مستقبلية على اعتبار أنها هي التي تصنع وعيه وتحرره من مختلف أصناف التبعية وتهيئه لممارسة نشاطه الإنساني وتوظيف قواه

لاستغلال موارد الكون وتسخيرها للانتفاع بها من خلال التوظيف الأنسب الذي يتساوق مع رسالته الكونية. ودعنا نقول، إيمانا بأولوية بناء الإنسان، إن أي طموح لامتلاك التكنولوجيات الحديثة وتحقيق التطور العلمي والتقني، الذي أضحى سمة مميزة للمجتمعات التي تتصدر العالم اليوم وتلقي بثقلها عليه لا يُكتب لمن لا يضع الإنسان أولوية في مشروعه التنموي الذي يروم من خلاله اللحاق بالركب الذي يمتلك زمام الأمور وتصاغ بل تصنع في دوائره أخطر القرارات المغيرة مجرى الأحداث في العالم. فلسنا نعرف مجتمعًا متمدنا راقيا يجعل العلوم التي تُعنى بالإنسان من سقط المتاع أو يرتبها في مؤخرة اهتماماته بدعوى أن المعرفة النافعة الكفيلة بالانتقال بالمجتمع من طور إلى طور وترقى به إلى مصفّ الدول التي تحظى بالاحترام والمهيمنة في العالم هي تلك التي تُنتج في مخابر العلوم الدقيقة والتجريبية.

ونحن وإن كنّا لا نقلل من أهمية العلوم الدقيقة والتجريبية بل نؤمن أنها غيرت وجه العالم إلى ما هو عليه اليوم فإننا نؤكد أن تكوين مبدع هذه العلوم الذي على يده تطورت فأنتجت الرفاه الذي تنعم به البشرية مما لم يكن يخطر على بالها في عهود ولت هو من الخطوات الأساسية في أي مشروع يُتخذ مطية لمغادرة حال الضعف والترهل وللانعتاق من هيمنة الآخر لاسيما في سياق حضاري يميزه التباين الشديد بين مجتمعاتنا والمجتمعات الغربية التي ما نزال لها تبعا في كل شيء تقريبا بما في ذلك الغذاء، وهي تعمل اليوم على فرض هيمنة شاملة ومطلقة على الأمم التي أخطأت الطريق الصحيح إلى صياغة مشاريع الانعتاق من التخلف حين لم تضع بناء الإنسان في المركز، فنجاحها في مسعاها ليس ممكنا ما ظلت متجاهلة هذه الحقيقة، هذا على الرغم مما تنفقه من ثروات خيالية في ما يسمى بتحويل التكونولوجيا من خلال ما تستقدمه من آلاتها التي أغرقت بها أسواقها، بل أقول إن إدارة الظهر لهذه الحقيقة هو ما يسّر الوقوع في شراك الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية للدول الغربية التي غدَّت غَفْلَةُ الآخر وحساباته الخاطئة طموحها لتحويل ضحاياها إلى مجتمعات مدمجة مستكينة ومضمومة تحت معطفها في إطار عولمة السياسة والاقتصاد والثقافة.

إن مغادرة هذا الوضع الذي لا تحسد عليه الأمم الواقعة في وحله وتضيق أنفاسها في أنفاقه إلى وضع أفضل لا يتيسر، كما ألمحنا، من دون إعادة الاعتبار للإنسان وتكريس جهد كبير لتأهيله فكريا ونفسيا واجتماعيا لينتج المعرفة التي تشاد بها ومن خلالها الحضارة التي ماتزال الأمم القابعة في تخلفها منذ قرونٍ خلت تعتقد أن استيراد مظاهرها كفيل أن يحدث التحول الذي تصبو إليه فتلج عالم الحداثة والعصرنة. إن ذلك في تقديرنا لا يتحقق إلاّ بتبني استراتيجية جديدة تعيد للعلوم الإنسانية والاجتماعية مكانتها الحقيقية بوصفها المصدر الأساسي لإنتاج الفكر والرموز في مختلف المواضيع واقتراح الحلول للكثير من إشكالات التنمية المطروحة، فمشروع أي إقلاع حضاري أو تقدم اجتماعي إن لم يراهن على الإنسان فإنه يكون قائما على شفى جُرُفٍ هارٍ، وعماده لن تكون إلاّ هشة ومرشحة للانهيار ولأن تجرفها أولُ السيول، إن إخفاق مشاريع النهوض والتنمية في البلدان التي همشت الإنسان ولم تجعل بناءه هو الجهورُ فيها، خير بيان على أن لا تطور ولا نهوض

بالقفز عليه وبالإعراض عن العلوم التي يتوقف عليها أولاً بناء الذات الإنسانية. بناء على هذا المنظور عملت جامعة الجزائر2 على إنشاء دورية تولي العلوم التي تهتم بالإنسان من مختلف الجوانب، اهتماما خاصا، حيث تضع صفحاتها تحت تصرف الباحثين الذي ينتجون المعرفة الجديدة الأصيلة في هذا الميدان الحيوي من ميادين البحث العلمي الذي ينتظر من الباحثين في الإنسانيات –ومن باحثي الدول النامية خاصة– مزيدًا من الجهد ليجعلوا منها علومًا في خدمة الإنسان والارتقاء به، ومن خلاله الارتقاء بالمجتمع ليواكب العصر وما يشهده من تحولات وليثبت حضوره فيه بقوة، من أجل ذلك فإن فلسفة «أفكار وآفاق» تقوم على العودة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية إلى الواجهة ليكون إسهامها واضحًا وقويًا في ولوج مجتمع المعرفة، إيمانًا منها أن أحسن استثمار وأنجعه هو الاستثمار في الإنسان وأن أي سعي لجلب التكنولوجيات المتقدمة واستيراد المناهج التعليمية التي حققت أعلى درجات النجاح في بلدانها وبذل أي جهد في تقويم البرامج لهيكلتها مجددًا وإعادة النظر في آليات تنفيذها التي تآكلت وعلاها الصدأ سيكون هباءً، وإن استضفنا له النخب في هذه المضامير لعرض تجارب مجتمعاتهم المتحضرة قصد الإفادة منها في كسر النمطية وتحقيق الإقلاع، أقول إن هذا المسعى سيكون هباء ما لم يتم إعداد الإنسان المؤهل لِتَمَثُّل الخبرات والنماذج الوافدة، (سواء أكانت ثقافية أم علمية صرف)، واستثمارها استثمارًا إيجابيا في التخلص من التبعية والتقليد وفي الانتقال من منفعل إلى فاعل ومن مستهلك سلبي إلى مبدع للمعرفة التي عليها المعوّل في بناء المجتمعات القادرة عَلى ولوج حلبة التنافس في صياغة المجتمع الدولي الجديد ووسمه بميسمها، وهي غاية بلوغها ليس بالأمر الهين ولكنه ليس أيضًا بالعزيز المنال ما جعل المشتغلون بالبحث العلمي، لاسيما في الدول التي أريد لها أن تنشغل بغيره أو تتعلق بقشوره، أكبر همهم إبداع المعرفة وأيقنوا أن الإضافة والابتكار في هذا الميدان الخاص حصريًا بالإنسان، ليس لأي جنس أن يحتكره أو يقصره على نفسه.

انطلاقا من هذه القناعة فإن دورية أفكار وآفاق اختارت لنفسها أن تكون فضاء من فضاءات النشر العلمي الأكاديمي المتاحة عربيا ودوليا للأقلام المبدعة في الاجتماعيات والإنسانيات وفي الآداب وما اتصل بها، من دون أن تغلق صفحاتها في وجه كل جديد في المعارف التي من شأنها أيضا أن تسهم في التطوير والتحديث، فما تسعى أفكار وآفاق إلى ترسيخه هو أن كسب رهان المستقبل إنما وسيلته المعرفة العلمية الأصيلة ومبدعها الإنسان ونتائجها ومنافعها يجب أن تعود عليه، فأي طموح إلى غد أفضل من غير هذا الطريق فمآله كمآل المتعلق بالآل.

÷ ÷

كلمة العدد الأول

أ.د بوسنه محمود
مدير التحرير

«أفكار وآفاق» مجلة علمية جاءت لتثمين نتائج البحث العلمي وخلق فضاء للحوار وتبادل المعارف والخبرات بين الباحثين والنخب من مختلف البلدان العربية والأجنبية. فالجميع يدرك بأننا مطالبون في هذا الوضع المتسم بالتغيرات العميقة، بأن نقدم التحاليل والتأملات الناتجة عن عمل أكاديمي يحترم شروط البحث العلمي، حول تاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا وما يدور حولنا، لإسماع غيرنا واستقبال أعمال غيرنا، وهذا حتى يُمكن مسايرة عجلة الديناميكية الحالية عن بصيرة وتبصر.

1- ماذا عن محتوى العدد الأول؟ يتضمن هذا العدد مجموعة من الدراسات القيمة، بعطاء من نخبة من الباحثين والمفكرين من مختلف الجامعات العربية. إن جدية وأصالة البحوث المنشورة في هذا العدد، تبين بوضوح التزام المجلة بخلق فضاء علمي يسمح بنشر الأعمال المتميزة في الطرح والمنهجية والعرض والمستنيرة بالتصورات النظرية والتراكمات العلمية والهادفة إلى تقديم الاقتراحات والحلول المصوَّبة والمصوِّبة في مختلف القضايا التي تهم الإنسان في حياته وتحديات مستقبله.

- يلقي الأستاذ فتحي التريكي بعض الأضواء على المحاولة الجادة لأبن خلدون في التجريد والتنظير حول الحرب وهذا من خلال قراءة متبصرة لفصول المقدمة.

- ويعالج الأستاذ عمر هارون الخليفة في دراسته موضوع معدلات الإنجاز العالمي في الرياضيات والعلوم والذكاء في جنوب آسيا وأبرز لنا التَّعلمات التي يجب استخلاصها بالنسبة للبلدان العربية. كما قدم بعض التطبيقات لبحوث مستقبلية في مجال موضوع تأثير لين- فلين ومعدلات الذكاء القومي.

- وفي دراسة لمجموعة من الباحثين حول الواسطة والفساد في البلدان العربية، تم تقديم تحليل لمفهوم كل من الواسطة والفساد وإبراز واقعهما النفسي والاجتماعي في المؤسسات الاقتصادية بالبلدان العربية وطبيعة العلاقة بينهما ومدى تأثيرهما على فعالية هذه المؤسسات.

- وفي مجال التاريخ والتاريخ السياسي والاجتماعي نجد أربع دراسات الأولى للأستاذ نصر الدين سعيدوني حيث أقترح إطارا منهجيا لتجديد الرؤية في دراسة التاريخ العربي الحديث من مختلف الجوانب. وينطلق مسعى الباحث من الحاجة لفهم موضوعي للتاريخ العربي الحديث يعبر بصدق على واقع هذه البلدان. والثانية للأستاذ محمد القورصو والذي يدعونا للتأمل معه والنظر في طريقة تعامل فرنسا مع تاريخها الاستعماري (حالة الجزائر)

خلال القرنين الماضيين. ويوضح لنا من خلال مراجعة مستفيضة للمراجع والوثائق بأن فرنسا الرسمية مازالت تتغذى من ذاكرتها الاستعمارية. أما الدراسة الثالثة فتعتبر مكملة للدراسة الثانية حيث تبرز وجه آخر لفرنسا مشرف ومشرق وهذا عكس وجهها الاستعماري المدمر والمظلم والذي عرضته علينا الدراسة الثانية. إذ تناول الأستاذ زيكي مبارك بالعرض والتحليل موضوع الفرنسيون الأحرار الذين كانت لهم مساهمات هامة وفعالة في دعم الحركة الوطنية المغربية واستقلال المغرب. وفي الدراسة الرابعة تعرض الدكتور محمد الهادي حارش لموضوع من مواضيع الساعة في الجزائر (بل مختلف البلدان العربية) والمتصل بالعوامل التاريخية التي ساهمت في تطور الوعي بالمواطنة في منطقة القبائل.

– وفي مستوى الأدب يقدم لنا الدكتور محمد السعيد بن سعد دراسة أسلوبية ممتعة في نص الرحلة البحرية لأبي العباس المقري أحد أعلام الأدب الجزائري.

– وفي المستوى الفلسفي يحلل الدكتور محمد مصباحي مدى تأرجح ابن رشد فيما يخص المساواة والاختلاف بين الذكورة والأنوثة بين موقف مساواتي وموقف لامساواتي. ويستخلص إلى أن الاختلاف بين الرجل والمرأة لا يصبح مشكلا إلا إذا انتقل من مستوى الفلسفة إلى مستوى الثقافة.

– ويقدم الأستاذ بشير معمرية والدكتور عبد الحميد خزار نتائج بحث ميداني حول موضوع تنمية الموهبة. حيث قدما لنا بناء على عينة من تلاميذ التعليم الثانوي أهم أساليب المناخ الأسري لتطوير الموهبة لدى الأبناء.

– ويسعى الأستاذ مخلوف بوكروح إلى معالجة إشكالية السياسات الثقافية في البلدان العربية من خلال منظور تنوع هذه الأشكال من مجتمع إلى آخر ومن حقبة زمنية إلى أخرى. وبين بعض حدود المؤسسات الثقافية في البلدان العربية وقدم اقتراحات لتحسين هذا الداء.

وفَوْقَ هذه الدراسات والبحوث يجد القارئ قراءات تحليلية لكتابين وتقارير حول ملتقيات علمية. كما قام الأستاذ عبد القادر بوزيدة، بطلب من مديرية التحرير للمجلة بتقديم بورتريه للأديب عبد الحميد بن هدوقة، وذلك تكريما لهذا الأديب المبدع بمناسبة عقد الملتقى الثالث عشر للرواية «عبد الحميد بن هدوقة».

2 – كلمة لا بد منها: أود أن أسجل اعترافي بأن هذا المشروع العلمي تحقق بفضل تضافر مجهودات العديد من الأفراد والأطراف. في البداية انوه بإدارة جامعة الجزائر2 في شخص رئيسها الأستاذ هني عبد القادر، حيث أن الفكرة تطورت معه وكان لإيمانه بالمشروع ولتشجيعه الأثر الكبير على عمل طاقم المجلة، خاصة وأنه عمل على توفير ليس فقط الجو المعنوي المناسب وإنما أيضا العدة والمستلزمات المادية المطلوبة. كما أنوه بالدور الذي لعبه كل من أعضاء هيئة التحرير وأعضاء لجنة المراقبة اللغوية، حيث كان للمناقشات الطويلة والمستمرة المباشرة (خلال اجتماعات متعددة) أو غير مباشرة (عن طريق الشبكة العنكبوتية) أهمية بالغة في حسم اختيار وتدقيق وضبط قواعد العمل

للمجلة ومواضيع هذا العدد. ولا يفوتني أن أنوه كذلك بالمساهمات التي قدمها العديد من أعضاء اللجنة العلمية واللجنة العلمية الدولية في القراءة والتحكيم والتدقيق اللغوي وربط الاتصالات بالعديد من الباحثين ومراكز البحث، وأخص بالذكر هنا الدكتور بشاني أحسن اعترافا بالمجهودات الكبيرة التي بدلها في هذا الإطار.

لقد تطلب انجاز هذا المشروع عمل فني معتبر من تصميم وإخراج وتحضير للمحتوى في صورته النهائية بمقر المجلة وهذا سواء بالنسبة للنسخة الورقية أو النسخة الإليكترونية، تحملت الآنسة نعيمة بن صام أعبائه معي بكفاءة ومهنية عالية، حيث ساهمت في تحويل الصعاب إلى عمل ممكن ومضبوط. وفي الأخير وليس أخيرا اعترافي وامتناني يتوجه إلى أسرة جامعة الجزائر2 من أساتذة وعمال وهم الذين لم يبخلوا على طاقم المجلة بالكلمة الطيبة والتشجيع والتأكيد على ضرورة إخراج المجلة في صورة تليق بسمعة جامعتنا والطموحات التي نعمل جميعا على تحقيقها. وبطبيعة الحال شكري يذهب كذلك إلى كل الذين تعاونوا معنا في هذا العدد من مختلف الجامعات والذين يعتبرون بحق ممثلين عن المجلة وأصدقاء لها في رحاب الفضاء الواسع لمجموع البلدان العربية.

دراســـات وبحـــوث

السيف والقلم: ابن خلدون وإشكالية الحرب

أ.د. فتحي التريكي
صاحب كرسي اليونسكو للفلسفة –جامعة تونس

ملخص:

نلقي في هذا البحث بعض الأضواء على فكرة الحرب في مقدمة ابن خلدون وعلى كيفيات تمظهرها في السلطة والحكم. ويمكن هنا تحديد ثلاث نقاط أساسية لفهم نظرية ابن خلدون في الحرب.

النقطة الأولى للحرب: خضوع الظاهرة إلى الممارسة السياسية.

النقطة الثانية تخص إستراتيجية الحرب وأنواع القتال من خلال أشكال ثلاثة وهي أولا الزحف صفوفا والهجوم الدائم حتى القضاء على العدو وثانيا القتال بالكر والفر. وهو قتال العرب البربر الذي يعتمد الحركة المتواصلة والهجوم والدفاع والهروب. وثالثا التعبئة وفيه يتم تقسيم الجيوش جموعا حسب الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع.

أما النقطة الثالثة فهي تهم الغاية من الحرب ونعني بها الغلبة أو استراتيجية الانتصار.

هكذا مع ابن خلدون ولأول مرة في الفكر العربي والإسلامي، يبتعد التفكير عن النصائح في الحرب ولا يقتصر على السرد ووصف المعارك والفتوحات. ومع أننا لا نجد في نصه إقرارا لاستقلالية هذا العلم، إلا أن هناك محاولة جادة للتجريد والتنظير. فمع ابن خلدون تصبح المعركة حقلا هاما للتنظير يرتبط بحقل السياسة والسلطان وبحقل العمران والمجتمع.

الكلمات الدالة: الحرب، السلطة، الحكم، المعركة، العمران، المجتمع، الإستعمار.

مقدمة:

ليس من باب الصدفة أن يدرس ابن خلدون الحرب دراسة نظرية من خلال تحليل آليات الملك ونظامه؛ فابن خلدون قد قام كما هو معروف الآن، ببناء نظرية متكاملة للدولة وللسلطة تقوم على دراسة النموذج البدوي القبلي وتحليل مظاهر الخلافة وأشكال الحكم، بطريقة استقرائية تستنطق الأحداث التاريخية والتجارب السياسية المختلفة. والحرب تمثل آلة من آليات الملك، بل هي عنصر أساسي للممارسة السياسية.

سنحاول في هذا البحث أن نلقي بعض الأضواء على فكرة الحرب في «مقدمة» ابن خلدون، وعلى كيفيات تمظهرها في السلطة والحكم؛ ومعالجة العلاقة التناوبية بين السيف والقلم في قيام السلطة والمحافظة عليها.

ولكن قبل ذلك، لا بد من التأكيد على أن ظاهرة الحرب قد درست طبعا قبل ابن خلدون، من وجهة نظر علمية تقنية، من قبل كثير من المؤرخين والاستراتجيين العرب؛ فالوثائق التاريخية والأوصاف الفنية للحروب ووقائعها والتخطيطات التكتيكية ودقائقها، في كتب الأيام والمغازي والفتوحات والتاريخ، لا تكاد تحصى، فهي كلها قد اهتمت بالحروب

وسلاحها ومعداتها ولوازمها وغنائمها ونتائجها. ولكن كل ذلك أيضا، وان كان يستدعي أعمالا نظرية وأبحاثا دقيقة، لا يهمنا في هذا الموضع، لأنها ورغم أهميتها تبقى تسجيلا للوقائع دون انغماس نظري في الأسس ودون محاولة للتنظير. لذلك سوف لن نركز، في دراستنا هذه، على هذه التسجيلات والأوصاف للحرب وأشكال القتال، بقدر ما سنحاول أن نتعرف على الشكل التنظيري الذي اتصفت به الحرب في مقدمة ابن خلدون، وان نسائل المفهوم الاصطلاحي للقتال ومستتبعاته العمرانية والسياسية.

كذلك لابد من التأكيد هنا أن الفلاسفة العرب والمسلمين في العصر الوسيط قد انشغلوا بدراسة فكرة الحرب وتحليل أبعادها الفلسفية والأخلاقية وربطها بالشأن السياسي تارة وبالشأن الديني تارة أخرى. كما نجد عندهم تفكيرا معمقا أحيانا في موضوع صناعة الحرب ووسائلها وكانوا في ذلك يسيرون عامة على منوال أفلاطون وأرسطو؛ إذ نجد ذلك المنوال حاضرا، مثلا، بوضوح عند الفارابي[1] كما عند ابن رشد[2]. ولم يكن مقصد ابن خلدون مقاربة الحرب من وجهة نظر أخلاقية أو فلسفية بالرغم من أنه قد كان متأثرا ببعض التوجهات الفلسفية لنظرية الحرب.

وفي حقيقة الأمر، يمكن تقسيم مقاربة ابن خلدون لمفهوم الحرب إلى حقلين مختلفين، حقل فكري عام : يدرس الحرب من حيث هي صفة من صفات التوحش، تتسم بها طبيعة الإنسان واجتماعيته في الآن نفسه، وحقل سياسي : يدرس فيه ابن خلدون الحرب من حيث هي ظاهرة للممارسات السياسية تابعة لشؤون الدولة.

1. الحقل الفلسفي:

فالحرب «أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل»[3]، وذلك لا يعني البتة وجود فرضية «الحالة الطبيعية» كأصل للوجود الاجتماعي والسياسي للبشر عنده، كما نجد ذلك فيما بعد عند فلاسفة الحق الطبيعي في القرن الثامن عشر بأوروبا. وذلك لأن أصل الحرب عصبية؛ عصبية بعض البشر مجتمعة ضد أهل عصبية أخرى. فـ «...أصلها إرادة انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصبية فإذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان إحداهما تطلب الانتقام والأخرى تدافع كانت الحرب»[4].

فالإنسان، في نظر ابن خلدون، لم يمر بحالة طبيعية تتميز بالحروب نحو حالة اجتماعية تسودها القوانين ويدعمها السلام، فليست هناك عنده أوصاف دقيقة لما يمكن أن يكون عليه الإنسان لو لم توجد مجتمعات ولم يكن هناك اجتماع بين البشر. «فالاجتماع الإنساني ضروري» كما يقول ابن خلدون[5] ؛ وهي ضرورة للبقاء بواسطة المحافظة على الحياة والدفاع عنها «بالفكر واليد» كما يؤكد ايضا[6] ؛ واليد «مهيأة للصنائع بخدمة الفكر والصنائع تحصّل

1- أبو نصر الفارابي كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، اللجة اللبنانية لترجمة الروائع ببيروت والمعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة 1980

2- ابن رشد "مختصر كتاب السياسة لأفلاطون"، نقل أحمد شحلان، بيروت 1998

3-انظر، المقدمة، الفصل السابع والثلاثون من الباب الثاني "في الحروب ومذهب الأمم وترتيبها". طبعة الدار التونسية للنشر، تونس 1993

4- نفس المصدر، نفس الفصل .

5- نفس المصدر، نفس الفصل.

6- نفس المصدر، الفصل الأول من الباب الأول " في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات ".

له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة والتُراس النائبة عن البشرات الجاسية إلى غير ذلك»[7].

هكذا، إذن، جُعل الإنسان ليعيش في مجتمع معين، واجتماعيته طبيعية لأنها، حسب ابن خلدون دائما، فطرة ورغبة طبيعية في البحث عن متطلبات العيش والبقاء بالغذاء[8] من ناحية، وبالدفاع عن حياته من ناحية أخرى؛ وذلك بواسطة المعاضدة والتعاون الذي «.... حصَّل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه «كما يسجل ابن خلدون[9].

من هنا نستطيع القول بأن الحرب طبيعية اجتماعية في الآن نفسه وهي، عند ابن خلدون، أصل الاجتماع بين البشر، وهي في شكلها الدفاعي تمثل عنصرا من عناصر البقاء. كذلك نتبين أن حالة البدو عنده ـ التي تكون حالة اجتماعية عمرانية ولكنها اقرب إلى الحالة الطبيعية ـ هي الأصل بما أن « وجود البدو متقدم على وجود المدن»[10]. لذلك فهي تتسم بالعنف المستمر، طالما لم تتحول إلى حالة الحضر والتمدن، لأن البدو « قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم...فهم دائما يحملون السلاح...وقد صار لهم البَأس خَلقا والشجاعة سجيَّة يرجعون إليها متى دعاهم داع...»[11].

ذلك يعنى أن حالة البدو هي، في أساسها، حالة الحرب والعنف، والحرب هنا لا تعني ذلك العنف المقنن والمنظم بالغايات السياسية والأهداف المسطرة المعروفة مسبقا، بل تعني حالة الفوضى والعشوائية التي تتبلور فيها «طبائع الشر» وعوائد الخشونة والوحشية والعدوان؛ عدوان بعض «على بعض»[12]. أما الحالة الحضرية المدنية فهي حالة سلم ووزع لا تكون فيها الحرب فوضى، بل هي استباع لعمل السياسيين، لان «عدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة»[13]. فطبائع الشر مكبوحة «بحكمة القهر والسلطان».

والملاحظ هنا هو أن حالة البدو ليست حالة تفرد، فالإنسان إذا كان وحيدا بدون حسب ونسب لا يستطيع البقاء وحيدا في العيش، لان المتفردين سيصيبهم حتما الشتات والانقراض. «..فإذا أظلم الحق بالشر يوم الحرب تسلل كل واحد منهم يبغي النجاة لنفسه خيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرون من أجل ذلك على سكنى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلقهم من الأمم سواهم»[14]؛ لكل ذلك تكون العصبية هي اصل المدافعة والحماية، وهي قوام الملك «بمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوءة أو إقامة ملك أو دعوة إذ بلوغ الغرض من ذلك كله أنه يتم بالقتال عليه...ولا بد في القتال من العصبية...».

7- نفس المصدر، نفس الفصل

8- نفس المصدر، نفس الفصل

9- نفس المصدر، نفس الفصل

10- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل الثالث

11- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل الخامس

12- نفس المصدر، الباب الثاني من الفصل السابع

13- نفس المصدر، نفس الفصل

14- نفس المصدر، نفس الفصل

فالعصبية سواء كانت بصلة الرحم أو القربى أو النسب أو الولاء والحلف هي التي تحمل النفوس على «النعرة» والمدافعة والحماية، وهي التي تهيئ القوم على المقاتلة بصفة عامة، لا سيما إذا كانت هذه العصبية كما يقول ابن خلدون «في الصريح من النسب»؛ أي تلك التي توحد الناس في القبائل المتوحشة وتسير بهم نحو تنظيم أمورهم تنظيما سياسيا يعتمد الغلبة والقوة والبطش، لأن «الرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية»[15].

2. الحرب ظاهرة سياسية:

هكذا إذن، نجد في المقدمة تحليلا عميقا للحرب من حيث هي ظاهرة طبيعية تساعد على بناء المجتمع والملك وتلتصق بالعصبية. ولكن الحرب في نظر ابن خلدون تبقى، أساسا، ظاهرة سياسية تابعة لنظام الملك. وقد خصص لذلك فصلين كاملين في القسم الثالث من «المقدمة» الذي يتحدث فيه عن الملك والخلافة ؛ وهما، تحديدا، الفصل الخامس والثلاثون ويتناول فيه قضية التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول، ثم الفصل السابع والثلاثون ويتطرق فيه إلى الحرب ومذاهب الأمم وترتيبها.

ولعل ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو صعوبة تناول هذه الإشكالية في المقدمة، لان ابن خلدون حاول الخروج عن المعهود في الكتابات العربية عن الحرب تلك التي تتسم، في غالبها، بالطابع الوصفي التدقيقي للمعارك والمقاتلات، دون أن تصل إلى مستوى التحليل والتنظير ودون أن تربط مفهوم الحرب بالظاهرة السياسية وبالحياة الاجتماعية وبالتفكير الاستراتيجي العام. وابن خلدون، هو من أول المنظرين في الحضارة العربية الإسلامية لهذه الظاهرة التي لا تفهم إلا من خلال ارتباطها بالقلم والسيف، بالنظر الإستراتيجي والعمليات التكتيكية في ساحات الحرب. وقد اعتبر ابن خلدون «علي ابن طالب» المؤسس الحقيقي لعلم الحرب في الفكر الإسلامي.

ومع ذلك لا بد أن نوضح هنا أن الحديث عن الحرب لم يأخذ بعد، عند ابن خلدون، صبغة مستقلة بذاتها؛ بمعنى أن التحليل الخلدوني لظاهرة الحرب لم يكن لفهم الحرب نفسها ولم يكن يهدف إلى معرفة الحرب في نمط تكونها وفي نمط سيرورتها. وفي واقع الأمر، كان علينا أن نترقب كتاب كلوزفيتز «في الحرب»، الذي صدر في أوائل القرن التاسع عشر والذي كان يهدف أساسا إلى تنظير ظاهرة الحرب بالاعتماد على ممارساتها، لكي يصبح للحرب علم قائم بذاته ومستقل له قواعده وطرقه ومسالكه.

ذلك لا يمنعنا من الإقرار بأسبقية ابن خلدون في محاولة تنظير الحرب بالاعتماد على التأسيس الفلسفي من ناحية، وعلى التفكير في كيفيات القتال وتقنياته، فتأثير الفارابي على ابن خلدون كان واضحا؛ إذ أن الفارابي قد عرض في الفصل الربع والثلاثون من كتابه الشهير «آراء أهل المدينة الفاضلة» نظرية القهر في الفكر الاجتماعي السياسي، التي تفسر البقاء والاجتماع لا بالطبع أو بالإرادة، بل بالعنف الطبيعي ذلك أنه «لا يرتبط اثنان إلا عند الضرورة، ولا يأتلفان إلا عند الحاجة». ثم يكون بعد اجتماعهما على ما يجتمعان عليه كأن يكون «أحدهما القاهر والآخر مقهورا».

ولعلنا لسنا نغالي إذا قلنا بأن نظرية القهر الفارابية، التي لابد من التوسع فيها، قد تبين في الأخير مدى تأثير الفارابي على ابن خلدون في تكون فكرة العصبية التي تؤسس الارتباط

15- نفس المصدر، نفس الفصل

المجتمعي بواسطة رابطة الدم والانتماءات العائلية والقبلية. ونحن هنا بهذه المناسبة نعرض فرضية علمية، تتطلب مجهودا علميا لا تتحمله هذه الورقة، وهي أن نظرية العصبية تعود، أصلا، للفارابي الذي قدم لها في الحقيقة معطياتها النظرية، ثم طورها، بعد ذلك، ابن خلدون وجعل منها فلسفة عمرانية.

فالفارابي يستعرض هذه النظرية القائلة بأن : «الاشتراك في الولادة من والد واحد هو الارتباط به، وبه يكون الاجتماع والائتلاف والتحاب والتوازر على أن يغلبوا غيرهم، وعلى الامتناع من أن يغلبهم غيرهم. فان التباين والتنافر بتباين الآباء، والاشتراك في الوالد الأخص والأقرب يوجب ارتباطا اشد، وفيما هو اعم يوجب ارتباطا اضعف، على أن يبلغ من العموم والبعد على حيث ينقطع الارتباط أصلا ويكون تنافرا، إلا عند الضرورة الواردة من خارج، مثل شر يدهمهم، ولا يقومون بدفعه إلا باجتماع جماعات كثيرة. وقوم رأوا أن الارتباط هو بالاشتراك في التناسل، وذلك بان ينسل ذكورة أولاد هذه الطائفة من إناث أولاد أولئك، وذكورة أولاد أولئك من إناث أولاد هؤلاء، وذلك التصاهر».

نستخلص من نص الفارابي هذا أن الرابطة الاجتماعية يمكن أن تكون بالاشتراك في العائلة أو في القبيلة، وان رابطة الدم هي الحافز على الغلبة اجتماعا وسياسة. ولا يخفى علينا أن هذه الفكرة الفارابية هي شرط من شروط تكون مفهوم العصبية الخلدوني، وهي أساس قيام الدولة في النظرية العمرانية. ولعل الفارابي يذهب إلى حد أبعد من هذا عندما يعتبر أن الحرب استتباع لنظرية التغلب والغلبة لأن «الارتباطات» المذكورة سابقا، سواء كان ذلك بتميز «قبيلة عن قبيلة أو مدينة عن مدينة، أو أحلاف عن أحلاف، أو أمة عن أمة»[16]، تؤدي حتما إلى «التغالب» بغية «السلامة والكرامة واليسار واللذات»[17][17].

هكذا يرى الفارابي أن التغالب كامن في طبع كل طائفة وبما أن «ما في الطبع هو العدل» يستخلص الفارابي أن «العدل هو التغالب». كما يستنتج من كل ذلك نظرية متطورة في السيد والعبد تقوم على مفهوم العدل الطبيعي؛ لان القاهر يستطيع أن يقتل المقهور ويرديه جثة هامدة. إلا أن ذلك سيؤدي في الأخير إلى «انفراد القاهر بالوجود»؛ أي إلى الوحدة وانعدام الارتباطات الاجتماعية. لذلك سيقوم القاهر بالاحتفاظ على حياة المقهور شرطة أن يتخلى هذا الأخير عن كرامته وحريته، ويصبح عبدا للآخر، وبذلك يكون «استعباد القاهر للمقهور هو أيضا من العدل».

هكذا، إذن، يتحدد المناخ النظري العام لفكرة الحرب عند ابن خلدون من حيث تأصيلها في الفكر الفلسفي الفارابي ومن حيث انفتاحها على المجتمعات العربية التي عاصرها. لكل ذلك تكون الحرب فكرة فلسفية وظاهرة سياسية في الآن نفسه. ولعل ابن خلدون يكون، بهذا المعنى، هو أول من انتبه إلى هذا الترابط بين الظاهرتين ولكنه لم يستطع أن يصل به إلى مستوى المفهوم؛ ليفتح بذلك علما جديدا هو علم الحرب، على غرار ما قام به، بعد قرون من ذلك، الجنرال الألماني كلاوزفيتز، الذي حارب نابليون بونبارت وكتب بعد ذلك كتابا حول علم الحرب واستراتجياته والعمليات المتعددة المتصلة به.

إذا ما أردنا دراسة تقنيات الحرب، في بعدها النظري، عند ابن خلدون سنجد هنا صعوبة في تناول هذه الإشكالية قد تتمظهر في «التململ النظري» الذي طبع تفيره في هذا المجال؛

16- نفس المصدر، نفس الفصل

17- نفس المصدر، نفس الفصل

فلتحديده ظاهرة الحرب نجده مثلا، بعد أن يتحدث عن السيف والقلم في الفصل الخامس والثلاثون من مقدمته، ينقطع فجأة ليتناول بالبحث قضايا تبدو بعيدة، نوعا ما عن الحرب، مثل الشارات والأبهة والبذخ ومظاهرها أو (السكة) (la monnaie) والخاتم وغيرها، أو الفساطيط والسياج الخ. قد يعني ذلك أن ابن خلدون لم يربط بصفة دقيقة الحرب بالسياسة. ولكننا نؤكد أن هذا الفصل هام في نظرية التعبئة التي تصاحب عادة كل إعلان للحرب. ومع ذلك سنحاول تتبع ابن خلدون في ضبطه لظاهرة الحرب ليتسنى لنا معرفة نظريته وطرافتها. ويمكننا تحديد ثلاث نقاط أساسية لفهمها. تتمثل الأولى في تسطير حقل انتماء الحرب، وتتمثل الثانية في استراتيجية الحرب وأنواع القتال، وأما الثالثة فتتمثل في شرح أسباب الانتصار.

1.2. طبيعة الحرب:

كما بينا سابقا تكون الحرب حالة طبيعية : «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان» حسب تعبير الفيلسوف الأنجليزي توماس هوبس، بعد قرنين من الزمن على ابن خلدون فإبن خلدون يؤكد دائما على العنف الطبيعي في البشر سواء جاء هذا العنف في قالب حرب أو قتال أو عصبية أو غزو، وفي كل مظاهر العنف الطبيعي أو العمراني الأخرى. إلا أن العنف في شكله الحربي يتضمن هنا أنواعا مختلفة يحددها ابن خلدون في قسمين : قسم خاص بالحرب العادلة وقسم خاص بالحرب غير العادلة يسميها حروب بغي؛ وحروب البغي على صنفين : الحروب القائمة على الغيرة والمنافسة وهي حروب تقوم بها القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. والحروب القائمة على العدوان وهي حروب وحشية تقوم بها أمم تقتات بواسطة الحرب؛ أي حروب من «جعلوا أرزاقهم في رماحهم» بتعبيره، وابن خلدون يريد من هذا القول التأكيد على أن الغاية في هذا الصنف من الحرب غير سياسية؛ أي أن غاية الحرب هنا لا تكمن في الوصول إلى الحكم والسلطة» بل الغاية اقتصادية معيشية لا غير».

أما الحروب العادلة فهي أيضا على صنفين : حروب الجهاد ويحددها ابن خلدون بغايتها الدينية البحتة، وهي بتعبيره غضبٌ لِله ولدينه. وحروب الدول وغايتها الملك والدفاع عنه والسعي إليه والمحافظة عليه.

ما نستخلصه هنا أن مقياس تحديد ابن خلدون لهذه الأنواع من الحرب يبقى سياسيا أساسا، فالحروب التي تتصل بالسلطة ـ في شكلها الديني أو الدنيوي ـ هي حروب عادلة أو هي الحرب في مفهومها المقبول. أما بقية الحروب الأخرى فهي في نظر ابن خلدون فتنة وبغي. ومما يؤكد هذه النظرة، ويجعل الحرب عند ابن خلدون ظاهرة سياسية، هو ربط السيف بالسلطان، أي جعل الحرب آلة من آليات السلطة[18].

هكذا يعتبر ابن خلدون الدولة جهاز قلم وسيف تحتاج إليهما في نمط تكونها وفي نمط عملها. إلا أنه يعتبر أن تكون كل دولة يحتاج إلى السيف والحرب والعنف أكثر من احتياجه إلى القلم والفكر والأدب، كذلك الشأن في آخر عمر الدولة؛ حيث تضعف عصبيتها.

أما في نمط عملها اليومي فالدولة تحتاج أكثر إلى القلم؛ لا سيما إذا تم الاستقرار (أي في وسط عمر الدولة) وقويت أوتادها. وهنا أيضا يقارن ابن خلدون بين الاستراتيجي صاحب

18- نفس المصدر، الفصل 35

السيف والمثقف الأديب صاحب القلم. ففي هذه المرحلة من عمر الدولة يكون السلطان الأمير محور السلطة ويكون الاستراتيجي المثقف عمادها؛ بمعنى أن السلطة تكون، حسب ابن خلدون، تارة في حاجة أكثر إلى صاحب السيف وتارة أخرى في حاجة أكثر إلى خدمة القلم. والسلطان يعطي الجاه والنعمة والثروة، حسب الاحتياج، إلى هذا أو ذاك، وقلما أعطاها لهما في الآن نفسه؛ بل قلما اعتمد عليهما في الآن نفسه بنفس الصيغة وأعطاهما نفس الجاه والثورة.

2.2. استراتيجية الحرب وأنواع القتال:

لسنا نجد عند ابن خلدون تمييزا واضحا بين الاستراتيجيا والتكتيك، أو بتعبير آخر تمييزا بين مقاربة الأهداف والغايات وتقنيات الحرب. ومع ذاك نجد عنده محاولة للتفكير في تقنيات المعارك وأنواع القتال.

كذلك لسنا نجد بوضوح علاقة فنيات الحرب في الميدان بتطور الأسلحة، بقدر ما نجد غيابا غريبا نوعا ما لتعداد أنواع الأسلحة المستعملة؛ بل كل ما نجد مدونا عنده، في هذا الموضوع، ذكر السيوف والرماح والأنبال واستعمال الأحصنة وإشارة إلى الفيلة والإبل.

ورغم ذلك فنحن نجد وضوحا في تحديد أنواع المعارك وحركة الجيوش فيها ووصف الوقائع، مع التأكيد على نوع محدد للإستراتيجية.

هناك بالنسبة إلى ابن خلدون ثلاثة أنواع للإستراتيجية الحربية حددها من خلال نوعية الشعوب التي استعملتها تاريخيا:

- **الاستراتيجية الاولى**: وهي الزحف صفوفا، ويعتبره ابن خلدون قتال العجم. وهي استراتيجية النظام المحكم والهجوم الدائم حتى القضاء على العدو.
- **الاستراتيجية الثانية**: وهي القتال بالكر والفر. وهو قتال العرب البربر. ويعتمد الحركة المتواصلة والهجوم والدفاع والهروب.

وهنا لابد أن نلاحظ أن الإستراتيجية الأولى هي إستراتيجية سلطة منظمة وموحدة، بينما تكون الثانية للبدو لأن هدف البدو يكمن في الغارة لطلب الأرزاق. وفي هذا الخصوص يظهر ابن خلدون ميله الصريح إلى النوع الأول من الإستراتيجيا، ليس لأن هذا النوع من الإستراتيجيا يعتمد الهجوم ــ فابن خلدون يعتبر أن المحارب الحقيقي ليس المسرع في الهجوم، بل الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة والكف حسب تعبيره ـــ إنما حبذ هذا النوع لأن قتال الزحف تُرتَّب فيه الصفوف التي تمشي قدما فتكون، حسب تعبيره أيضا، اثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو. والمقصود هنا النظام والتقدم وبث الرعب. ففي هذه الإستراتيجية يكون الثبات هو الأساس ويكون المكيث هو الرجل المناسب للمصارعة والقتال. بينما في إستراتيجية الكر والفر تكون الحركة هي الأساس والتسرع (أو السريع) هو الرجل المناسب للقتال.

إلا أن ابن خلدون يعتبر أن هذا النوع الثاني من إستراتيجية الحرب لا يكون صالحا إلا إذا كان هناك مصاف وراثي ثابت يلجئون إليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف.

-**الإستراتيجية الثالثة**: وهناك نوع ثالث من الإستراتيجية في الحرب أقرب إلى إستراتيجية الزحف منه إلى إستراتيجية الكر والفر، ولكنه يعتمد أكثر على الحركة، وهو التعبئة؛ وفيه يتم تقسيم الجيوش جموعا حسب الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع : هناك عساكر المقدمة تتميز بقائده ورايته وشعاره ثم الميمنة والميسرة ثم الساقة، أي عسكر الوراء، ويقف الملك (أو الجنرال) وأصحابه في الوسط وهو القلب.

ويرى ابن خلدون أن هذا النوع يصلح للجيوش الكثيرة المنضوية تحت إمرة ملك واحد.

÷ **3.2. الغاية من الحرب:**

أما النقطة الأساسية الثالثة فتهم الغاية من الحرب، ونعني بها الغلبة أو إستراتيجية الانتصار.

طبعا سيكون هدف كل حرب هو الانتصار والغلبة. لذلك فهي تقوم على العنف والخدعة وتفترض ثلاثية محددة : العنف والسياسية والاحتمال. إذ أن الزحف، كما بينا، واستعمال كل أنواع الأسلحة والهجوم والقتال كلها حيوية للنجاح والانتصار في الحرب. ولكن هناك الخدعة واستعمال جميع أنواع الفكر السياسي من إعلام وشهرة. وهناك أيضا ما يسميه ابن خلدون بالبخت والصدفة.

فالوصول إلى الغاية والظفر بالحرب وأسباب الغلبة فيها ما هو ظاهر وما هو خفي، فالأسباب الظاهرة تهم الإستراتيجيا بصفة عامة، وهي إعداد العدة للحرب، من تدريب الجيش وتنظيمه وصناعة الأسلحة وجودتها والتحضيرات الاقتصادية والسياسية والفكر الاستراتيجي؛ أي ما يسميه ابن خلدون صدق القتال. أما الأسباب الخفية فهي على نوعين:

-أمور إنسية مثل خداع البشر وحيلهم ويدخل في هذا الباب كل الأمور التكتيكية لخوض المعركة الحاسمة أو أم المعارك.

-أمور غيبية (أو سماوية). وابن خلدون يعطي أهمية قصوى للأمور السماوية، ليس اعتقادا راسخا منه في وجودها بل تأكيدا على تأثيرها على الجيشين المتحاربين على حد السواء؛ لأنها كما يُؤكد لنا تُلقى في القلوب فيستولى الرهب عليهم لأجلها فتختل مراكزهم، فتكون الهزيمة لهؤلاء والانتصار للآخرين.

على أنه إذا اجتمعت أسباب الانتصار الظاهرة وأسبابها الخفية تكون الغلبة المجتمعة، مهما كان عدد الجيوش ومهما عظم شأنها؛ لأن في تلك الحالة تكون العصبية موحدة للجميع موجهة للجيوش ومجمعة للثلاثية التي تحدثنا عنها: العنف والحيلة والصدفة.

الخاتمة:

بناء على ما سبق من تحليل يمكننا استنتاج معطيات هامة حول فكرة الحرب عند ابن خلدون ونلخصها في النقط الآتية :

النتيجة الأولى: هي أنه مع ابن خلدون تتراءى لنا شروط قيام علم الحرب من وجهته النظرية. **أولا** من خلال تحديدها من حيث هي ظاهرة سياسية تابعة لشؤون السلطان. **ثانيا** من خلال تحديد القتال وبيان أنواعه وكيفياته أي من خلال نظرة تكتيكية للحرب. **ثالثا** من خلال تحديد أسباب الانتصار والغلبة في ثلاثية متلاحمة العنف والحيلة

والصدفة.

النتيجة الثانية: مع ابن خلدون ولأول مرة يبتعد التفكير في الفكر العربي عن النصائح في الحرب أو السرد ووصف المعارك والفتوحات. ومع أننا لا نجد في نصه إقرارا لاستقلالية هذا العلم، إلا أن هناك محاولة جادة للتجريد والتنظير. مع ابن خلدون إذن تصبح المعركة حقلا هاما للتنظير يرتبط بحقل السياسة، من حيث ارتباطه بالسلطان وبحقل العمران والمجتمع، بارتكازه على العصبية التي هي في الأخير الضامن للغلبة والانتصار.

وفي الأخير لابد من ملاحظة أن ابن خلدون قد تفطن إلى ما يحوم حول المعركة من أشياء، لا تفهم ظاهريا، كالحيل والخداع والشهرة والصيت. وما يلفت الانتباه أيضا هو أن ابن خلدون يعتبر، عن صواب، أن الإخبار والأخبار هامان للهزيمة والنجاح. وهذه النظرة تكاد تكون عصرية، لان الحرب هي قبل كل شئ حرب إعلام تعتمد الخداع والصيت والإشهار.

معدلات الانجاز العالمي في الرياضيات والعلوم والذكاء: دروس وعبر للعالم العربي

أ.د. عمر هارون الخليفة
مؤسس مشروع طائر السمبر–جامعة الخرطوم

ملخص:

هدفت الدراسة لمعالجة موضوع معدلات الانجاز العالمي في الرياضيات والعلوم والذكاء في جنوب آسيا والدروس المتعلمة للعالم العربي. ولتحقيق هذا الهدف تم عرض معدلات الرياضيات والعلوم من خلال الألمبياد العالمي للرياضيات والعلوم لعام 1999، وعام 2003. كما فحصت الدراسة العلاقة الارتباطية بين معدلات الانجاز في الرياضيات والعلوم والذكاء، وعرضت الدراسة معدلات الأداء العالمي والعربي في اختبارات الذكاء. وتم إجراء بعض المقارنات من خلال وجه الشبه والاختلاف بين مقاييس المصفوفات المتتابعة ومعدلات ذوي القدرات العالية . وقدمت الدراسة لأول مرة في العالم العربي موضوع تأثير لين– فلين ومعدلات الذكاء القومي. وختاما، قدمت بعض التطبيقات لبحوث مستقبلية في المجال خاصة معرفة الطرق البيولوجية (الجينات) والبيئية (المثيرات) التي تعزز زيادة معدلات الذكاء القومي.

الكلمات الدالة: الأداء، الرياضيات، العلوم، الذكاء، البلدان العربية.

1. معدلات الإنجاز العالمي في الرياضيات والعلوم

أجريت بعض الدراسات عن تحليل معدلات الأداء في الرياضيات والعلوم وذلك في المنافسات العالمية في هذين المجالين خاصة منافسات عام 1999 و2003 (الخليفة، 2008أ، 2008ب؛ الخليفة وأبوناجمة، Barnett & Williams, 1993، Baker & Jones, 2009 2004; Beaton et al, 1996a; 1996b; Lynn, 1988; Lynn & Vanhanen, 2002; 2006; Martin, 1997). وأظهرت نتائج هذه الدراسات وجود تباينات قارية وقطرية كبيرة بين معدلات الأداء في الرياضيات والعلوم. وعموما تفوقت بعض دول جنوب شرق آسيا في هذه المنافسات مقارنة بأداء بعض الدول الأوروبية والأمريكية. ولقد حافظت بعض الدول على معدلات أداء مرتفعة في المجالين وتزحزحت مواقع بعض الدول قليلا في ترتيبها العالمي. ولقد ارتبطت معدلات الأداء العالي في الرياضيات والعلوم بمعدلات أداء عال في اختبارات الذكاء مما يوضح طبيعة العلاقة الارتباطية بين تحصيل الرياضيات والعلوم من جهة ومعدلات الأداء في اختبارات الذكاء من جهة أخرى. ويلاحظ عموما ضعف المشاركات العربية في المنافسات المذكورة فضلا عن ضعف معدلات أداء هذه الدول في الرياضيات والعلوم. وربما يعزى الأداء العالي للرياضيات والعلوم لعدة قوي من بينها قيم المثابرة والجهد في الدول الآسيوية وبصورة خاصة التدريب على برنامج العبق (اليوسيماس) وهو برنامج ماليزي للحساب الذهني يساعد على تنمية وتفجير القدرات خاصة في نصف الدماغ الأيمن. وسوف نحاول في هذه الدراسة النظرية التعرض لهذه الجوانب المذكورة.

منذ عام 1959 تقوم الرابطة العالمية لتقويم التحصيل التربوي بتنظيم سلسلة من الدراسات المقارنة العالمية والتي تهدف لتوفير بيانات لمتخذي القرار والتربويين والباحثين والممارسين عن التحصيل التربوي وسياقات التعلم التي يتم فيها تدريس الرياضيات والعلوم. وكانت الدراسة المتعلقة باالألمبياد العالمي للرياضيات والعلوم هي الأكبر من نوعها والتي تم جمع بيانات من 45 دولة وفي أكثر من 30 لغة مختلفة. وكان عدد الممتحنين في مستوى الصف الخامس أكثر من نصف مليون طالب حول العالم. ولقد شاركت في هذه المنافسات 15000 مدرسة فضلا عن مشاركة آلاف الأفراد في عملية جمع البيانات. ولقد جمعت بيانات معظم الدول خلال شهر مايو ويونيو عام 1995. ومن بين الجوانب التي امتحن فيها الطلاب الاحتمالات والتحليل والهندسة والجبرة والكسور والرسوم البيانية. وكانت ربع الأسئلة مفتوحة الاجابة وعلى الطالب أن يحدد ويكتب الجواب المناسب. بالاضافة لذلك تم جمع معلومات عن دور المنزل والمدرسة والسياقات القومية التي يقع فيها تعليم الرياضيات والعلوم من خلال استمارة أعدت خصيصا لذلك. وتملء هذه الاستمارة بواسطة المعلمين وإدارة المدرسة عن ممارسة تدريس الرياضيات والعلوم (Beaton, 1996a).

أظهرت نتائج الدراسات هناك زيادة عالية للقدرة العددية في اليابان ما بين مرحلة الطفولة ومرحلة المراهقة. فمثلا، أظهرت الدراسات بأن الأطفال في عمر 6 سنوات ينالون حوالي 97 درجة في القدرة العددية بينما ترتفع الدرجات إلى 110 وسط الأطفال في سن 16سنة. وترجع هذه الزيادة الكبيرة لنسبة التعليم الفعال للقدرة العددية في المدرسة اليابانية. وفي بعض التفسيرات تعزى لجحيم الامتحانات في اليابان والذي يطلق عليه (shiken jigoku) كما يعزى كذلك للتوقعات العالية للأم اليابانية من طفلها في المدرسة فمقابل أمايي "amae" الاعتماد الايجابي للطفل على أمه تتوقع منه أن يقدم أفضل ما عنده في المدرسة. وغالبا ما يتعمق احساس الأم اليابانية بالذنب في حالة اخفاق طفلها. وفي عمليات العزو السببي في اليابان فإنه في حالة اخفاق الطفل في الرياضيات أو العلوم مثلا غالبا ما تلام الأم أولا، والمعلم ثانيا، والطفل ثالثا. فالأم اليابانية هي المسؤول الأول عن التدريب بقصد ترقية الأداء وبناء المثابرة والالتزام بالمهمة. أظهرت نتائج واحدة من الدرسات المقارنة بأن الأطفال ذوو الانجاز العالي في الرياضيات في مدينة مينابوليس بأمريكا والذين نالوا متوسط 45 درجة يقعون ضمن فئة متوسطي الطلبة في مدينة سينداي باليابان الذين نالوا متوسط 53درجة في الرياضيات. وتبلغ نسبة حصص الرياضيات في الصف الأول الابتدائي في اليابان حوالي 25% بينما هي 14 % في أمريكا. ويقضي أطفال الصف الأول في اليابان حوالي 233 دقيقة في الأسبوع في التدريب وحل المسائل الرياضية بينما يقضي الأطفال في أمريكا حوالي 79 دقيقة في الاسبوع. وكانت معدلات الأطفال في اليابان في الرياضيات والعلوم أعلى من امريكا لعدة سنوات (الخليفة، 2008) (جدول، 1).

ويعزى التقدم التكنولوجي لليابانين والإنجاز العلمي للأطفال اليابانيين دائماً إلى التأكيد الثقافي على عملية الالتزام والمثابرة وقيم العمل الشاق الدؤوب. وحديثاً فإن هذا التقييم للدافعية عند اليابانيين قد وجد الدعم من البحوث عبر الثقافية لعمليات العزو السببي داخل الأسرة. وتشير هذه الدراسات إلى أن الأمهات وأطفالهن في اليابان يركزون أكثر من الأمريكيين على عملية الجهد Effort وبصورة أقل على القدرة بأنها عوامل أساسية لتحديد الأداء الأكاديمي (Holloway, 1987). ويؤكد اليابانيون على الجهد باستمرار بصورة ملحوظة، قال Vogal في اليابان تعرّف الكفاءة جزئياً بأنها الموهبة أو العبقرية وبأنها

القدرة على العمل بجد والمثابرة (1963، ص 156). وقد كشفت العديد من البحوث عن نفس التأكيد على أهمية الجهد والمثابرة. ولقد سأل هاسيقاوا وهيامي Hayami و Hasegwa (1979) طلاب المدرسة الثانوية اليابانيين للإشارة إلى أهمية القدرة والحظ والجهد والمعلم في تفسير التحصيل الأكاديمي. ووجدا أن الجهد كان التفسير السائد للتحصيل في الرياضيات. وفي دراسة أخرى سأل هايامي Hayami (1981) مجموعة من الأمهات ومعلمي المرحلة الابتدائية والوسطى وطلاب جامعيين عن تقدير أهمية 11 عامل في تفسير الأداء السيء. ووجد أن الجهد وطريقة مذاكرة الطالب ثالثاً أعلى متوسط تقدير بالنسبة لجميع المجموعات الثلاثة وكان نقص القدرة يعتبر ذو أهمية أقل.

يلاحظ من جدول(1) بأن سنقافورة تصدرت دول العالم في إحراز أعلى معدل في الرياضيات (604) بينما تصدرت تايوان دول العالم في معدل العلوم (569) وكانت الدولة الثانية في الرياضيات هي كوريا الجنوبية بمتوسط (587) والثانية في العلوم هي سنقافورة (568) وبذلك كانت سنقافورة هي الأولي في العالم في الرياضيات والعلوم مع بعض. والدولة الثالثة في الرياضيات هي تايوان(585) وهي الأولى في العلوم، والدولة الثالثة في العلوم هي المجر (552)، والرابعة في الرياضيات هي هونج كونج (582) والرابعة في العلوم هي اليابان (550) بينما كانت الخامسة في الرياضيات هي اليابان (579) والدولة الخامسة في العلوم هي كوريا الجنوبية (549). وباستثناء المجر كدولة ثالثة في العلوم، يلاحظ تصدر دول جنوب شرق آسيا أعلى معدلات الأداء في الرياضيات والعلوم. وكانت الولايات المتحدة الأمريكية رقم 19 في الرياضيات (502) ورقم 18 في العلوم (515) بينما انجلترا رقم 20 في الرياضيات(496) ورقم9 في العلوم (538).

وفي العالم العربي شاركت كل من تونس والمغرب والأردن في المنافسات العالمية في الرياضيات والعلوم عام 1999وكان متوسط تونس في الرياضيات (448) كأعلى متوسط عربي بينما الأردن نالت (450) كأعلى متوسط عربي في العلوم، ونالت تونس في العلوم (430)، والاردن في الرياضيات (428) بينما نالت المغرب في الرياضيات (337) وفي العلوم (323). مقارنة بالدول الآسيوية الأولى الخمس في تحصيل الرياضيات كان متوسطها (587) بينما متوسط الدول العربية الثلاثة في الرياضيات (404) بفارق 183 درجة. ومقارنة بسنقافورة التي تصدرت دول العالم في الرياضيات كان الفرق بينها والدول العربية الثلاثة (200)درجة بالتمام والكمال. ومقارنة بالدول الخمسة الأولي في العلوم في العالم كان متوسطها (558) بينما كان متوسط الدول العربية الثلاثة في العلوم (401) بفارق (117) درجة. ومقارنة بتايوان التي تصدرت دول العالم في العلوم كان الفرق بينها وبين الدول العربية الثلاثة (168) درجة. نخلص من نتائج المقارنات بين الدول الآسيوية المتفوقة في الرياضيات والعلوم كان الفرق بينها ومعدلات الأداء في الدول العربية الثلاثة كبيرا.

جدول 1: معدلات العالم في الرياضيات والعلوم ألمبياد (1999)

القطر	الرياضيات	العلوم	الدولة	الرياضيات	العلوم
سنقافورة	604	(2) 568	سلوفينيا	530	(13) 533
كوريا. ج	587	(5) 549	روسيا	526	(16) 529
تايوان	585	(1) 569	استراليا	525	(7) 540
هونج كونج	582	(15) 530	فنلندة	520	(10) 535
اليابان	579	(4) 550	الشيك	520	(8) 539
بلجيكا	558	(12) 535	ماليزيا	519	(22) 492
هولندة	540	(6) 545	بلغاريا	511	(17) 518
سلوفاكيا	534	(11) 535	لاتفيا	505	(20) 503
المجر	532	(3) 552	الولايات المتحدة	502	(18) 515
كندا	531	(14) 533	انجلترا	496	(9) 538

تونس: الرياضيات 448، العلوم 430

الأردن : الرياضيات 428، العلوم 450

المغرب: الرياضيات 337، العلوم 323

يلاحظ من جدول (2) والخاص بالمنافسات العالمية في الرياضيات والعلوم والتي تم تنظيمها عام 2003 وجود تباينات كبيرة في معدلات الأداء بين الدول المختلفة. واختلفت مواقع بعض الدول في الترتيب العالمي، مثلا كانت سنقافورة الأولى في الرياضيات والثانية في العلوم عام 1999 بينما أصبحت هي الأولى في الرياضيات فضلا عن الأولى في العلوم عام 2003. وتراجعت تايوان من الأولى في العلوم عام 1999 إلى الثانية عام 2003 والثالثة في الرياضيات عام 1999 إلى الرابعة عام 2003. ويلاحظ محافظة الدول الآسيوية الفائزة في منافسات عام 1999 في الرياضيات والعلوم وكذلك نيلها أعلى معدلات الأداء في منافسات عام 2003. وحافظت كوريا على موقعها في الرياضيات كثانية عام 1999 وكذلك عام 2003 ولكن تحسن معدلها كثيرا في العلوم من الخامسة عام 1999 إلى الثالثة عام 2003. وتحسن ترتيب هونج كونكج كثيرا من الرابعة في الرياضيات عام 1999 إلى الثالثة عام 2003 وتفوقت كثيرا في الترتيب العالمي في العلوم من رقم 15 عام 1999 إلى رقم 4 عام 2003. وكانت اليابان رقم 5 في كل من الرياضيات والعلوم عام 2003 بينما كانت الخامسة في الرياضيات والرابعة في العلوم عام 1999وهي أكثر الدول محافظة على درجة ترتيبها.

إن متوسط معدل الأداء العالمي في الرياضيات عام 2003 هو 467 والمتوسط العالمي في العلوم 491. ومتوسط أداء الدول الخمسة المتفوقة في الرياضيات 587 بينما متوسطها في العلوم 563 ويلاحظ بأن جميعها دولا آسيوية. ولقد خرجت المجر كدولة أوروبية من قائمة الدول المتفوقة في العلوم عام 2003 والتي كان ترتيبها الثالثة عام 1999. وفي عام 2003 (جدول، 3) يلاحظ زيادة مشاركة الدول العربية في هذه المنافسات العالمية من 3 مشاركات عام 1999 إلى 8 مشاركات عام 2003 والدول الجديدة المشاركة من العالم العربي هي

السعودية والكويت والبحرين وفلسطين ومصر ولبنان بالاضافة للثلاثة دول الأولى هي تونس والمغرب والاردن. ويمكن تقديم عدة ملاحظات عن الأداء الفردي لهذه الدول ومن ثم الأداء الجماعي. نالت لبنان أعلى معدل للأداء في الرياضيات بين الدول العربية بمتوسط 433 ومن ثم الاردن 423 وثم تونس 410، بينما نالت الأردن أعلى معدل في العلوم بمتوسط 475 ثم البحرين بمتوسط 438 ثم فلسطين 435. ويلاحظ بأن مصر عربيا احتلت المرتبة الرابعة في الرياضيات (406)والعلوم (421) (جدول، 3).

أما من حيث المقارنات العالمية بين أداء الدول العربية مجتمعة (جدول، 3) ومتوسط الأداء العالمي فضلا عن متوسط أداء الدول المتفوقة (جدول، 2) يمكن القول بأن متوسط الدول العربية في الرياضيات (398) وفي العلوم (420) بينما كان المتوسط العالمي في الرياضيات (467) وفي العلوم (491). وكان الفرق بين متوسط الدول العربية والمتوسط العالمي في الرياضيات (69) درجة وفي العلوم (71) درجة. ومقارنة بالدول الآسيوية الخمس المتفوقة في الرياضيات يبلغ الفرق في الرياضيات مع الدول العربية (189) بالكمال والتمام وفي العلوم (143) وهو فرق يمكن وصفه بالكبير جدا. ويبلغ الفرق بين ماليزيا كدولة اسلامية والعالم العربي في الرياضيات (110) وفي العلوم(90) وهو فرق يمكن وصفه بالكبير. أما إذا قارنا متوسط أداء الدول العربية بمتوسط بطل العالم في الرياضيات وهي سنقافورة يبلغ الفرق (207)بالكمال والتتام بينما الفرق مع هذا البطل في العلوم (158) وهو فرق يمكن وصفه الهائل. ويمكن القول عموما بأن المعدل العربي نسبيا أفضل في العلوم مقارنة بالرياضيات والتي يمكن وصف معدلها بالمتدني.

جدول 2 : معدلات الانجاز في الرياضيات والعلوم في ألمبياد 2003 (13 سنة)

الـــدولة	الترتيب العالمي	درجات الرياضيات	ترتيب الرياضيات	درجات العلوم	ترتيب العلوم
سنقافورة	1	605	1	578	1
تايوان	2	585	4	571	2
كوريا الجنوبية	3	589	2	558	3
هونك كونج	4	586	3	556	4
اليابان	5	570	5	552	5
هولندة	7	536	7	536	9
استراليا	9	505	14	527	10
انجلترا	10	498	18	544	7
الولايات المتحدة	12	504	15	527	11
ماليزيا	18	508	10	510	21
ايطاليا	23	484	22	491	22
متوسط الخمسة دول الأولى		587		563	
المتوسط العالمي		467		491	

جدول 3 : المتوسط العربي للرياضيات والعلوم في الألمبياد الثالث 2003 (الصف الثامن)

الدولة	الترتيب العربي	درجات الرياضيات	درجات العلوم	الترتيب العربي
لبنان	1	433	393	7
الاردن	2	424	475	1
تونس	3	410	404	5
مصر	4	406	421	4
االبحرين	5	401	438	2
فلسطين	6	390	435	3
المغرب	7	387	396	8
السعودية	8	332	398	6
ماليزيا	-	508	510	-
المتوسط العالمي	23	467	491	
المتوسط العربي	8	398	420	

2. العلاقة الارتباطية بين معدلات الإنجاز في الرياضيات والعلوم والذكاء

أظهرت نتائج الدراسات وجود علاقة قوية بين معدل التحصيل في الرياضيات والعلوم ومعدلات الذكاء (Baker & Jones, 1993; Beaton et al, 1996a; 1996b; Lynn & Vanhanen, 2002; Martin, 1997). على سبيل المثال، كشفت نتائج دراسة المنافسات العالمية الثانية عام 1999 للتحصيل في الرياضيات للأطفال في عمر 13 سنة علاقة ارتباطية قدرها 0.676بين معدلات الذكاء ودرجات الرياضيات (Baker & Jones, 1993)، وبالنسبة للأطفال في عمر 10 سنوات كانت العلاقة الارتباطية بين درجات الرياضيات ومعدلات الذكاء 0.768، وبالنسبة للأطفال في عمر 14 سنة كانت العلاقة الارتباطية بين درجات الرياضيات ومعدلات الذكاء 0.766 (Beaton et al, 1996a)، وبالنسبة للأطفال في عمر 10 سنوات كانت العلاقة الارتباطية بين درجات العلوم ومعدلات الذكاء 0.477 (Martin, 1997)، وأخيرا بالنسبة للأطفال في عمر 14 سنة في المنافسات العالمية الثالثة في العلوم كانت العلاقة الارتباطية بين درجات العلوم ومعدلات الذكاء 0.698 (Beaton et al, 1996b). وكانت جميع العلاقات الارتباطية بين الذكاء والتحصيل في الرياضيات والعلوم التي تراوحت بين 0,477 و0,768 هي علاقات دالة احصائيا. عموما يبلغ معدل العلاقة الارتباطية بين معدل الانجاز أو التحصيل في الرياضيات ومعدل الذكاء القومي (0,881) لعدد 38 دولة بينما معدل العلاقة الارتباطية بين معدل االانجاز أو التحصيل في العلوم ومعدل الذكاء القومي (0,868) لعدد 38 دولة (Lynn & Vanhanen, 2002) (جدول، 4).

جدول 4: الانجاز القومي في الرياضيات والعلوم

الـدولـة	الرياضيات (13 سنة)	الرياضيات (10 سنوات)	الرياضيات (14 سنة)	العلـوم (13 سنة)	العلـوم (10 سنوات)	العلـوم (14 سنة)
أستراليا	–	546	530	12,9	626	545
بلجيكا	20	546	511	–	–	–
بريطانيا	15.2	513	506	11,7	551	552
كندا	18,4	532	527	13,7	549	531
الشيك	–	567	564	–	557	574
الدنمارك	–	502	478	–	–	–
فنلندة	14.1	–	–	15,3	–	–
فرنسا	15,2	538	498	–	–	–
ألمانيا	–	509	531	–	–	–
هونج كونج	16,3	587	588	11,2	533	522
ايران	–	429	428	–	415	470
ايرلندة	–	550	527	–	539	538
اسرائيل	18,3	531	522	–	505	524
ايطاليا	13,4	–	–	–	–	–
اليابان	23,8	597	605	15,4	574	571
كوريا	–	611	607	15,4	597	565
هولندة	21,1	577	541	–	557	560
نيوزلندة	14,1	499	508	–	531	525
نيجيريا	9,3	–	–	--	–	–
الفلبين	9,5	–	–	–	–	–
بولندة	11,9	–	–	–	–	–
البرتقال	–	475	454	–	480	480
رومانيا	–	482	486	–	–	–
روسيا	–	538	538	–	–	–
سنقافورة	–	625	643	11,2	547	607
سلوفاكيا	–	547	544	–	–	–
سلوفينيا	–	552	541	–	546	560
جنوب أفريقيا	–	354	326	–	–	–
أسبانيا	–	487	517	–	–	–
سويسرة	–	545	522	–	–	–
تيلندة	13,1	490	522	–	473	525
الولايات المتحدة	15,1	545	500	13,2	565	534
العلاقة الارتباطية مع الذكاء	**0.676**	**0,768**	**0,766**	**0,477**	**0,839**	**0,698**
مستوي الدلالة	**0.01**	**0,001**	**0,001**	**0,1**	**0,001**	**0,001**

الجدول من لين وفانهانين (Lynn & Vanhannen, 2002) ص. (68-69)

3. معدلات الأداء العالمي في اختبارات الذكاء

أجريت العديد من الدراسات عن تحليل معدلات الأداء في اختبارات الذكاء حول العالم. وأظهرت نتائج الدراسات وجود تباينات كبيرة في هذه المعدلات بين القارات والمناطق الجغرافية أو الأحزمة الثقافية أو بين الدول (Buj, 1981; Grieve & Viljoen, 2000; Lovaglia et al 1998; Lynn & Vanhanen, 2002, 2006; Mohan, 1972; Mohan & Kumar, 1979; Rushton & Skuy, 2000; Rushton et al, 2003; Templer, 2010) وفي بعض هذه الدراسات تمت مناقشة العلاقة التبادلية بين معدلات الذكاء والتنمية الاقتصادية مثلا تؤثر معدلات الذكاء في التنمية الاقتصادية كما أن التنمية الاقتصادية تؤثر بدورها كذلك في معدلات الذكاء (Lynn & Vanhanen, 2002, 2006). وكشفت نتائج بعض الدراسات (جدول، 4) بصورة عامة معدلات ذكاء قومي عالية في بعض دول جنوب شرق آسيا بمتوسط 105 درجة وبعض الدول المتقدمة اقتصاديا بمتوسط معدل 100 بفارق 5 درجات. ويظهر جدول (4) احراز هونج كونج أعلى معدل أداء في اختبارات الذكاء (107) أعلى من متوسط الأداء العالمي وهو 90 بعدد 17 درجة وأعلى من معدل الأداء الأوروبي والأمريكي وهو 100 ب 7 درجات. ونالت كوريا المرتبة الثانية (106)، واليابان الثالثة (105)، وتايوان الرابعة (104)، وسنقافورة الخامسة (103) وهي جميع الدول التي تحرز أعلى معدلات الأداء في الرياضيات والعلوم على مستوى دول العالم. وبلغة ثانية، إن بعض الدول الآسوية تتصدر دول العالم أولا في الرياضيات وثانيا في العلوم، وثالثا في الذكاء. ربما يتم التساؤل هل تؤثر معدلات الأداء العالي في الرياضيات والعلوم على معدل الأداء العالي في الذكاء؟ أم يؤثر معدل الأداء العالي في الذكاء في معدل الأداء العالي في الرياضيات والعلوم؟ وربما تكون الاجابة هي التأثير المتبادل بين المتغيرين.

وفي أوروبا بصورة خاصة قام بوج بدراسة مقارنة لمعدلات الذكاء في بعض الدول. أخذ الباحث عينات ممثلة من بعض المدن الأوروبية من الذكور (49%) والاناث (51%) وتم تطبيق مقياس كاتل المتحرر من الثقافة. ولقد كشفت نتائج الدراسة نيل مدينة امستردام وهامبورج أعلى الدرجات (109) تليها وارسو (108)، واستكهولم (106) بينما كان معدل دبلين (99)، وهلسينكي (98) وصوفيا وباريس (96)، وعموما بلغ متوسط ذكاء هذه المدن 102 وانحراف معياري 19، وكانت الفروق بين أعلى وأدني دولة 14 درجة وتزداد معدلات الذكاء في امستردام وهامبورج 7 درجات فوق المتوسط الأوربي بينما تنخفض معدلات صوفيا وباريس 6 درجات من المتوسط (Buj, 1981). ويجب القول بأن هذه المعدلات للمدن وليس للدولة ككل فمن المعرف بأن هناك زيادة في معدلات الذكاء بين العواصم وبقية المناطق في الدولة الواحدة. مثلا في المملكة المتحدة هناك فوارق بين معدلات الذكاء بين لندن (101)، وويلز (98)، واسكتنلندة (97) وايرلندة (97). أظهرت نتائج الدراسات التربوية بأن هناك علاقة قوية بين الزيادة في معدلات الذكاء القومي ومعدلات الدرجات المنالة في المنافسات العالمية في الرياضيات والعلوم (Lynn and Vanhanen 2002). فأكثر 5 دول بها معدلات ذكاء قومي عال (هونج كونج، كوريا الجنوبية، اليابان، تايوان، سنقافورة) هي ذاتها الدول التي يحرز طلبتها أعلى الدرجات في الرياضيات والعلوم على مستوي العالم (سنقافورة، كوريا الجنوبية، تايوان، هونج كونج، اليابان). ربما يكون من الأفيد لأهمية المنافسات والمقارنات والمقاربات العالمية عرض نتائج أكثر 22 دولة متفوقة في الأداء في معدلات الذكاء.

جدول4 : معدلات الذكاء المقاسة والمقدرة في 22 دولة التي أحرزت أعلى معامل للذكاء القومي.

القطر	معامل الذكاء	القطر	معامل الذكاء
هونج كونج	107	بلجيكا	100
كوريا الجنوبية	106	الصين	100
اليابان	105	نيوزيلندة	100
تايوان	104	المملكة المتحدة	100
سنقافورة	103	المجر	99
النمسا	102	بولندة	99
ألمانيا	102	استراليا	98
ايطاليا	102	الدينمارك	98
هولندة	102	فرنسا	98
السويد	101	النرويج	98
سويسرا	101	الولايات المتحدة	98
المتوسط العالمي			**90**
المتوسط الأوربي-أمريكي			**100**
متوسط الدول المتفوقة الخمس			**105**

الجدول من لين وفانهانين (Lynn & Vanhannen, 2002) ص. (80-73)

4. معدلات الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي

لقد أجريت العديد من الدراسات حول تقنين اختبار المصفوفات المتتابعة المعياري (أممم) فضلا عن بقية المصفوفات في الدول العربية، وتم اجراء سلسلة من البحوث تتعلق بمعدلات الذكاء القومي في بعض الأقطار العربية من خلال مقارنتها بمعايير جرينتش البريطانية لعام 1979 ومن بين هذه الدول الكويت (Abdel-Khalek, 2005, Abdel-Khalek & Raven, 2006)، وسوريا (رحمة، 2004، Khaleefa & Lynn, 2008a)، واليمن (العاني وآخرون، 1995، Khaleefa & Lynn, 2008c)، والامارات (عيد، 1999 Khaleefa & Lynn, 2008b)، وسلطنة عمان (يحيي وابراهيم وجلال، 1998، Yehia; Ibrahim & Abdel-Khalek & Lynn, 2008; Galal, 2003)، وقطر (آل ثاني، 2001; Khaleefa & Lynn, 2008d)، والأردن (عليان والصمادي، 1988 Lynn & Abdel-Khalek, 2009)، والسعودية (أبو حطب، 1977، أبوحطب وآخرون، 1979، Abdel-Khalek & Lynn, 2009)، وليبيا (الطاشاني وآخرون، 2005، Lynn, Abdalla & Al-Shahomee, 2008)، والسودان (Khaleefa, Khatib & Mutwakkil, 2008). وعموما تعادل معدلات الذكاء القومي في هذه الدول العربية بعد حساب تأثير لين-فلين بين (84-83) درجة. وسوف نستعرض بعض النماذج في تطبيق أممم في بعض الدول العربية التي توفرت لنا بيانات منها على سبيل المثال لا الحصر (Templer, 2010)(جدول، 5). ولم يشمل جدول (5) معدل الذكاء في السودان ولكن كشفت نتائج عدة دراسات بأن المعدل حوالي 83 درجة حسب معايير جرينتش البريطانية.

تم إجراء سلسلة من البحوث تتعلق بمعدلات الذكاء القومي في بعض الأقطار العربية من خلال مقارنتها بمعايير جرينتش البريطانية لعام 1979 (متوسط 100 وانحراف معياري 15). مثلا أظهرت تقديرات لين وفانهانين (Lynn & Vanhanen, 2002) بأن متوسط معدل الذكاء القومي في سوريا 87 وكشفت دراسة الخليفة ولين (Khaleefa & Lynn, 2008a) بأن المعدل المقاس في مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري (رحمة، 2004) هي حوالي 80 درجة. وأظهرت دراسة الخليفة ولين (Khaleefa & Lynn, 2008c)في اليمن بأن معدل الذكاء القومي من خلال مقياس المصفوفات المتتابعه الملون (العاني وآخرون، 1995) يبلغ 83. وكشفت دراسة الخليفة ولين (Khaleefa & Lynn, 2008b)في الامارات العربية المتحدة من خلال التقنين الاماراتي لمقياس المصفوفات المتتابعة الملون (عيد، 1999) بأن المعدل حوالي 83 درجة. وبلغ معدل الذكاء في سلطنة عمان من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة الملون 87 درجة (Khaleefa, Al-Kurdi & Lynn, in press)، وفي دراسة ثانية كان المعدل في سلطنة عمان من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري 85 (Yehia, Ibrahim & Galal, 2003) درجة (Abdel-Khalek & Lynn, 2008) وبذلك يكون متوسط الدراستين 86.

وأظهرت دراسة الخليفة ولين (Khaleefa & Lynn, 2008d) بأن المعدل في قطر من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري (آل ثاني، 2001) 88 درجة، وأظهرت دراسة لين وعبد الخالق (Lynn & Abdel-Khalek, 2009) في الآردن بأن المعدل وفقا لاختبار المصفوفات المتتابعة المتقدم (عليان والصمادي، 1988) 86 درجة. وكشفت دراسة عبد الخالق ولين (Abdel-Khalek & Lynn, 2009) بأن معدل الذكاء القومي في السعودية 78.25 وفقا لمقياس المصفوفات المتتابعة المعياري (أبو حطب، 1977). وكشفت دراسة لين وعبد الله والشاحومي في ليبيا بأن المعدل من خلال اختبار المصفوفات المتتابعة الملون 86.5 بينما معدل الذكاء القومي في تونس من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري 84 (Lynn, Abdalla & Al-Shahomee, 2008). وعموما تعادل معدلات الذكاء القومي في سوريا، واليمن، والامارات العربية المتحدة، وقطر والسعودية والسودان وتونس وليبيا والتي تتراوح بين (88-80) بمتوسط 84-83 بالتقريب معدلات الذكاء القومي في بريطانيا وأمريكا في الثلاثينيات من القرن العشرين. وهناك حاجة للدول العربية في معرفة معدلات الذكاء القومي ونسب ذوي القدرات العالية فيها من خلال مشاريع بحثية طموحة بأخذ عينات كبيرة، وتطبيق مقاييس قوية للذكاء، واجراء تحليلات احصائية دقيقة في ضوء معيار جرينتش.

لقد تصدرت العراق الدول العربية في معدلات الذكاء حوالي 87 بفارق 3 درجات فقط من المتوسط العالمي. السؤال المهم كيف يمكن زيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء لازالة الفروق الكبيرة وقدرها حوالي 7 درجات مع المتوسط العالمي 90 درجة، وتقريب المسافة مع المتوسط الأوروبي-أمريكي (100) وهو 17 درجة، وتعلم بعض الدروس والعبر من معدلات الذكاء العالية في بعض الدول الآسيوية والتي أحرزت أعلى معدلات أداء في اختبارات الذكاء بمتوسط 105 وبفارق 22 من متوسط معدل الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي (83). هناك طرق كثيرة بيولوجية وبيئية تعمل على زيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء من بينها تحسين الجينات، والغذاء، والصحة، وسبل رعاية الأطفال من جهة وتحسين المثيرات المعرفية والتعليم والممارسة بقصد ترقية الأداء من جهة أخرى (Dickens & Flynn, 2001; Flynn, 2007; Jensen, 1998; Lynn, 1990,

(1993, 1998; 2009; Lynn & Vanhanen, 2002, 2006; Mingroni, 2004, 2007). ونفترض في هذه الدراسة بأن أحد الحلول لزيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي هو تطبيق برنامج العبق (اليوسيماس) ومن المحتمل أن يزيد من معدل الأداء عدة درجات تزيل الفروق على الأقل مع المتوسط العالمي.

جدول 5 : معدلات الأداء في اختبارات الذكاء في الدول العربية

القطر	معدل الذكاء عام 2006	معدل الذكاء المعدل
العراق	87	87
الكويت	86	86
البحرين	85	85
اليمن	85	85
الأردن	84	84
المغرب	84	84
السعودية	84	84
الامارات	84	84
ليبيا	83	87
تونس	83	83
عمان	83	85
الجزائر	83	83
سوريا	83	83
لبنان	82	82
مصر	81	81
قطر	78	86
المتوسط	**83.4**	**84.3**
المتوسط العالمي		**90**
المتوسط الأوروبي-أمريكي		**100**
متوسط الدول الآسيوية المتفوقة		**105**

الجدول من (Templer, 2010)

5. مقاييس المصفوفات ومعدلات أداء ذوي القدرات العالية

اختبار المصفوفات المتتابعة المعياري (The Standard Progressive Matrices (SPM أممم) قام بتصميمه العالم النفسي الإنجليزي رافن (Raven, 1960, 1998, 2000) في إنجلترا ليقيس به العامل العام للذكاء (ع) (g) General Intelligence وفقاً لنظرية سبيرمان (Spearman) في الذكاء. وقد عدّ معظم علماء النفس أن هذا الاختبار من الاختبارات الجيدة لقياس الذكاء العام والاستدلال والقدرة علي حل المشكلات (Lynn, 1990; Lynn & Vanhanen, 2002). وقد نشر جون رافين المصفوفات المتتابعة منذ عام 1938. وذكر رافن (1960) أن الاختبار لا يصلح للمسنين بعد الخامسة والستين ولا للصغار من الأطفال لأنهم لا يجيبون علي أكثر من مجموعتين من المصفوفات. وقد جرى تنقيح على الاختبار عام 1947، وتنقيح آخر عام 1956(رافن، 1960). وقد قدم رافن المعايير المئوية

(المئينيات) Percentile Norms عام 1960 لمراحل نصف سنوية للاعمار ما بين 8–16 سنة، وبمراحل خمس سنوات للاعمار ما بين (20 إلي 65) سنة. ويستخدم الاختبار بصورة موسعة لمعرفة ذوي القدرات العالية.

هناك أهمية لمعرفة نسبة ذوي القدرات العالية من خلال معدلات الذكاء القومي للدول المختلفة. وعادة يتم التعبير عن درجات مقاييس الذكاء من خلال متوسط حسابي وانحراف معياري قدره 100 و15، على التوالي. وبالتقريب يكون حوالي 96% من الأفراد لهم معامل ذكاء يتراوح بين 70 و130، وحوالي 2% لهم معامل ذكاء أقل من 70 من المعاقين عقليا وحوالي 2% لهم معامل ذكاء أكثر من 130 وكان أعلى معامل ذكاء مسجل في العالم حوالي 200 (Lynn & Vanhanen, 2002). إن عدد ذوي القدرات العالية في أي دولة من الدول يعتمد بصورة مركزية على معدل الذكاء القومي. على سبيل المثال، إذا كان متوسط الذكاء القومي في دولة من الدول 100 فإن معدل ذكاء قدره 158 يكون بالتقريب لطفل واحد وسط كل 30000 طفل. وفي الدولة التي يكون فيها متوسط معدل الذكاء 115يكون بالتقريب هناك طفل واحد له معامل ذكاء أكثر من 158 وسط كل 1000 طفل. وبذلك يكون للفروق في متوسطات الذكاء القومي وسط السكان لها تأثير كبير على عدد ذوي القدرات العالية. ويجب القول بأن معاملات الذكاء القومي لوحدها غير كافية لتقديم انجاز يتميز بدرجة عالية من النوعية والجودة يتطلب درجات عالية من المثابرة وقيم العمل الشاق الدؤوب والابداع (creativity) والتجديد (innovation). ولمقاربة معدلات الذكاء القومي بمعدلات ذكاء ذوي القدرات العالية (الميئين 95) يمكننا أن نقدم نموذج درجات مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري بالنسبة للفئة العمرية 9 سنوات لمعرفة المفارقات الكبيرة في أداء الأطفال في الدول المختلفة (جدول، 6).

ويلاحظ من جدول (6) بأن هناك تباينات كبيرة بين الدول المختلفة في تحديد ذوي القدرات العالية، مثلا بالنسبة للفئة العمرية 9 سنوات لا يصنف الطفل كذوي قدرات عالية في تايوان إلا إذا احرز 50 درجة خام من بين 60 درجة. ومن المعروف بأن تايوان من الدول الآسيوية التي تحرز أعلى معدلات الأداء ليس في الرياضيات والعلوم فحسب وإنما في معدلات الذكاء كذلك. وهناك 3 دول عربية يبلغ معدل الدرجات الخام فيها 40 لتصنيف الأفراد فيها كذوي قدرات عالية. ويبلغ متوسط الدرجات الخام في الولايات المتحدة 42 درجة بفارق 5 درجات من المتوسط العربي وهو فرق يمكن وصفه بالكبير بينما يبلغ الفرق بين الدول العربية وتايوان 13 درجة وهو فرق يمكن وصفه بالهائل. ويلاحظ بأن المتوسط العام للدرجات الخام بالنسبة للأفراد حول العالم حوالي 46 درجة بينما متوسط الدول العربية حوالي 37 بفارق 9 درجات من المتوسط العالمي. وعموما يمكن القول بأن معدلات الأداء بالنسبة لذوي القدرات العالية في العالم العربي هي معدلات منخفضة. وهناك حاجة لتطبيق العديد من برامج التدخل ومن بين التي نقترحها في الدراسة الحالية برنامج العبق (اليوسيماس) الياباني الصيني الماليزي.

جدول6: معدلات ذوي القدرات العالية على مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري حول العالم

القطـــر	الفئة العمرية	السنـــة	المعدل للموهوبين 95
تايوان	9	Raven & Court, 1998	50
هولندة	9	Raven & Court, 1998	48
الصين	9	Raven & Court, 1998	47
نيوزلندة	9	Raven & Court, 1998	46
استراليا	9	Raven & Court, 1998	46
بريطانيا	9	Raven & Court, 1998	44
ايرلندة	9	1973	43
الولايات المتحدة	9	Raven & Court, 1998	42
السودان	9	الخطيب والمتوكل (2002)	**40**
مصر	9	صالح (1988)	**40**
قطر	9	آل ثاني (2001)	**40**
عمان	9	يحيى وآخرون (1998)	**38**
السعودية	9	أبو حطب (1977)	**35**
الأردن	9	الصفدي (1972)	**34**
ليبيا	9	الطشاني وآخرون (2005)	**32**
المتوسط العام للدول غير العربية	**9**		**46**
متوسط الدول العربية	**9**		**37**

أنظر عبد الله (2007)

6. تأثير لين - فلين ومعدلات الزيادة في الذكاء القومي

أجريت العديد من الدراسات المتعلقة بزيادة معدلات الذكاء القومي في الدول المتقدمة اقتصاديا (Flynn, 1987, 1998, 2007, Lynn & Hampson, 1986, Lynn & Vanhanen, 2002). وفي هذه الدول تم قياس الزيادة الكبيرة (الارتفاع الضخم) في معدل نمو الذكاء القومي في 14 أمة منذ عام 1987. وتراوحت الزيادة وسط كل جيل من الأجيال (30 سنة) بين 25-5 درجة. ومنذ ذلك التاريخ، بدأ التساؤل عن أسباب زيادة معدل الذكاء القومي في الدول المتقدمة اقتصاديا والتي سميت باسم مكتشفها تأثير فلين (Flynn effect). ولكن قام لين (Lynn, 1982) بأول دراسة في المجال نشرت في مجلة الطبيعة البريطانية (Nature)، ولهذا السبب يسمي البعض هذا التأثير بتأثير لين-فلين (Lynn-Flynn effect). وفي دراسة فلين (Flynn, 1987) تم تحويل معدل الذكاء القومي في الأمم المختلفة لمتوسط حسابي وانحراف معياري قدره 100 و15، على التوالي. وذلك نسبة لاستخدام مقاييس سيكولوجية متباينة في قياس معدل الذكاء القومي شملت مقاييس المصفوفات المتتابعة (المعيارية والملونة والمتقدمة)، ومقاييس وكسلر لذكاء الأطفال والراشدين (الطبعات

المنقحة والثالثة والرابعة).

وتم تحديد أربعة شروط مهمة للمقارنة بين الأمم المختلفة في معدل الذكاء القومي (أ) تقليل حجم التحيز في العينات المختارة وذلك بتحليل نتائج العينات ذات السعة (ب) يجب عدم تغيير بنود المقياس من جيل لآخر كما يجب تقدير درجات معدل الذكاء القومي من خلال الدرجات الخام وليس المعيارية (ج) يجب الاعتماد على المقاييس السيكولوجية المتحررة ثقافيا مثل مقاييس المصفوفات المتتابعة. ولكن استخدمت بعض المقاييس الأخرى مثل مقاييس وكسلر، واختبار رسم الرجل (د) اختيار عينات ناضجة وصلت لقمة الأداء في الدرجات الخام في معدل الذكاء. وقد تحققت هذه الشروط الأربعة الصارمة بصورة خاصة في نتائج البيانات المجموعة من بعض الدول مثلا هولندا، وبلجيكا، والنرويج. وكانت من بين النتائج البارزة في دراسة فلين (Flynn, 1987) زيادة معدل الذكاء القومي في الدول المتقدمة اقتصاديا حوالي انحراف معياري في الجيل الواحد. مثلا، بالنسبة لمقاييس وكسلر كانت الزيادة الجيلية في الولايات المتحدة (9) درجة، وفرنسا (9) درجة، والنمسا (14)، واليابان (20)، وألمانيا الغربية (20). وفي مقياس المصفوفات المتتابعة كان معدل الزيادة الجيلية في بلجيكا (7)، وبريطانيا (7)، وأستراليا (9)، وألمانيا الغربية (10)، وهولندة (20)، واليابان (20)، وفرنسا (25) درجة في كل 30 سنة.

أظهرت نتائج البحوث السيكولوجية بأن هناك دراسات حديثة جدا من أربع دول فقط من دول العالم النامي (العالم الثالث) بها بيانات تتعلق بزيادة معدلات الذكاء القومي وهي كينيا والدومينيكان والبرازيل والسودان. مثلا، في كينيا كانت معدلات الزيادة من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة الملون في الفترة 1984-1998 هي 14 درجة ذكاء وتعكس معدل زيادة كل 10 سنوات (10 درجات في العقد) (Daley et al, 2003)، وفي الدومينيكان كان معدل الزيادة من خلال مقياس المصفوفات المتتابعة المعياري في الفترة من 1948-1983 هو 18 درجة وتعكس معدل زيادة كل 10 سنوات (5.1 درجات في العقد) (Meisenberg et al, 2005)، وفي البرازيل كان معدل الزيادة 17 درجة في الفترة 1930-2002 وهي تعكس معدل زيادة كل 10 سنوات (2.4 درجة في العقد) (Colom et al, 1998; 2007). ويلاحظ بأنه حتى عام 2010 لم تنشر أي دراسة في العالم العربي، في حدود علم الباحث، عن تأثير لين-فلين أو زيادة معدل الذكاء القومي باستثناء السودان.

وفي السودان هناك 3 دراسات عن تأثير فلين إذ كان معدل الزيادة في الذكاء القومي للأطفال صغار السن 4-10سنوات في الفترة 1964 (بدري، 1966) وعام 2006 (عبد الواحد، 2006) 2.9 درجة في العقد (10 سنوات) و8.7 كل جيل (30 سنة) (Khaleefa, Abdelwahid Abdulradi., & Lynn, 2008)، وكان معدل الزيادة في الذكاء القومي بالنسبة للأطفال كبار السن 6-16 سنة وفقا لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال -المعدل (محمد، 1988)، ومقياس وكسلر لذكاء الأطفال-الطبعة الثالثة (الحسين، 2008) حوالي 5.7 درجة (الخليفة وعبد الرضي، 2010). وكان معدل الزيادة في القدرات العقلية في الفترة بين 1987 (الخليفة وطه وعشرية، 1995) والفترة 2007 (سلمان، 2008) بالنسبة للراشدين 16-75 سنة وفقا لمقياس وكسلر لذكاء الراشدين-المعدل 2.04 في العقد و6,12 كل جيل (Khaleefa, Sulman & Lynn, 2009). ويمكن القول بأن معدل الزيادة في الذكاء القومي في السودان كل جيل من خلال متوسط الدراسات الثلاث هو (3.5) درجة وكل جيل (10.6) درجة. وهناك حاجة للدول العربية في معرفة الزيادة في معدلات الذكاء القومي من خلال عدة مقاييس

سيكولوجية قام بتكييفها وتطبيقها مجموعة من كبار علماء النفس العرب مثل مقاييس المصفوفات المتتابعة، ومقاييس وكسلر للذكاء، ومقياس رسم الرجل.

7. خلاصة وتطبيقات لبحوث مستقبلية

نخلص من نتائج المقارنات العالمية في الرياضيات والعلوم والذكاء وذوي القدرات العالية وتأثير لين-فلين للآتي:

أولا: انخفاض أداء بعض الدول العربية في الرياضيات بمتوسط (398) وفي العلوم بمتوسط (420) مقارنة مع المتوسط العالمي في الرياضيات (467)والمتوسط العالمي في العلوم (491). وكان الفرق بين متوسط الدول العربية والمتوسط العالمي في الرياضيات (69) درجة، وفي العلوم (71) درجة. ومقارنة بالدول الآسيوية الخمس المتفوقة في الرياضيات يبلغ الفرق في الرياضيات مع الدول العربية (189) وفي العلوم (143) وهو فرق يمكن وصفه بالكبير جدا. ويبلغ معدل الفرق بين ماليزيا كدولة اسلامية والعالم العربي في الرياضيات (110) وفي العلوم (90) وهو فرق يمكن وصفه بالكبير. أما إذا قارنا متوسط أداء الدول العربية بمتوسط بطل العالم في الرياضيات وهي سنقافورة يبلغ الفرق (207) بينما الفرق مع هذا البطل في العلوم (158) وهو فرق يمكن وصفه بالهائل.

ثانيا: بوسعنا التساؤل ماهي الاستجابة المناسبة لمعالجة تدني الأداء في الرياضيات والعلوم في العالم العربي؟ يحتاج العالم العربي أولا وفي المقام الأول ازالة الفرق بينه وبين متوسط المعدل العالمي في الرياضيات البالغ 69 درجة وفي العلوم البالغ 71 درجة. وثانيا: يحتاج العالم العربي لتعلم دروس من تفوق الدول الاسيوية في الرياضات والتي تتفوق على العالم العربي ب 189 وفي العلوم 143، كما يحتاج العالم العربي لتعلم عبر بصورة خاصة من تجربة سنقافورة بطل العالم في الرياضيات والعلوم فضلا عن ماليزيا كدولة مسلمة. وهناك عدة حلول لازالة الفرق مع متوسط المعدل العالمي فضلا عن تقليل الفروق مع الدول الآسيوية عامة وسنقافورة وماليزيا بصورة خاصة من بينها التدريب على برنامج العبق (اليوسيماس) والذي يطبق في الدول الآسيوية المتفوقة ليس في الرياضيات فحسب بل في العلوم.

ثالثا: في تقديري، إن إزالة الفروق بين معدلات الأداء بين الدول العربية والدول الآسيوية يحتاج لعملية تخطيط استراتيجي طويل المدى يركز بصورة خاصة على أهمية الجهد والالتزام والمثابرة وقيم العمل الشاق الدؤوب. ويمكن تعلم دروس من التجربة اليابانية بصورة خاصة التي تركز على عملية الجهد Effort وبصورة أقل على القدرة بأنها عوامل أساسية لتحديد الأداء الأكاديمي. ويمكن أن تعرف الكفاءة جزئياً بأنها العمل بجد والمثابرة في الرياضيات والعلوم.

رابعا: يبلغ معدل العلاقة الارتباطية بين معدل الانجاز أو التحصيل في الرياضيات ومعدل الذكاء القومي (0,881) لعدد 38 دولة بينما معدل العلاقة الارتباطية بين معدل االانجاز أو التحصيل في العلوم ومعدل الذكاء القومي (0,868) لعدد 38 دولة. وكشفت الدراسة بأن أكثر 5 دول بها معدلات ذكاء قومي عال (هونج كونج، كوريا الجنوبية، اليابان، تايوان، سنقافورة) هي ذاتها الدول التي يحرز طلبتها أعلى الدرجات في الرياضيات والعلوم على مستوي العالم (سنقافورة، كوريا الجنوبية، تايوان، هونج كونج، اليابان). ويحتاج العالم العربي لتعلم دروس من هذه الدول الآسيوية.

خامسا: أظهرت نتائج الدراسة بأن معدلات الذكاء القومي في سوريا، واليمن، والامارات العربية المتحدة، وقطر والسعودية والسودان وتونس وليبيا والتي تتراوح بين(80-88) بمتوسط 83-84 بالتقريب تعادل معدلات الذكاء القومي في بريطانيا وأمريكا في الثلاثينيات من القرن العشرين. وهناك حاجة للدول العربية في معرفة معدلات الذكاء القومي ونسب ذوي القدرات العالية فيها من خلال مشاريع بحثية طموحة بأخذ عينات كبيرة، وتطبيق مقاييس قوية للذكاء، واجراء تحليلات احصائية دقيقة في ضوء معيار جرينتش فضلا عن وضع خطط لكيفية زيادة معدلات الذكاء القومي فيها.

سادسا: يلاحظ بأن المتوسط العام للدرجات الخام بالنسبة للأفراد ذوي القدرات العالية حول العالم في اختبار المصفوفات المتتابعة المعياري حوالي 46 درجة بينما متوسط الأفراد ذوي القدرات العالية في الدول العربية حوالي 37 بفارق 9 درجات من المتوسط العالمي ويبلغ الفرق مع تايوان 13 وهو فرق هائل. وعموما يمكن القول بأن معدلات الأداء بالنسبة لذوي القدرات العالية في العالم العربي هي معدلات منخفضة. وهناك حاجة لتطبيق العديد من برامج التدخل ومن بين التي نقترحها في الدراسة الحالية برنامج العبق (اليوسيماس) الياباني والصيني والماليزي.

سابعا: هناك ارتفاع كبير في زيادة معدلات الذكاء القومي أو ما يسمى بتأثير لين فلين (Lynn-Flynn effect) في الدول المتقدمة اقتصاديا. السؤال المهم كيف يمكن زيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي لازالة الفروق الكبيرة وقدرها حوالي 7 درجات مع المتوسط العالمي 90 درجة، وتقريب المسافة مع المتوسط الأوروبي-أمريكي (100) وهو 17 درجة، وتعلم بعض الدروس والعبر من معدلات الذكاء العالية في بعض الدول الآسيوية والتي أحرزت أعلى معدلات أداء في اختبارات الذكاء بمتوسط 105 وبفارق 22 من متوسط معدل الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي.

ثامنا: هناك طرق كثيرة بيولوجية وبيئية تعمل على زيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء من بينها تحسين الجينات عن طريق زواج التباعد أو انجاب الأطفال الخلاسيين من الزواج الهجين، والغذاء وخاصة غذاء الحوامل والأجنة والأطفال، والصحة وخاصة صحة الأطفال والحوامل، وسبل رعاية الأطفال خاصة في الطفولة المبكرة من جهة وتحسين المثيرات المعرفية البصرية والسمعية والحركية، وتحسين نظم ومناهج التعليم خاصة الرياضيات والعلوم، وتعزيز قيم المثابرة وقيم العمل الشاق الدؤوب، والممارسة بقصد ترقية الأداء من جهة أخرى. ونفترض في هذه الدراسة بأن أحد الحلول لزيادة معدلات الأداء في اختبارات الذكاء في العالم العربي فضلا عن معدلات الانجاز في الرياضيات والعلوم ورفع سقف أداء ذوي القدرات العالية وزيادة تأثير لين- فلين في اختبارات الذكاء هو تطبيق برنامج العبق (اليوسيماس) ومن المحتمل أن يزيد هذا البرنامج من معدل الأداء عدة درجات ربما تزيل الفروق في المستوى قصير المدى على الأقل مع المتوسطات العالمية بينما في المستوى طويل المدى يقرب المسافة مع معدلات الانجاز العالي للدول المتفوقة خاصة من النمور الآسيوية.

المراجع باللغة العربية

1. أبوحطب، فؤاد (1977). بحوث في تقنين الاختبارات النفسية. القاهرة: مكتبة الآنجلو المصرية.
2. أبو حطب، فؤاد؛ زهران، حامد؛ خضر، علي؛ وآخرون (1979). تقنين اختبار المصفوفات المتتابعة علي البيئة السعودية، المنطقة الغربية. مكة المكرمة، جامعة أم القرى.
3. آل ثاني، العنود(2001) . تقنين اختبار المصفوفات المتتابعة العادي لرافن على طلاب وطالبات المرحلة الابتدائية بمدينة الدوحة بدولة قطر. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية.
4. الحسين، أنس (2008). تكييف وتقنين مقياس وكسلر لذكاء الأطفال –الطبعة الثالثة بالولايات الشمالية (موذا3–)، أطروحة دكتوارة غير منشورة، جامعة النيلين.
5. الخطيب، محمد.، المتوكل، مهيد.(2002) . دليل استخدام مقياس المصفوفات المتتابعة العادي على البيئة السودانية. الخرطوم: شركة مطابع السودان للعملة المحدودة.
6. الخليفة، عمر (2008أ). الأطفال الخوارق والموهوبون في العالم العربي. عمان: ديونو للنشر والتوزيع.
7. الخليفة، عمر (2008ب). تربية الموهوبين خيار المنافسة الأمثل: التجربة السودانية. ورقة مقدمة لاجتماعات وزراء التربية العرب والذي نظمته المنظمة العربية للتربية والثقافة، الرياض في الفترة 27-28 فبراير 2008.
8. الخليفة، عمر، أبوناجمة، انتصار (2009). التحصيل الدراسي في اليابان مابين الجهد والقدرة، مجلة شبكة العلوم النفسية العربية، 23، 84–92.
9. الخليفة، عمر، وطه، الزبير، وعشرية، إخلاص (1995). تكييف وتقنين مقاييس الذكاء في الثقافة العربية. المجلة العربية للتربية، 15، 106 – 131.
10. الخليفة، عمر، وعبد الرضي، فضل الموالي (2010). زيادة معدل الذكاء القومي من خلال مقياس وكسلر لذكاء الأطفال–المعدل ومقياس وكسلر لذكاء الأطفال–الطبعة الثالثة، مخطوط غير منشور، مجموعة طائر السمبر.
11. رحمة، عزيزة (2004). فاعلية استخدام السلاسل الزمنية وتحليل الانحدار في دائرة الذكاء لدى الأفراد من عمر سبع سنوات حتى ثمانية عشر سنة (دراسة احصائية ميدانية في مدينة دمشق). أطروحة دكتوراة غير منشورة، جامعة دمشق، دمشق.
12. سلمان، عفراء(2008) . استخدام معيار فلين لقياس الذكاء القومي في ولايتي الخرطوم والجزيرة 1987-2007، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم.
13. الطاشاني، عبد الرازق الصالحين؛ المنصورى، علي عثمان؛ عبدالله، صالح الغمارى؛ والشحومي، الصديق عبد القادر.(2005). تقنين اختبار المصفوفات المتدرجة المقنن للذكاء علي عينة من تلاميذ المدارس الليبية (المرحلة الأولى). البيضا : جامعة عمر المختار.
14. العاني، نزار وآخرون (1995). تقنين اختبار المصفوفات المتتابعة الملون لريفين على أطفال مرحلة التعليم الأساسي في الجمهورية اليمنية للعمر 6-11 سنة. صنعاء:

اليونسيف.

15. عبد الله، صالح الغماري(2007) . تقنين اختبار المصفوفات المتدرجة الملون للذكاء (لجون رافين) على تلاميذ المدارس الابتدائية بالجبل الأخضر. رسالة ماجستير غير منشورة، أكاديمية الدراسات العليا، فرع بنغازي.

16. عبد الواحد، سحر بشير (2006). اعادة تطبيق اختبار رسم الرجل (زيادة معدل الذكاء في الفترة 1964-2006) في ولاية الخرطوم. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الاسلامية، السودان.

17. عليان، خليل.، والصمادي، جميل (1988). معايير الأداء العقلي للأفراد الأردنيين الذين تزيد أعمارهم على 11 عاما على مصفوفات ريفين المتتابعة المتقدمة. دراسات 15، 107-132.

18. عيد، أحمد (1999). اختبار المصفوفات المتتابعة الملونة: دليل الاستخدام. دولة الامارات العربية المتحدة: الأمارات:

19. وزارة التربية والتعليم والشباب.

20. محمد، عبد المجيد محمد (1988). الاقتباس والتقنين السوداني لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال-المعدل. رسالة ماجستير غيرمنشورة، جامعة الخرطوم، السودان.

21. يحيى، على محمد.، وجلال، أحمد سعد (1998). تقنين اختبار المصفوفات المتتابعة على البيئة العمانية. عمان، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس.

المراجع باللغات اللاتينية

22. Abdel-Khalek, A. (2005). Reliability and factorial validity on the Standard Progressive Matrices among Kuwaiti children ages 8 to 15 years. Perce - tual and Motor Skills, 101, 409-412.

23. Abdel-Khalek, A., & Lynn, R. (2008). Norms for intelligence assessed by the Standard Progressive Matrices in Oman. Mankind Quarterly, 49, 183-188.

24. Abdel-Khalek, A., & Lynn, R. (2009). Norms and sex differences for i - telligence in Saudi Arabia assessed by the Standard Progressive Matrices. Mankind Quarterly, 50, 106-113.

25. Abdel-Khalek, A., & Raven, J. (2008). Normative data from the standa - dization of Raven's Standard Progressive Matrices in Kuwait in an inte - national context. Social Behavior and Personality, 34, 169-179.

26. Baker, D., & Jones, D. (1993). Creating gender equality: Cross national gender stratification and mathematical performance. Sociology of Ed - cation, 66, 91-103.

27. Barnett, S. M. & Williams, W. (2004). National intelligence and the emp - ror's new clothes: IQ and the Wealth of Nations." Contemporary Psych - logy, 49, 389-396.

28. Beaton, A., et al (1996a). Mathematical achievement in the middle school years. Boston College, Chestnut Hill, MA: TIMSS.

29. Beaton, A., et al (1996b). Science achievement in the middle school years. Boston College, Chestnut Hill, MA: TIMSS.

30. Buj, V. (1981). Average IQ values in various European countries. Personality and Individual Differences, 2, 168-169.

31. Colom, R., Andres-Pueyo, A. & Juan-Espinosa, M. (1998). Generational gains: Spanish data. Personality and Individual Differences, 25, 927–935.

32. Colom, R., et al (2007). Generational changes on the Draw–a–Man test: A comparison of Brazilian urban and rural children tested in 1930, 2002 and 2004. Journal of Biosocial Science, 39, 79-89.

33. Daley, T. et al (2003). IQ on the rise: The Flynn effect in rural Kenyan children. Psychological Science, 14, 215-219.

34. Dickens, W.T. & Flynn, J.R. (2001). Heritability estimates versus large environmental effects: the IQ paradox resolved. Psychological Review, 108, 346-369.

35. Flynn, J. (1987). Massive IQ gains in 14 nations: What IQ tests really measure. Psychological Bulletin, 101, 171-191.

36. Flynn, J. (1998). WAIS-111 and WISC-111 IQ gains in the United States from 1972 to 1995: How to compensate for obsolete norms. Perceptual and Motor Skills, 86, 1231-1239.

37. Flynn, J. (2007).What is Intelligence? Beyond the Flynn effect. Cambridge: Cambridge University Press.

38. Grieve, K., Viljoen, S. (2000). An exploratory study of the use of the Austin Maze in South Africa. South African Journal of Psychology, 30, 14-18.

39. Jensen, A.R. (1998). The g Factor. Westport,CT: Praeger.

40. Hayami, T. (1981). Gakugyo fushinji no genin kizoku [Causal attributions about poorly performing pupils]. Japanese Journal of Educational Psychology, 29, 287-297.

41. Hayami, T., & Hasegawa, T. (1979). Gakugyo seiseki no ingakichaku [Causal attribution of academic achievements]. Japanese Journal of Educational Psychology, 27, 197-205.

42. Holloway, S.D. (1987). Mothers' and children's causal attributions: Relation to achievement attitudes and expectations. Unpublished manuscript, University of Maryland, College Part.

43. Khaleefa, O., Abdelwahid, S., Abdulradi, F., Lynn, R. (2008). The increase of intelligence in Sudan 1964-2006. Personality and Individual Differences,45,412-413.

44. Khaleefa., O., Al-Kurdi, K., & Lynn, R. (in press). Norms for the Colored Progressive Matrices in Oman. Mankind Quarterly

45. Khaleefa, O., Khatib, M., Mutwakkil, M., & Lynn, R. (2008). Norms and gender differences on the Progressive Matrices in Sudan, Mankind Quarterly, 49, 176-182.

46. Khaleefa, O., Lynn, R. (2008a). Sex differences on the Progressive Matrices: Some data from Syria. Mankind Quarterly, 48, 345–352.

47. Khaleefa, O., & Lynn, R. (2008 b). A study of intelligence in the United Arab Emirates.

48. Khaleefa., O & Lynn, R. (2008 c). Normative data for the IQ in Yemen. Psychological Reports, 103, 170–172.

49. Khaleefa., O & Lynn, R. (2008 d). Norms for the Standard Progressive M – trices in Qatar. Mankind of Quarterly, 48, 65–70

50. Khaleefa, O., Sulman, A., and Lynn, R. (2008). An increase of intelligence in Sudan 1987–2007. Journal of Biosocial Science, 41, 279–283.

51. Lovaglia, M et al (1998). Status process and mental ability test scores. The American Journal of Sociology, 104, 195–228.

52. Lynn, R. (1982). IQ in Japan and the United States shows a growing di – parity. Nature, 297, 222–223.

53. Lynn, R. (1988). Educational achievement in Japan: Lessons for the West. London: Macmillan.

54. Lynn, R. (1990). The role of nutrition in secular increases of intelligence. Personality and Individual Differences, 11, 273–285.

55. Lynn, R. (1993). Nutrition and intelligence. In P.A. Vernon (Ed) Biolog – cal Approaches to the Study of Intelligence. Norwood, NJ: Ablex.

56. Lynn, R. (1998). In support of nutrition theory. In U. Neisser (Ed) The Rising Curve. Washington, DC: American Psychological Association.

57. Lynn, R. (2009). What has caused the Flynn effect? Secular increases in the Development Quotients of infants. Intelligence, 37, 16–24.

58. Lynn, R., Abdalla, S., & Al–Shahomee, A. (2008). Norms for the Progre – sive Matrices for Libya and Tunisia. Mankind Quarterly, 50, 71–77.

59. Lynn, R., & Abdel–Khalek, A. (2009). Intelligence in Jordan: Norms for the Advanced Progressive Matrices. Mankind Quarterly, 50, 114–119.

60. Lynn, R., & Hampson, S. (1986). The rise of national intelligence: Evidence from Britain, Japan and the USA. Personality and Individual Differences, 7, 23–32.

61. Lynn, R., & Vanhanen, T. (2002). IQ and the wealth of nations. Westport: Praeger.

62. Lynn, R., & Vanhanen, T. (2006). IQ and global inequality. Augasta, GA: Washington Summit Publishers.

63. Martin, M. (1997). Science achievement in the primary school years. Bo – ton: College, Chestnut Hill, MA: TIMSS.

64. Meisenberg, G. et al (2005). The Flynn effect in the Caribbean: Gener – tional change in test performance in Dominica. Mankind Quarterly, 46, 29–70.

65. Mingroni, M.A. (2004). The secular rise in IQ: Giving heterosis a closer look. Intelligence, 32, 65–83.

66. Mingroni, M.A. (2007). Resolving the IQ paradox: heterosis as a cause of the Flynn effect and other trends. Psychological Review, 114, 1104.

67. Mohan, V. (1972). Raven's Standard Progressive Matrices and a verbal test of general mental ability. Journal of Psychological Researches, 16, 67–69.

68. Mohan, V, & Kumar, D. (1979). Performance of neurotics and stables on the Standard Progressive Matrices. Intelligence, 3, 355–368.

69. Raven J. (1960). Guide to the Standard Progressive Matrices sets A. B, C, D, and E. London: H.K. Lewis.

70. Raven, J. (1998). Manual for Raven's Progressive Matrices. Oxford: Oxford Psychological Press.

71. Raven, J. (2000). The Raven's Progressive Matrices: Change and stability over culture and time. Cognitive Psychology, 41, 1–48.

72. Rushton, J., & Skuy, M. (2000). Performance on Raven's matrices by Afr – can and white university students in South Africa. Intelligence, 28, 251–266.

73. Rushton, J., Skuy, M., Fridjhon, P. (2003). Performance on Raven's Adva – ced Progressive Matrices by African, East Indian, and white engineering students in South Africa. Intelligence, 31, 123–137.

74. Templer, D. (2010). The comparison of mean IQ in Muslim and Non–Muslim countries. Mankind Quarterly, L (3), 188–209

75. Vogel, E. (1963). Japan's new middle class. Berkeley: University of Califo – nia Press.

76. Yehia, A., Ibrahim, A., & Galal, A. (2003). A standardization of the Raven's Standard Progressive Matrices in Omani environment (Maskat District). Psychological and Educational Series, 7, 35–58.

الواسطة والفساد في إدارة المال والأعمال: دراسة إقليمية مقارنة

أ. د. مصطفى عشوي
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (السعودية)

أ. د. بيتر سميث
جامعة سوسكس (بريطانيا)

أ. د. محمود بوسنه
جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

د. عبد الله الأمين
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن (السعودية)

أ. جميلة السيار
باحثة بوزارة التربية (الكويت)

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة العلاقة بين طبيعة الشعور نحو سلوك الواسطة ومدى تقبل ممارسات الفساد في البلدان العربية من طرف الموظفين والمسئولين. يمكننا أن نلخص أهم النتائج فيما يلي:

– توجد علاقة ارتباط إيجابية قوية ودالة، خاصة بالنسبة للذكور بين طبيعة الشعور العام نحو الواسطة ومدى تقبل ممارسات الفساد. بمعنى أن الأفراد الذين لديهم شعور إيجابي نحو الواسطة لديهم تقبل أكثر لممارسات الفساد من الذين لديهم شعور سلبي.

– يدور مستوى تقبل ممارسة الفساد في البلدان العربية حول المتوسط النظري لأداة القياس المستخدمة في هذا البحث. إن اتجاه هذه النتيجة لا يتماشى مع الدراسات السابقة ومع تقارير منظمة «الشفافية الدولية» التي تشير إلى تفشي واسع لـ «الفساد» المالي والإداري في البلدان العربية. يمكن تفسير هذه النتيجة بصعوبة تقبل «الفساد» من طرف الأفراد علنا في المجتمعات العربية خاصة إذا عرفنا أن حفظ «ماء الوجه» من القيم الأساسية في الثقافة العربية من جهة ومن جهة أخرى يبقى الفساد أمرا مرفوضا عند الأفراد من الناحية الأخلاقية.

الكلمات الدالة: الواسطة، الفساد، إدارة المال والأعمال، البلدان العربية.

مقدمة:

تعتبر«الواسطة» سلوكا اجتماعيا شائعا في البلدان العربية، يستخدم كأسلوب من أساليب التأثير الاجتماعي للحصول على النفوذ في مختلف المجالات. ونظرا لاستعمال «الواسطة» في أغلب الأحيان بطرق فيها تجاوزات قانونية وأخلاقية فإن ذلك قد يؤدي إلى تصنيف ممارسة بعض أنواع «الواسطة» على الأقل في خانة ممارسة «الفساد» الإداري والمالي. فهل توجد علاقة بين طبيعة الشعور نحو الواسطة (شعور إيجابي أو شعور سلبي) وتقبل «الفساد» المالي والإداري من طرف الأفراد في إدارة الأموال والأعمال في البلدان العربية؟ وما هي المتغيرات الشخصية والديمغرافية التي تؤثر في هذه العلاقة؟

وتجدر الإشارة إلى أنه رغم شيوع استعمال «الواسطة» كظاهرة اجتماعية في البلدان العربية، واعتماد كثير من الناس عليها لانجاز معاملاتهم وحل مشكلاتهم الإدارية وغيرها، واعتبارها في معظم الأحيان وسيلة لابد منها، فإنها لم تدرس دراسة علمية ميدانية متعمقة من طرف الباحثين العرب وخاصة من الناحية السيكولوجية حسب علمنا. وكل ما يمكن أن نجده حول هذا الموضوع هو العديد من المقالات العامة في الصحف وبعض المجلات الثقافية غير المتخصصة والتي تكتفي بالنظر للظاهرة نظرة سلبية وتربطها في معظم الأحيان بالبيروقرطية وبالفساد الإداري عموما. ولهذا سنتناول في البداية بالتحليل العلاقة بين الفساد والواسطة.

العلاقة بين الفساد والواسطة

إن المقصود بـ «الفساد» حسب تعريف «منظمة الشفافية الدولية» التي تعد أكبر منظمة غير حكومية في العالم لمحاربة الفساد، هو «سوء استغلال السلطة من أجل تحقيق مكاسب شخصية». وتصدر هذه المنظمة تقريرا سنويا عن الشفافية والفساد في العالم. وغالبا ما تصنف معظم البلدان العربية ضمن أكثر بلدان العالم فسادا وأقلها شفافية في الحكم والإدارة واتخاذ القرارات خاصة ما يتعلق منها بإدارة الأموال من استثمار وتمويل وإقراض ومناقصات وغير ذلك من قضايا إدارة المال والأعمال.

وفي نفس الإطار يعرف مجموعة من الباحثين العرب (2010) الفساد بأنه «استخدام السلطة المخولة مؤسسيا في تحقيق منافع خاصة خارج النطاق الذي رسمت له». ويقدم لاكوم (2003) تعريفا أوسع لهذا المفهوم حيث يرى بأن الفساد يشمل نوعين من الانحراف في سلوك صاحب سلطة: أولا، عندما يستخدم هذا الأخير وضعه القوي في إطار وظائفه العامة أو الخاصة لتجاوز القواعد المقررة إما لصالحه أو لحساب شخص آخر أو منظمة أخرى. وثانيا، عندما يتحايل على قاعدة مهنية مثل أمانة التعاقد، أو مبدأ أخلاقي مثل المساواة في المعاملة من أجل تحقيق أهداف غير مشروعة.

وقد أكدت مجموعة الباحثين العرب المشار إليهم أعلاه أنه يمكن رصد وقياس الفساد نظريا من خلال طريقتين:

1. الأقيسة الموضوعية وتقوم على المؤشرات التي تعكس ما تم كشفه وليس ما حدث فعلا. وميزتها أنها تقدم بيانات يمكن إخضاعها للتحليل والخروج منها باستنتاجات؛ وذلك مثل إحصاءات عمل أجهزة الرقابة ومؤشرات أجهزة النيابة المتصلة بالادعاء ومعدلات الإدانة القضائية واسترداد مدفوعات الفساد والثروات غير المشروعة.

2. الأقيسة الإدراكية التي تحاول رصد الانطباعات عن الفساد من خلال مقاييس للرأي العام مثل الأقيسة التي تصدرها المؤسسات الدولية المهتمة بالموضوع، والمؤسسات الوطنية المعنية بالفساد والشفافية.

أما ليونغ (2010) فيرى أن قياس «الفساد» قد يكون على المستوى الفردي، كما قد يكون على المستوى الثقافي. ولقياسه على المستوى الفردي قام ليونغ ولين في سنة 2009 بوضع مؤشر للفساد سيأتي شرحه بالتفصيل في «أداة جمع البيانات»[1]. وأكد ليونغ أن

1- لقد استخدمنا في هذه الدراسة هذه الأداة لقياس مدى تقبل الفساد عند الموظفين والمسئولين في البلدان العربية

مقياس منظمة «الشفافية الدولية» قد يتخذ هو الآخر كأداة لقياس «الفساد» على المستوى الثقافي العام.

وتبين المعطيات التي تقدمها تقارير منظمة «الشفافية الدولية» أن هناك علاقة سلبية بين ممارسة «الفساد» و»الشفافية» حول إدارة الأموال والأعمال وغيرها من النشاطات وأشكال وأساليب ممارسة السلطات بطرق سواء كانت رسمية أم غير رسمية. وتبين هذه المعطيات أيضا أن أغلب البلدان العربية تقع في ذيل قوائم «الشفافية».

إن ظاهرة الفساد أصبحت في الواقع، متفشية في مختلف البلدان وليس فقط البلدان العربية، إلا أن في هذه الأخيرة بلغت درجة التفشي بها مستويات عالية. حيث أصبح أغلبية مواطنيها يعرفون كثيرا من الأمثلة عن ممارسات الفساد في أوساط المسئولين من مختلف المستويات، وعن عدم اتخاذ إجراءات رسمية في كثير من الأحيان لردع ممارسي للفساد، بل قد يحدث أن يرقى هؤلاء إلى مناصب أعلى. ولهذا تكونت اتجاهات استسلامية نحو الفساد وأصبح ينظر إلى ممارساته على أنه واقع فرض نفسه من الصعب تجاوزه أو تغييره؛ ومن الأحسن للفرد أن يتكيف مع هذا الواقع رغم أنه يبقى مرفوضا من النواحي الأخلاقية والقانونية[2].

إن أهم عامل وراء انتشار الفساد هو عدم وجود قوانين واضحة تعاقب عليه؛ وحتى إن وجدت بعض القوانين الرادعة والتي تمنع أصحاب المناصب من تعاطي رشاوى أو القيام بأي شكل من أشكال المحاباة أو المحسوبية أو استغلال المنصب لتحقيق مصالح خاصة أو الإتجار بالنفوذ، فإن التطبيق الفعال والصارم لهذه القوانين يكون في أغلب الأحيان غائبا. وبالتالي أصبحت هذه القوانين شكلية ولا تحترم. وفي هذا الإطار يقول هيدنهيمر (1989): «أن الفساد يعتبر في أغلب الأحيان جريمة بيضاء لا يعاقب عليها وإنه انحراف تقبله النخب وتتساهل معه الشعوب». وفي نفس الاتجاه يشير لاكوم (2003) إلى أن الكثير من رجال الأعمال يعتبرون الرشوة سلوكا مبررا بدعوى مصلحة المؤسسة التي يشرفون عليها حيث لا يوجد أي مجلس إدارة يعاقب المسئولين على مثل هذه الأفعال. ويذهب ميني (1997) إلى أبعد من ذلك حيث يعتبر الفساد في أي نظام ظاهرة ليست على هامشه وإنما تتعايش معه وتتغذى من نقاط الضعف فيه وتتسرب داخله وتستند إلى آليات وقيم النظام ذاته.

إن المرونة في مواجهة الفساد، ، والتي نجدها بدرجات متفاوتة في مختلف المجتمعات المعاصرة، تفسّر لنا إلى حد ما فشل حملات «الأيادي النظيفة» التي جرت في العديد من البلدان ومن بينها بعض البلدان العربية في القضاء أو التخفيف من انتشار الفساد؛ وهذا رغم وجود بعض الأجهزة واللجان المتخصصة في مكافحة الفساد وتعرض الإعلام في السنوات الأخيرة خاصة إلى التشهير ببعض الفضائح المتصلة به.

أما فيما يخص «الواسطة» فتعتبر كما أشرنا سابقا، أسلوبا من أساليب الحصول على «النفوذ الاجتماعي» وممارسته. ويعبر عن هذا النفوذ بأشكال وأساليب مختلفة كالسعي للحصول على سلطة، والتعبير عن السلطة، والوجاهة والمكانة الاجتماعية، والاستحواذ، وحل المشكلات، وإقامة العلاقات الثنائية والجماعية بهدف بسط النفوذ والتعبير عنه، وإسداء الجميل للآخرين في مقابل الاعتراف به من طرفهم ورده عند الحاجة.

2- لقد تم كتابة هذا البحث قبل أحداث تونس ومصر

وترجع جذور مصطلح «الواسطة» لغوياً لكلمة «وسط»؛ فقد جاء في المعجم المحيط «ووسطهم» كوَعَدَ وسطا وسيطة: جَلَسَ وسطهم، كتوسطهم. وهو وسِيطٌ فيهم، أي: أوسطهم نَسَباً، وأرفَعُهُمْ مَحَلاً. والوسيط : المتوسط بين المُتَخاصِمَيْنِ.

وجاء في لسان العرب: «وسط الشيء : ما بين طرَفَيْه»؛ ولعل مصطلح «الواسطة» قد أخذ من هذا التعريف من باب المجاز؛ فالشخص الذي يتوسط لشخص آخر في قضية ما يؤدي دور الربط بين طرفين؛ طرف له حاجة وطرف آخر يستطيع قضاء تلك الحاجة وإنجازها؛ فهو وسط ووسيط بين طرفين أي شخصين أو أكثر من ذلك.

تعتبر «الواسطة» في المجتمعات العربية أسلوباً من أساليب التعبير عن التآزر العائلي والقبلي وغيرهما من الانتماآت التي تفرض على الشخص ضرورة إسداء الجميل للآخرين والوقوف معهم عند الحاجة لاعتبار ذلك إحدى القيم الأساسية في المجتمعات «الجمعانية» التي تؤدي فيها الروابط العائلية والقبلية دورا أساسياً في تشكيل السلوك الاجتماعي للأفراد والجماعات وللمجتمع ككل.

والواسطة كأسلوب من أساليب التأثير الاجتماعي داخل المؤسسات (المنظمات) أو خارجها قد يكون أسلوب التأثير هذا عمودياً، كأن يكون بين مستويات منخفضة ومستويات عليا من ناحية السلطة التنظيمية أو الهرمية (داخل المنظمات) أو المكانة الاجتماعية (في المجتمع بصفة عامة: شرائح، فئات وطبقات اجتماعية)، وقد يكون أفقياً بين أفراد في نفس المستوى التنظيمي أو الاجتماعي، وقد يكون وهو الشأن في معظم البلدان العربية متعدد الاتجاهات حيث قد يتخذ طابعا رسمياً أو غير رسمي، أو طابعاً يجمع بين كلاهما الرسمي وغير الرسمي. وقد يكون هذا النوع من التأثير الاجتماعي مباشرا كأن يتوسط شخص لشخص آخر بصفة مباشرة عند جهة معينة، وقد يكون غير مباشر كأن يتوسط شخص لآخر بواسطة تدخل أو تأثير شخص ثالث أو عدة أشخاص آخرين عند جهة ما.

يعتبر استعمال «الواسطة» أسلوبا شائعا عالميا عند الشعوب والثقافات المختلفة، وتتفاوت درجات اللجوء لاستعمال الواسطة من بلد لآخر ومن ثقافة لأخرى. ويعبر عن «الواسطة» في اللغات المختلفة بتعابير ومصطلحات متفق عليها بعضها مجازي وبعضها غير مجازي. ففي الانكليزية وبالأخص في بريطانيا يستعمل مصطلح (Pulling Strings)؛ وتعني التحكم في مؤسسة أو فرد ما أو السيطرة عليهما بصفة سرية، وفي الفرنسية يستعمل مصطلح (Piston)، وفي البرتغالية يستعمل مصطلح (JeitinhoJ) ليعنى به المرونة والطريق القصير للوصول إلى الهدف؛ ويعني أيضا تحقيق الأهداف الشخصية بطريقة غير مباشرة وسريعة وذكية، وفي التركية يستعمل مصطلح (Torpil) ويعني الطوربيد أي الصاروخ، وفي الصينية يستعمل مصطلح (Guanxi) ويعني اقامة علاقات شخصية بين طرفين غالبا ما تكون طويلة الأجل لانجاز أهداف وحاجات مشتركة، وفي الروسية يستعمل مصطلح (Svyazi) وتعني إقامة علاقات تمكن من إنجاز الحاجات.

ويتخذ التعبير عن هذا المفهوم في البلدان العربية المختلفة مصطلحات وعبارات متعددة غالبا ما تتخذ شكل الاستعارة والمجاز في التعبير. ففي شمال افريقيا، مثلا في الجزائر يعبر عن «الواسطة» بـ «المعرفة» أي أن الشخص له «معارف» (أشخاص يعرفهم) في مناصب أو في مواقع إدارية (مناسبة) غالبا ما تكون عليا يستطيع من خلالهم «قضاء حوائجه وحل مشكلاته»، ويعبر عنها أيضا بـ «لاكتاف»؛ أي أن الشخص له أكتاف عريضة وقوية يستطيع

بها مواجهة المشكلات والعراقيل والتغلب عليها، وكذلك بكلمة «ظهر» أي أن الشخص له ظهر يستند إليه، ويعبر عنها كذلك بكلمة «البستو»؛ وهي كلمة فرنسية (Piston).

أما في البلدان العربية الأخرى فتستعمل كلمة «الواسطة» على نطاق واسع؛ وتعني توسط شخص أو عدة أشخاص لشخص آخر بهدف تسهيل تحقيق هدف (أهداف) له أو انجاز مهمة أو قضاء حاجة أو حاجات له. ففي مصر مثلا، تستعمل كلمة «الواسطة» على نطاق واسع، ويستعمل لها أيضا مصطلح شعبي ظريف وهو «الكوسة». ولعل المتصفح للجرائد اليومية ومنتديات الانترنيت يلاحظ مدى انتشار «الواسطة» في البلدان العربية وكثرة لجوء الناس إليها لقضاء مآربهم سواء تماشى ذلك مع القوانين أم خالفها بدءا كأمثلة على ذلك بالحصول على رخص سياقة السيارات دون اختبارات، مرورا بالتملص من مخالفات المرور وانتهاءا بتسجيل الحوادث على الآخرين ليدفعوا التعويضات من غير وجه حق؛ وغير ذلك من المعاملات المقبولة وغير المقبولة قانونا وعرفا. وأسوأ من هذه الأمثلة انتشار «الواسطة» وارتباطها بأشكال هيكلية من الفساد المالي في إدارة الأعمال وإدارة الموارد البشرية كاستعمال الرشوة والتزوير عن طريق «الواسطة» للفوز بالمشاريع و«المناقصات» وخاصة في المؤسسات الحكومية، وللتهرب من الضرائب المختلفة وتهريب السلع، وللتغاضي عن معايير الجودة والنظافة والصحة، وللحصول على وظائف وترقيات وغير ذلك من الامتيازات.

ورغم كل هذه السلبيات المرتبطة بممارسة الواسطة، فإنها قد تصبح الملجأ الأخير لبعض الأشخاص للحصول على حقوقهم ومطالبهم المشروعة دون الإضرار بأحد ودون التعدي على القوانين. وقد يعتبر بعض الأشخاص استعمال «الواسطة» في مثل هذه الحالة حلا عمليا فعالا للحصول على الحقوق وتجاوز العراقيل البيروقراطية وحواجز الفساد الإداري بأشكاله المختلفة.

الخلفية الدينية للمصطلح اللغوي الأصلي للواسطة

قد يبرر استعمال «الواسطة» في البلدان العربية من الناحية الأخلاقية والدينية بشكل يصبح مقبولا بل ومحبذا اجتماعيا في بعض الأحيان خاصة إذا لم يكن على حساب شخص أو أشخاص آخرين، أو ليس فيه تعد على القانون أو الشرع. وقد يعتبرها بعضهم «معروفا» من باب «والأقربون أولى بالمعروف»، أو من باب الوفاء للقبيلة والعائلة والأصدقاء والجيران وخدمتهم والإحسان إليهم. ولكن استعمال «الواسطة» قد يكون على حساب الآخرين كما هو الحال في التوظيف حيث تؤدي الواسطة إلى توظيف شخص له «واسطة» حتى ولو لم يكن مؤهلا في بعض الأحيان على حساب شخص مؤهل لا «واسطة» له، وكذلك الأمر في عدة أمور إدارية كالترقية والحصول على مكافآت وعلاوات وجوائز وغير ذلك من الامتيازات على حساب حقوق الآخرين.

إن المصطلح اللغوي الأصلي والشرعي في الإسلام لهذا المفهوم «الواسطة» هو «الشفاعة»حيث جاء في القرآن الكريم : «من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها»، سورة النساء الآية 85. ونلاحظ من خلال هذه الآية أن الشفاعة نوعان : شفاعة حسنة وشفاعة سيئة. وقد جاء في تفسير الجيلالين لهذه الآية : (من يشفع) بين الناس (شفاعة حسنة) موافقة للشرع (يكن له نصيب) من الأجر (منها) بسببها (ومن يشفع شفاعة سيئة) مخالفة له (يكن له كفل) نصيب من الوزر (منها) بسببها

(وكان الله على كل شيء مقيتا) مقتدرا فيجازي كل أحد بما عمل. ولعل بعض المتدينين والمفتين يستندون لهذه الآية الكريمة ليتحدثوا عن «النوع الإيجابي» من «الواسطة»، بينما نلاحظ أن الآية تتحدث عن الشفاعة الموافقة للشرع وهي الشفاعة الحسنة وتميزها عن الشفاعة غير الموافقة للشرع وهي الشفاعة السيئة.

ولكن، ما حكم «الواسطة» شرعا وهل هي حرام؟ مثلاً إذا أردت أن أتوظف أو أدخل في مدرسة أو نحو ذلك واستخدمت الواسطة فما حكمها[3]؟.

طرح هذا السؤال في موقع متخصص في الفتاوى بالشبكة العنكبوتية، وجاء الجواب من لجنة الفتاوى للموقع على النحو التالي:

أولاً : إذا ترتب على توسط من شفع لك في الوظيفة حرمان من هو أولى وأحق بالتعيين فيها من جهة الكفاية العلمية التي تتعلق بها والقدرة على تحمل أعبائها والنهوض بأعمالها مع الدقة في ذلك فالشفاعة محرمة؛ لأنها ظلم لمن هو أحق بها وظلم لأولي الأمر وذلك بحرمانهم من عمل الأكفأ وخدمته لهم ومعونته إياهم على النهوض بمرفق من مرافق الحياة، واعتداء على الأمة بحرمانها ممن ينجز أعمالها ويقوم بشئونها في هذا الجانب على خير حال، ثم هي مع ذلك تولد الضغائن وظنون السوء، ومفسدة للمجتمع، وإذا لم يترتب على الوساطة ضياع حق لأحد أو نقصانه فهي جائزة بل مرغب فيها شرعاً ويُؤجر عليها الشفيع إن شاء الله، ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما يشاء». البخاري/1342

ثانياً : المدارس والمعاهد والجامعات مرافق عامة للأمة يتعلمون فيها ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ولا فضل لأحد من الأمة فيها على أحد منها إلا بمبررات أخرى غير الشفاعة، فإذا علم الشافع أنه يترتب على الشفاعة حرمان من هو أولى من جهة الأهلية أو السن أو الأسبقية في التقديم أو نحو ذلك كانت الوساطة ممنوعة لما يترتب عليها من الظلم لمن حُرِم أو اضطُر إلى مدرسة أبعد فناله تعب ليستريح غيره، ولما ينشأ عن ذلك من الضغَائن وفساد المجتمع وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم. اللجنة الدائمة (فتاوى إسلامية 4/300).

وتجدر الملاحظة إلى أن مصطلح الواسطة لم يرد بهذه التسمية في تشريعات الحضارات القديمة، مثلا حضارة وادي الرافدين أو النصوص الدينية السماوية التوراتية والإنجيلية. إن قراءة هذه التشريعات والنصوص الدينية يكشف عن وجود مضامين تذكر أنواع مختلفة من السلوك على أنها فساد، ومن أبرزها الرشوة والتزوير وقول الزور والسرقة؛ حيث حددت مواصفتها وسنت قوانين ردعية لمواجهتها. فقوانين حمورابي نهت عن الفساد والسرقة. والتوراة أوردت عقوبات عن عدة أنواع من الفساد كالرشوة والسرقة وهذا كما جاء في الأسفار الأربعة. لقد جاء في التوراة مثلا، ما يلي : «... لا تقبل خيرا كاذبا ولا تضع يدك مع المنافق تكون شهادة ظلم، ولا تتبع الكثيرين لفعل الشر...»(سفر الخروج 1-2:23). «... لا تحرف حق فقيرك في دعواه، ابتعد عن كلام الكذب...ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمي المبصرين وتعوج كلام الأبرار...» (سفر الخروج 9-4 : 23). «...لا ترتكبوا جورا في القضاء ولا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل...» (سفر اللاوين13 : 35).

3-أخذ بتاريخ 15 يونيو 2010 من موقع:
http://www.islam-qa.com/ar/ref/26801

مع العلم أن النصوص التوراتية هي نفسها التي تضمنتها النصوص الإنجيلية كما أنها تتماشى مع ما نزل في الدين الإسلامي. إلا أن القرءان الكريم يذهب إلى أبعد من هذا ويعرض بوضوح أساس مصطلح الواسطة كما هو متداول اليوم مثل ما بينا أعلاه (الشفاعة) وبالتالي يميزه عن السلوكات الأخرى مثل الكذب والتزوير والفساد والرشوة.

الدراسات السابقة

إن الطريف في الأمر هو أن كلمة «واسطة» قد دخلت قاموس اللغات الأجنبية، وأصبحت تستعمل حتى في البحوث العلمية التي قام بها بعض الباحثين باللغة الإنكليزية مثلا. فقد شرح هوتشينغ وويرHutchings, K. and Weir, D. 2006)) مفهوم «واسطة» (Wasta) بقولهما بأنها «التوسط»، وأشارا إلى انتشار الظاهرة في البلدان العربية مؤكدين أن «الواسطة» ستتعزز وستنتشر أكثر في هذه البلدان نتيجة ازدياد عدد المؤسسات الاقتصادية العائلية.

أما الباحثان كونينغهام وسرايها (Cunningham & Sarayrah, 1993) فقد عرفا «الواسطة» بأنها العملية التي يقوم فيها شخص ما بانجاز أهداف عبر ارتباطات (علاقات) مع أشخاص رئيسيين (متنفذين) في مناصب عليا، وأن هذه الارتباطات شخصية، وغالبا ما تستمد من علاقات عائلية أو صداقات قوية. ورغم اعتبار «الواسطة» شكلا من أشكال الفساد، إلا أن هذين الباحثين قد أشارا إلى جانب إيجابي للواسطة سواء كان ذلك على المستوى الفردي أم المجتمعي. ويتمثل هذا الجانب في النظر «للواسطة» باعتبارها شكلا من أشكال انتماء الفرد لكيان اجتماعي يقدم له دعما غير مشروط، ويساعده على حل المشكلات. ومن الباحثين الذين أشاروا أيضا إلى الجانب الإيجابي للواسطة الباحثة الأردنية الرماحي التي قدمت موضوعا حول استعمال «الواسطة» في عملية حل النزاعات التجارية الدولية بين رجال الأعمال الغربيين ونظرائهم في الشرق العربي مؤكدة أن نظام «الواسطة» جزء من النسيج الاجتماعي في الأردن، وأن دراسة الظاهرة ضرورية لفهم ثقافة المنازعات بالبلد مما يستدعي مراعاتها من طرف رجال الأعمال الغربيين في عملية فض وحل النزاعات التجارية التي قد تصادفهم في الأردن. ووجد الباحثون لووي وبلوم وسبير (Loewe, Blume, and Speer,2008) في دراسة أجروها بالأردن أيضا أن الأردنيين يربطون بين «الواسطة» والولاء والتضامن. وقد اتضح من خلال أقوال الأشخاص الذين قابلهم الباحثون أنهم يواصلون الاعتماد على «الواسطة» لأنه من المستحيل التغلب على الحواجز البيروقراطية بوسيلة أخرى. وكان السعيد وماكدونالد (El-Said & McDonald) قد أشارا في سنة 2001 أن القيام بأي شيء مهما كان بسيطا يتطلب استعمال «واسطة». ومن الباحثين القلائل الذين حاولوا تقديم تفسير تاريخي وسياسي لنشوء وامتداد جذور «الواسطة» في بلد عربي مثل الأردن نجد في عام 2009 وايتكر (Whitaker يشير إلى أنه بسبب توسع مصالح الخدمة المدنية بالأردن خلال وبعد الستينيات أدى الأمر بالقيادات العليا في الحكومة والإدارة إلى ملء الوظائف الشاغرة آنذاك بأشخاص من عائلاتهم الممتدة أو من المناطق التي ينتمون إليها. وقد سعدت الحكومات آنذاك بهذا المسعى وتركته يحدث لأنها كانت مهتمة بتثبيت شرعيتها عند الشعب أكثر من اهتمامها ببناء دولة فعالة. وبعد أن أورد ويتكر استعمال بعض العرب لمصطلح «فيتامين و» للإشارة بسخرية للواسطة، فقد ألمح إلى أن للواسطة انعكاسات سلبية شديدة رغم بعض جوانبها الإيجابية المتمثلة في تجاوز العراقيل البيروقراطية وحل المشكلات.

ومن الدراسات الميدانية النادرة في موضوع الواسطة، الاستطلاع الذي أجرته مؤسسة

الأرشيف العربي في عام 2000 بالأردن حيث تمّ الوصول إلى النتائج التالية:

1. أنّ 85.83% من المستطلعة آراؤهم يعتقدون أنّ الواسطة شكل من أشكال الفساد، ومع ذلك فإنّ 93.04% منهم قالوا إنّ الحاجة إليها ستظلّ ضرورية.

2. أنّ نظرة العينة المستخدمة كانت تشاؤمية بالنسبة لمستقبل ظاهرة الواسطة، فنحو 88% من المشاركين كانوا على قناعة بأنّهم سيظلّون بحاجة إلى استخدام الواسطة في المستقبل، منهم 34% عبّروا عن قناعتهم بأنّ الحاجة إلى الواسطة ستزيد في المستقبل، وهذا ما يعكس قلّة الثقة بالاجراءات الحكومية.

3. أَنّ سبب تفشّي ظاهرة الواسطة في المجتمع الأردني يرجع في رأي العيّنة إلى الأسباب التالية:

   أ- التخلّف الاداري 29,43%÷

   ب- الفساد÷ 83,22%

   جـ- العشائرية والجهوية ÷43,13%÷÷÷÷

   د- غياب الديمقراطية 43,11%

4. أن 57 % من أفراد العيّنة يستخدمون الواسطة لتسهيل إنجاز المعاملات الحكومية. وهذا إقرار بأنّ المعاملات يصعب إنجازها بدون واسطة.

5. ومع ذلك كلّه، فقد أجاب 22.78 % من أفراد العيّنة بأنّه يجب القضاء على الواسطة.

أما في الجزائر وتونس والمغرب، فيستعمل مصطلح «المعرفة» والبيستو (Piston) كما أشرنا سابقا ليقصد بها التحكم مثل ما ذهب إليه يحياوي وزبيري (Yahiaoui & Zoubir) في دراسة لهما في سنة 2006. واتضح في دراسة أجراها ملاحي و وود في سنة 2003 عن التوظيف في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بالجزائر بأن الحصول على الوظائف قد يتم من خلال علاقات مع «معارف» وأصدقاء بدلا من الاعتماد على علاقات عائلية. ولعل هذه النتيجة خاصة بالوضع في المدن الجزائرية التي بدأت تضعف فيها الروابط القبلية والعائلية وتحل محلها روابط الصداقة والزمالة في العمل والمصلحة المتبادلة. ولكن هذا لا يعني زوال الروابط العائلية واضمحلال تأثيرها في «الواسطة» ببلدان المغرب العربي.

وفي مصر كشفت دراسة لوزارة التنمية الإدارية عن إحساس 75% من المصريين بسيادة الظلم، فيما لا يثق 50% منهم في تصريحات الحكومة، ويلجأ 87% منهم للوساطة لإنهاء مصالحهم، في حين يرفض 53% المشاركة في الانتخابات بدعوى تزويرها[4]. وبينت دراسة بالسعودية أعدها منتدى الرياض الاقتصادي بعنوان «رؤية لتنمية الموارد البشرية» أن ظاهرة الواسطة في التوظيف أبرز سلبيات تنمية الموارد البشرية، كما أشارت إلى أن معوقات تنمية الموارد البشرية تتمثل في ضعف التنسيق بين الوزارات ذات العلاقة بتنمية الموارد البشرية مثل التربية والتعليم، الصحة، العمل، الاقتصاد والتخطيط والمالية، وإلى غياب رؤية موحدة تعمل من خلالها تلك الوزارات مما أدى إلى وجود خلل في إدارة عملية تنمية الموارد البشرية[5]. وفي الكويت أكد علي والكاظمي في سنة 2006 (Ali & Al-Kazemi

4-جريدة الرؤية. 15 أكتوبر 2009

5-جريدة الرياض: دراسة: ظاهرة الواسطة في التوظيف. عدد 14923، 3 مايو 2009، الرياض، السعودية.

) أن الاعتماد على الواسطة في الكويت كبير، وأن استعمالها متفشي في البلاد. وعن مدى انتشار «الواسطة» في مجال إدارة المال والأعمال الكويتية وتأثيراتها السلبية على الاقتصاد، أكد نائب المدير العام لشؤون الموارد البشرية في بنك الخليج وجود هذه الظاهرة بقوة داخل مجتمع الأعمال الكويتي بتداعياتها السلبية على عمل المؤسسة، إلا أنه قال في الوقت ذاته: «الواسطة» تدخل العامل إلى المؤسسة لكنها لا تضمن استمراره فيها[6].

وفي مراجعة للدراسات السابقة أعدها الأمين سنة 2006 عن تأثير «العلاقات الشخصية» في صياغة الاستراتيجية الإدارية بإفريقيا، أكد بناء على نتائج العديد من الباحثين الإفريقيين مثل بلانت وجونز سنة 1992 (Blunt and Jones) ونادوزي سنة 2001 (Nnadozie) أن العلاقات الشخصية تلعب دورا كبيرا في إفريقيا، وأن معرفة الأشخاص وإنشاء الروابط الشخصية معهم هو مفتاح النجاح في إدارة الأعمال بإفريقيا. وقد وجد الأمين في نفس الدراسة أن هناك نوعين من «العلاقات الشخصية» التي تؤثر بقوة في صياغة الاستراتيجيات في المؤسسات السودانية وهما أولا : الروابط (العلاقات) الشخصية بين المديرين التنفيذيين وزملائهم المديرين التنفيذيين الآخرين في مؤسسات أخرى، وثانيا : الروابط (العلاقات) الشخصية بين المديرين التنفيذيين والمسئولين الحكوميين.

ويدعم هذه الآراء ما أشار إليه برانين (Branine, 2001) في دراسة عن إدارة الموارد البشرية في الجزائر حيث أكد أنه من الصعوبة الحصول على وظيفة دون اتصالات مع أشخاص داخل المنظمات (المؤسسات)؛ وتتخذ هذه الاتصالات أشكالا مختلفة كالمحسوبية والمحاباة والرشوة وما يسمى في الجزائر ب «البيستو» (Piston). وأكد نفس الباحث أن استعمال «الواسطة» أو «البيستو» للحصول على الوظائف، وانجاز المهام والحصول على فوائد معينة بطريقة سهلة قد أعطى عدة مديرين وجاهة اجتماعية عالية كما قوى ذلك نفوذهم في مناصبهم. وعليه، فإن الأولوية للأصدقاء والأقارب ولو كان ذلك على حساب الكفاءة والقدرة والمهارة، وأكد الباحث نفسه أن المديرين يشعرون بواجب دعم أقاربهم وأصدقائهم. وبالمقابل، يتشكل لدى هؤلاء الأقارب والأصدقاء الذين يحصلون على الوظائف بالواسطة استعداد بعدم معارضة الذين وظفوهم.

وفي الواقع، وكما تؤكد الدراسات السابقة المشار إليها أعلاه، فإن اللجوء للواسطة بهدف الحصول على الوظائف والترقيات ورفع الرواتب وللحصول على غير ذلك من الامتيازات الإدارية، ولحل المشكلات المرتبطة بالبيروقراطية، وتخليص وقضاء المهام خاصة في الدوائر الحكومية مثل دوائر الضرائب والجمارك والبلديات والولايات (المحافظات) والمرور والوزارات وغيرها من المؤسسات والدوائر الحكومية يعتبر من الممارسات الشائعة في البلدان العربية كلها، ولا تقتصر هذه الممارسات على بلد عربي دون آخر بل الأمر نفسه في كل البلدان العربية مع تباين في درجات انتشار الواسطة، وفي درجات اتجاهات الأفراد والشعوب نحوها.

وتبين بعض الدراسات عبر الثقافات (Cross Cultural)، مثل الدراسة الميدانية التي أجراها كل من سميث وهوانغ وحرب وتوريز (Smith, Huang, Harb,Torres) في بريطانيا وسنغافورة ولبنان والبرازيل سنة 2010 ، على عينات طلابية أن ظاهرة «الواسطة»بمسمياتها وأساليبها المختلفة ظاهرة عالمية مع تباين في درجات قبولها وممارستها أيضا في مختلف

6-جريدة الأنباء (الكويت) عدد 12298 رجب 15 - 1431 يونيو2001.

الثقافات.

و تعتبر «الواسطة» من الناحية السيكولوجية سلوكا اجتماعيا؛ وهذا السلوك شكل من أشكال اكتساب النفوذ واستعماله بطريقة غير رسمية علما بأن هناك أساليب كثيرة للتأثير في الآخرين بطرق رسمية وغير رسمية بهدف اكتساب النفوذ واستعماله في مختلف المجالات. وقد عرف برينبرغ وبارون (Breenberg and Baron, 2007) النفوذ الاجتماعي (Social Influence) بأنه محاولات للتأثير في شخص ما للحصول منه على شيء مرغوب فيه سواء نجحت المحاولات أم لم تنجح.

ويتضح من الدراسات السابقة أن للواسطة تأثيرا سلبيا كبيرا في إدارة الموارد البشرية وإدارة المال والأعمال بصفة عامة حيث يلجأ إليها في التوظيف والترقية ورفع الرواتب ومزايا التدريب والتطوير، وللحصول على االمناقصات والمشاريع، وللتهرب من الضرائب وغير ذلك من الامتيازات والفرص ولو كان ذلك على حساب القوانين واللوائح أحيانا وعلى حساب القيم الأخلاقية وحقوق الآخرين أحيانا أخرى.

والملاحظ على الدراسات السابقة التي أجريت في البلدان العربية حول «الواسطة» أنها لا تستند في الغالب إلى معطيات ميدانية ما عدا قليلا من البحوث التي أشرنا إليها، وأنها لا تتجاوز حدود البلد الواحد بينما ظاهرة «الواسطة» منتشرة في كل البلدان العربية مما يستدعي دراستها على المستوى الإقليمي.

وتعتبر الواسطة في جانبها السلبي شكلا من أشكال «الفساد» في إدارة المال والأعمال الذي ينبغي دراسته وكشفه من خلال بحوث ميدانية لما له من تأثيرات سلبية في الإدارة عامة وفي إدارة الموارد البشرية خاصة وفي غير ذلك من المجالات الحيوية كإدارة المال والأعمال والقضاء والأمن.

وفي الواقع، فإن بعض أشكال «الواسطة» قد تعتبر من أشكال الفساد الهيكلي في الميادين الإدارية والسياسية والمالية والاجتماعية وخاصة في مجال إدارة المال والأعمال. وأقرب مثال على ذلك ما أورده الوصال (2009) حول «المحسوبية» والتي تتمثل في استغلال السلطة أو النفوذ للمحاباة أو التحيز لفرد أو جهة معينة على نحو يتعارض مع القوانين والتشريعات. وقد اعتبر نفس الباحث «محاباة الأقارب» صورة من صور المحسوبية حيث يفضل متخذ القرار (المسئول) أفراد أسرته أو أقاربه على أسس ذاتية في مختلف مواقع السلطة بهدف تأمين السلطة وضمان الولاء له. وقد أورد الباحث نفسه أشكالا كثيرة للفساد وفق الكيفية التي يمارس بها ومنها الرشوة والمحسوبية والابتزاز والاختلاس والاحتيال كما عرض الانعكاسات السلبية للفساد اقتصاديا واجتماعيا.

وقد أوردت المنظمة الوطنية لمكافحة الفساد وحماية المال العام في اليمن (نسكو) ملخصا لتقرير «بارومتر الفساد العالمي» الذي أصدرته منظمة «الشفافية الدولية» ونشرته سنة 2009 بناءا على مسح شمل 73.132 شخصا في 69 بلدا في الفترة ما بين أكتوبر (تشرين الأول) 2008وحتى فبراير (تشرين الثاني) 2009 وكان أهم ما توصل إليه التقرير ما يلي:

أولا: الفساد في القطاع الخاص باعتباره مصدر قلق للرأي العام في العالم كله.

1. ينظر للقطاع الخاص بأنه فاسد من قبل 50% ممن جرى استفتاؤهم؛ وقد شكلت هذه

النسبة زيادة 8 نقاط مقارنة بنتائج الاستبيان الذي أجري قبل أربع سنوات.

2. إن الرأي العام قلق بسبب دور القطاع الخاص في صناعة القرار في بلدانهم. ويعتقد نصف المستجوبين أن الرشوة تستخدم لصياغة السياسات لصالح الشركات.

ثانيا: ينظر إلى الأحزاب والخدمة المدنية بأنها الأكثر فسادا في العالم.

1. يعتقد معظم المستفتين أن الأحزاب السياسية الأكثر فسادا من بين المؤسسات الوطنية وتليها الخدمات العامة.
2. لكن النتائج المركبة تحجب تباينات فيما بين البلدان حيث ترى الغالبية في 13 بلدا أن القطاع الخاص هو الأكثر فسادا فيما يرى الغالبية في 11 بلدا أن القضاء هو الأكثر فسادا.

ثالثا: تظهر الاستبيانات على امتداد العالم أن الرشاوى الصغيرة في ازدياد.

1. يذكر واحد من كل عشرة ممن جرى استفتاءهم أنهم دفعوا رشاوى خلال عام بنفس المستوى لعام 2005، كما ذكر أربعة من بين كل عشرة دفعوا رشاوى ممن جرى استفتاءهم أن ما دفعوه يقارب 10% من دخلهم السنوي.
2. أظهرت التجربة أن الرشاوى الصغيرة هي السائدة في المنطقة العربية (الشرق الأوسط وشمال إفريقيا) وفي البلدان الحديثة الاستقلال وبلدان جنوب الصحراء.
3. تدل الاستفتاءات أن منخفضي الدخل هم الأكثر عرضة لدفع الرشاوى أكثر من مرتفعي الدخل في معاملاتهم مع مختلف الأجهزة والمسئولين.

رابعا: لا يشعر الناس بالقوة للحديث عن الفساد.

1. لا يميل الناس إلى تقديم شكاوى حول الرشوة من خلال القنوات الرسمية حيث ذكر ثلاثة أرباع ممن دفعوا رشاوى وجرى استجوابهم أنهم لم يتقدموا بشكاوى رسمية.
2. يرى نصف من دفعوا رشاوى وجرى استفتاءهم عدم فاعلية آليات مكافحة الرشوة.

خامسا: يرى الغالبية أن إجراءات الحكومات لمكافحة الفساد غير فاعلة وهو نمط تفكير سائد لسنوات وفي معظم البلدان.

1. يرى غالبية المستفتين أن جهود حكوماتهم لمكافحة الفساد غير فاعلة؛ ففيما يرى 31% منهم أنها فاعلة فإن 56% منهم يرونها غير فاعلة.
2. لم يسجل تغير مهم في نظرة الناس في سنة 2009 لجهود حكوماتهم في مكافحة الرشوة مقارنة بعام 2007 [7].

وقد أفاد تقرير «منظمة الشفافية الدولية» الصادر في سنة 2009بأن قطر جاءت على رأس الدول العربية من حيث الشفافية (22)عالميا، تليها الإمارات (30)، والبحرين (46)، والسعودية (63) بينما احتلت مصر والجزائر المرتبة (111). وجاءت في ذيل القائمة كل من اليمن والعراق والسودان والصومال. أما على الصعيد العالمي فقد جاءت الدانمارك والسويد وسنغافورة وسويسرا في المراتب الأولى من حيث الشفافية المالية والإدارية. وهكذا نلاحظ بعض التحسن في «الشفافية» في إدارة الأموال والأعمال في بعض البلدان العربية بينما لا تزال معظم هذه البلدان في الرتب الأخيرة عالميا من حيث «الشفافية»، وفي المراتب الأولى من حيث مستوى «الفساد» في إدارة الأموال والأعمال.

7- من التفاصيل يمكن الرجوع لموقع : منظمة الشفافية الدولية :
http://www.transparency.org/

وقد دعت المنظمة العربية للتنمية الإدارية في مؤتمرها السنوي الذي عقدته بالقاهرة في سنة 2010 تحت عنوان «نحو إستراتيجية وطنية لمكافحة الفساد» بحضور ممثلين عن 19 دولة عربية إلى اعتماد برنامج وطني لحماية المجتمعات العربية من جرائم الفساد، كما طالبت المنظمة الدول العربية بإصدار التشريعات اللازمة لمكافحة الفساد وتعزيز سيادة القانون.

وقال رئيس المنظمة العربية لمكافحة الفساد عامر خياط إن المنطقة العربية سجلت إضاعة ألف مليار دولار، في عمليات فساد مالي وإهدار للأموال خلال النصف الثاني من القرن الماضي مما يمثل ثلث مجموع الدخل القومي للدول العربية [8].

ومما يعزز هذا القول، ما جاء أيضا في تقرير منظمة الشفافية الدولية عن مختلف أشكال الفساد الهيكلي في إدارة الأموال والأعمال في البلدان العربية. فقد أورد تقرير هذه المنظمة الصادر في سنة 2009 أنه وجد بحسب مسح أجري في 450 مؤسسة لبنانية سنة 2006 أن «الفساد» هو المعرقل الأساسي لمنع الاستثمار في لبنان. وذكرت 60 % من المؤسسات التي شملها المسح أن دفع رشاوى لمسئولين حكوميين «لتخليص معاملاتهم» قد شكلت 5 % من مجموع مبيعاتها. وقد قدرت المنظمة في تقريرها نفسه أن انعدام «الشفافية» في المشتريات والصفقات العمومية يكلف ما يعادل 0.5 من الدخل القومي في البلدان العربية. وأن تطبيق هذه النسبة على المغرب مثلا، سيوضح أن الخسارة تصل إلى حوالي3.6 مليار دولار أمريكي سنويا [9].

وبالنسبة لدراستنا الحالية، فإننا نهدف لفحص الفرضية التالية: توجد علاقة إيجابية بين طبيعة الشعور نحو «الواسطة» وتقبل «الفساد» من طرف الأفراد في إدارة الأموال والأعمال، أي أنه كلما كان الشعور نحو الواسطة إيجابي كلما كان تقبل الفساد عال.

أهداف الدراسة:

يتمثل الهدف العام من فحص هذه الفرضية هو لفت الانتباه للوجه السلبي للواسطة، ولارتباطها بالفساد في إدارة الأموال والأعمال، ولفت الانتباه أيضا نحو الأوجه السلبية للواسطة رغم بعض جوانبها الإيجابية الظاهرية، ورغم تلبسها بثوب «الشفاعة الإيجابية» أحيانا، وخدمة الأقارب والأصدقاء والإحسان إليهم والولاء لهم أحيانا أخرى. وفيما يأتي أهداف الدراسة الإمبريقية:

1. التعرف على العلاقة الموجودة بين «الواسطة» وتقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية التي شملها البحث الميداني.
2. استقصاء مدى تقبل الأفراد «للفساد» في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية التي شملها البحث الميداني.
3. التعرف على ممارسة الفساد في القطاعين: الحكومي والخاص بالبلدان العربية.

8- أخذ من موقع الجزيرة نت بتاريخ 8 يوليو2010.

9- Global Corruption Report 2009, P. 196.

أسئلة الدراسة:

1. هل توجد علاقة بين «الواسطة» و«الفساد» في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية؟
2. هل توجد فروق جوهرية في تقبل «الفساد» من طرف الأفراد في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية؟
3. ما هي العلاقة بين تقبل الفساد في إدارة المال والأعمال والمتغيرات الديمغرافية مثل السن والجنس ونوع القطاع الوظيفي (حكومي، شبه حكومي، وخاص) والمرتبة الإدارية في الهيكل التنظيمي للمؤسسة (موظف، مشرف ومدير) بالبدان العربية؟

عينة البحث:

جمعت البيانات في هذا البحث بطريقة قصدية من أربعة بلدان عربية وهي الجزائر والسودان والسعودية والكويت. وقد حرصنا أن تشتمل العينة على أفراد من شرائح وفئات المجتمع المختلفة، وأن تشتمل على الذكور والإناث.

وفيما يلي جدول يوضح حجم العينة المحصل عليها في كل بلد، وحجم العينة الاجمالية. وينبغي أن نشير أن هذه العينات غير ممثلة تمثيلا احصائيا صادقا للمجتمعات الأصلية التي سحبت منها. ولا يمكن بالتالي تعميم النتائج المحصل عليها على كل المجتمعات الأصلية التي شملتها هذه الدراسة الاستطلاعية إلا بتحفظ.

جدول رقم 1: عينات الدراسة وحجم العينة الكلية من أربعة بلدان عربية

البلد	حجم العينة	النسبة المئوية
الجزائر	99	22.8
السعودية	121	32.0
السودان	89	20.5
الكويت	108	24.8
المجموع	444	% 100

أدوات جمع البيانات

1. مقياس تقبل الفساد من طرف الأفراد في إدارة المال والأعمال:

لدراسة مدى تقبل أو رفض «الفساد» في إدارة المال والأعمال من طرف الأفراد المشاركين في هذا البحث، وكذلك دراسة العلاقة بين الواسطة وتقبل أو رفض الفساد في إدارة المال والأعمال استعملنا مؤشرا لقياس «الفساد» في إدارة المال والأعمال. وُضِع هذا المؤشر لقياس اتجاه الأفراد نحو تقبل أو رفض مختلف أشكال «الفساد» في إدارة المال والأعمال من طرف كل من ليونغ وليم في سنة 2009 (Leong and Lim, 2009). وقد تمت ترجمة فقرات المقياس للعربية ودراسة خصائصه السيكومترية (الثبات والصدق) والتأكد من دلالتها.

ويشتمل هذا المقياس على أربع عشرة فقرة والمطلوب الإجابة عنها وفق سلم ليكرت الخماسي الذي يتراوح ما بين موافق جدا=5 ومعارض جدا=1. وكلما كانت الدرجة الكلية التي يحصل عليها الشخص أعلى كلما دل ذلك على تقبل الفرد «للفساد» في «إدارة المال والأعمال». وفيما يلي أمثلة من فقرات هذا المقياس:

- لا يمكن تجنب الفساد في إدارة الأعمال
- مهم عند التعامل مع شريك في إدارة الأعمال إخبار السلطات إذا طلب رشوة
- إعطاء هدايا غالية لعملاء (زبائن) إدارة الأعمال وللشركاء شكل مقبول من الممارسة في بعض الأحيان

وفيما يتعلق بثبات المقياس فقد وجدنا أن ألفا كرونباخ تساوي في عينة الجزائر 0,71، وفي السعودية تساوي 0,67، وفي السودان تساوي 0,66 وفي الكويت تساوي 0,66. ويمكننا قبول هذه القيم إحصائيا خاصة في بحث استطلاعي حجم العينات الفرعية فيه غير كبيرة، وغير ممثلة تمثيلا صادقا للمجتمعات الأصلية.

ومن خلال قراءة فقرات المقياس يمكن أن نلاحظ أنها تتميز ب «الصدق الظاهري» حيث تدور كلها حول مختلف أساليب «الفساد» في إدارة المال والأعمال، وحول تجاوز المعايير الأخلاقية وعدم احترامها في إدارة الأعمال. ونلاحظ أيضا أن بعض الفقرات قد وضعت بصيغة ايجابية بينما وضع بعضها الآخر بصيغة سلبية وذلك لتفادي خطأ هالو (Hallo Error).

2. استبانة «سناريوهات» الشعور نحو الواسطة:

استعملت استبانة «السناريوهات» لدراسة الشعور نحو الواسطة. إن هذه الإستبانة تشتمل على خمسة عشر «سيناريوهات» تصور سلسلة من «الأحداث» التي يقوم فيها شخص معين بالتدخل في شكل استعمال «الواسطة» للحصول على نفوذ (خدمة أو امتياز لنفسه أو لغيره). وينبغي أن نشير إلى أن الأحداث أو «السيناريوهات» التي اشتملت عليها الاستبانة قد تضمنت أحداثا تمثل «الواسطة» وما شابهها في بلدان مختلفة. وقد وضعت هذه «الأحداث» التي تمثل استعمال «الواسطة» وممارستها من طرف عدة باحثين ينتمون لبلدان متباينة ثقافيا وهي: الجزائر، البرازيل، بريطانيا، سنغافورة وروسيا وذلك في بحث آخر عن «الواسطة» عبر الثقافات حيث وضع كل باحث من هذه البلدان مجموعة من «السيناريوهات» التي

تمثل عملية استعمال النفوذ أو الواسطة باللغة الخاصة بكل بلد ثم ترجمت إلى اللغة الانكليزية[10]. وفي الأخير، وضعت قائمة نهائية تشكلت من مجموع السناريوهات التي وضعها كل الباحثين المشاركين. وقد تضمنت القائمة النهائية خمسة عشر «سيناريو» تتضمن قيام شخص يحمل اسما مناسبا للبلد الذي يجرى فيه البحث الميداني بهدف تمويه المصدر الأصلي للحدث أو «السيناريو»، وقد رتبت قائمة «السيناريوهات" بطريقة عشوائية.

يطلب في كل «سيناريو» من الشخص المشارك في البحث أن يتخيل نفسه بأنه هو الذي يحاول الحصول على النفوذ (الواسطة). ويطلب منه أن يبين «كيف يشعر لو كان هو الشخص الموصوف في السيناريو»؟ وتتم الإجابة عن مشاعر الشخص المذكورة أدناه نحو «الأحداث» حسب سلم ليكرت الخماسي كما هو موضح فيما يلي:

سعيد=1 إلى غير سعيد=5 وفخور=1 إلى خجول=5

وغير مبرر=1 إلى مبرر=5 ومحرج=1 إلى غير محرج=5

وبعد ذلك، يسأل الشخص أن يقدر فيما إذا كان «السيناريو» سلوكا نموذجيا في بلده حسب سلم ليكرت الخماسي: نموذجي جدا=5 إلى ليس نموذجيا أبدا=1. ويطلب من الشخص أيضا أن يحدد إلى أي مدى يمثل كل «سيناريو» عملية استعمال النفوذ وذلك حسب سلم ليكرت الخماسي حيث نعم بالتأكيد=5، ليس متأكدا=3، ليس بالتأكيد=1

وينبغي أن نلاحظ أن الاستبيان قد أشتمل أيضا على معطيات ديمغرافية مثل الجنس (النوع) والسن ونوع الوظيفي (حكومي، شبه حكومي وخاص) كما اشتمل على مختلف المناصب في الهيكل التنظيمي للمؤسسات (موظف، مشرف ومدير). وفيما يلي مثال على هذه السيناريوهات التي شملتها أستبانة الواسطة :

- سامي متخرج حديثا من جامعة محلية. هاتف خاله من أجل الحصول على وظيفة في شركة بيع بالتجزئة دون المرور بإجراءات التوظيف في تلك الشركة. اتصل خاله، وهو مدير عام في شركة أخرى كبيرة، بمدير الموارد البشرية في شركة البيع بالتجزئة وطلب منه توظيف ابن أخته. وفعلا، وبعد أسبوع حصل سامي على الوظيفة دون المرور بأي إجراء من إجراءات التوظيف.

لو كنت سامي، كيف تشعر وأنت تقوم بهذا؟						
سعيد	5	4	3	2	1	غير سعيد
مبرر	5	4	3	2	1	غير مبرر
غير محرج	5	4	3	2	1	محرج
خجول	5	4	3	2	1	فخور
كيف يمكن أن تقول بأن أحداثا مثل هذه هي نموذجية في بلدك؟						
نموذجية جدا	5	4	3	2	1	ليست نموذجية أبدا

10- How distinctive are indigenous ways of achieving influence in business organizations? A comparative study of *Guanxi*, *Wasta*, *Jeitinho*, *Svyazi* and "Pulling Strings". By Smith, P.; Torres, C.; Leaong, H. C.; Budhwar, P.; Achoui, M.; Lebedeva, N. Submitted to: The International Journal of Human Resources Management in 2010.

وقد بين التحليل العاملي لفقرات الاستبيان أنها تتمحور حول عامل واحد وهو استعمال «النفوذ»، كما تبين أن فقرات الاستبيان تتميز بالثبات حيث كانت قيمة ألفا تساوي 0,66 في عينة السعودية وأكثر من 0,70 في العينات الأخرى التي جمعت من البلدان المشار إليها أعلاه. مما يدل على تمثيل «السيناريوهات» الموجودة في الإستبانة للواسطة في البلدان العربية التي شملها البحث ، ويعطي مصداقية لهذه الأداة.

تحليل النتائج

1. ما هي الخصائص الديمغرافية للعينة؟

تميزت العينة الاجمالية لهذه الدراسة بعدة خصائص ديمغرافية نوجزها فيما يلي :

- **الجنس (النوع):**

لم تتجاوز نسبة الإناث المشاركات في هذه الدراسة نسبة 23,4 %بينما كانت نسبة الذكور 76,6%.

- **السن:**

تراوحت أعمار أغلب المشاركين في هذه الدراسة ما بين 22سنة و 62 سنة بتوزيع شبه طبيعي لمختلف الأعمار.

- **سنوات الخبرة**

تراوحت سنوات الخبرة لدى المشاركين في الدراسة ما بين صفر بنسبة % 5,3و 30 سنة بنسبة 3,3%.

- **طبيعة الشغل:**

ونقصد به نوع الوظيفية هل هي عمل كلي أو جزئي حيث بلغت نسبة المشتغلين في وظيفة لوقت كامل أو كلي نسبة 70% بينما بلغت نسبة المشتغلين في العمل الجزئي 30%.

- **نوع القطاع:**

بلغت نسبة المستغلين في القطاع الحكومي نسبة 45,3، وفي القطاع شبه الحكومي نسبة 10,9 % وفي القطاع الخاص نسبة 43,8%.

- **المرتبة الإدارية:**

ونقصد به مواقع المشاركين في الهيكل التنظيمي (هرم السلطة) للمؤسسة التي يشتغلون فيها. وقد كان توزيع المشاركين في هذه الدراسة حسب هذا المتغير حسب النسب التالية:

- موظف بنسبة 26,1%
- مشرف بنسبة 21,8%
- مدير متوسط 37%
- مدير تنفيذي (عال) بنسبة 15.2%

2. هل هناك فروق في تقبل «الفساد» في إدارة الأعمال بالبلدان العربية؟

يتضح من الجدول رقم 2 أن درجة تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال من طرف الأفراد في البلدان العربية المشاركة في البحث تميل لأن تكون تحت المتوسط النظري(2,5)

للمقياس المستعمل بقليل، حيث إن المتوسط العام لمجموع الأفراد المشاركين في البحث من البلدان العربية المختلفة يساوي 2,36.

جدول رقم 2: درجات تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال في البلدان العربية المشاركة في البحث

البلد	المتوسط	الانحراف المعياري
الجزائر	2.2635	.53434
السعودية	2.5013	.51009
السودان	2.1823	.46355
الكويت	2.4489	.59771
المجموع	**2.3691**	**.54365**

ويتضح أيضا أن هذه الدرجة أعلى ما تكون في السعودية (2,50) وتليها الكويت (2,44) فالجزائر (2,26) ثم السودان (2,18). وقد بين تحليل التباين أن الفروق بين البلدان العربية في درجة تقبل «الفساد» فروق جوهرية حيث ف=8,59 وهي دالة عند 0,01. وتبين نتائج اختبار شيفيه أن الفروق بين الجزائر والسعودية دالة عند 0,05 لصالح الجزائر(أي أن درجة تقبل الفساد في الجزائر هي أقل من درجة التقبل في السعودية)، وأن الفروق بين السودان والسعودية دالة عند 0,01 لصالح السودان، وأن الفروق بين السودان والكويت دالة عند 0,01 لصالح السودان، وأنه لا توجد فروق جوهرية بين الجزائر والسودان، وبين السعودية والكويت في درجة تقبل «الفساد» من طرف الأفراد في إدارة المال والأعمال.

3. هل توجد علاقة بين طبيعة الشعور العام نحو الواسطة و تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية؟

بيّن معامل الارتباط بيرسون أن هناك علاقة قوية موجبة بين طبيعة الشعور العام نحو الواسطة وتقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال حيث (ر=0.16) وهي دالة عند 0,01؛ أي أن الأشخاص الذين لديهم اتجاه أو شعور إيجابي نحو ممارسة الواسطة يتقبلون ممارسة «الفساد» في إدارة المال والأعمال أكثر من الذين لديهم شعور سلبي نحو ممارسة «الواسطة». ويمكن أن تفسر هذه النتيجة بطريقة أخرى أي أن الأشخاص الذين لديهم تقبل للفساد يكون لديهم تقبل أكبر للواسطة. ولعل وجود مثل هذه العلاقة بين الشعور العام نحو الواسطة وتقبل الفساد في إدارة المال والأعمال يؤكد الاتجاه أو الشعور العام نحو كل من الفساد والواسطة وهو الاتجاه (الشعور) السلبي نحو هذين السلوكين كما أكدت ذلك معظم الدراسات السابقة وذلك بغض النظر عن اختلاف الثقافات وتباينها؛ وبغض النظر عن ممارسة هذا السلوك من عدم ممارسته.

ولكننا نلاحظ تباينا في العلاقة بين الاتجاه الإيجابي نحو «الواسطةر وتقبل «الفساد» في إدارة الأعمال بين الدول العربية المشاركة في هذا البحث على النحو التالي:

ر=0,13 في الجزائر؛ وهي غير دالة

ر=0,12 في السودان وهي غير دالة

ر=0,23 في السعودية وهي دالة عند 0,01

ر=-0,13 في الكويت وهي غير دالة

وقد تفسر العلاقة السلبية الملاحظة بين هذين المتغيرين في الكويت إلى أن عدد الإناث في عينة الكويت أكبر من عددهن في العينات الأخرى وإلى غياب الإناث تماما في عينة السعودية. ووجدنا إحصائيا علاقة إيجابية قوية بين الشعور الإيجابي نحو «الواسطة» وتقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال لدى الذكور حيث (ر=0,25) وهي دالة عند 0,01 بينما (ر=-0,07) لدى الإناث وهي غير دالة. ولعل وجود فروق بين الجنسين في هذه العلاقة راجع إلى أن الذكور الذين يشعرون شعورا إيجابيا نحو «الواسطة» يتقبلون «الفساد» في إدارة المال والأعمال أكثر لأنهم يستفيدون ماديا من عملية تقبل «الفساد». وقد ترجع الفروق إلى سيطرة الذكور على مجال إدارة المال والأعمال إلى حد كبير مما يجعلهم أكثر عرضة لأشكال «الفساد» المختلفة وضغوطها من الإناث وبالتالي أكثر استعدادا لتقبلها.

أما فيما يخص العلاقة بين مدى تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال ومدى اعتبار أحداث الواسطة «السيناريوهات» نمطية في البلدان العربية المشاركة في البحث فإن النتائج تشير إلى وجود معامل ارتباط سلبي لكنه غير قوي (ر=-0,09)؛ حيث أنه لا يمكننا أن نؤكد بثقة عالية بأن الأشخاص الذين يعتبرون «الواسطة» سلوكا «نمطيا» في بلدانهم يكونون بالضرورة أكثر معارضة للفساد في إدارة المال والأعمال من الأشخاص الذين لا يعتبرون «الواسطة» سلوكا نمطيا في بلدانهم.

والملاحظ أنه لا توجد فروق جوهرية بين الذكور والإناث في موضوع تقبل «الفساد» من طرف الأفراد في إدارة المال والأعمال في البلدان العربية التي شملها البحث. لكن نتائج تحليل التباين تشير إلى وجود فروق ذات دلالة إحصائية ولو بصورة بسيطة في موضوع تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال حسب السن حيث ف=1,40 وهي دالة عند0,05 فقط. وبإجراء معامل ارتباط بيرسون تبين أن هناك علاقة سلبية بين السن وتقبل «الفساد» من طرف الأفراد في إدارة المال الأعمال حيث ر=-0,20 وهي دالة عند 0,01. وتدل هذه النتيجة على تقبل الشباب للفساد في إدارة المال والأعمال أكثر من كبار السن؛ الأمر الذي يستدعي فحص مثل هذه الفرضية لأهميتها في دراسات لاحقة بنوع من التدقيق.

وبدراسة الارتباط الجزئي بين الشعور نحو «الواسطة» وتقبل «الفساد» بتثبيت متغيرات الجنس والسن ونوع القطاع الوظيفي (حكومي، نصف حكومي وخاص) وجدنا علاقة ارتباط موجبة بين المتغيرين حيث(ر=0,20) وهي دالة عند 0,01. وبإجراء معامل ارتباط جزئي بين الشعور الإيجابي نحو الواسطة وتقبل الفساد في إدارة الأعمال مع تثبيت متغير «البلد»، وجدنا علاقة موجبة طردية بين المتغيرين حيث (ر=0,17) وهي دالة عند مستوى 0,01.

وتبدو هذه النتيجة منطقية؛ أي أن الأفراد الذين لديهم شعور إيجابي نحو الواسطة يميلون أكثر لتقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال من الأشخاص الذين لديهم شعور سلبي نحو الواسطة. واتضح من تحليل البيانات أيضا أن الأفراد الذين يرون ممارسة «الواسطة» سلوكا نمطيا في بلدانهم يتشكل لديهم اتجاه سلبي نحو تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال؛ أي أنهم ضد ممارسة «الفساد» في إدارة المال والأعمال.

4. تقبل «الفساد» حسب القطاع

نلاحظ أن متوسط تقبل «الفساد» في القطاع الحكومي يساوي 2,23 بانحراف معياري قدره 0,55 بينما متوسط تقبل الفساد في القطاع الخاص يساوي 2,49 بانحراف معياري قدره

0,54. وقد بين تحليل التباين وجود فروق جوهرية بين القطاعين ف=10,49 وهي دالة عند 0,01. وقد بين اختبار شيفيه أن الفروق بين القطاع الحكومي والقطاع الخاص دالة عند 0,01، بينما لا توجد فروق دالة إحصائيا بين القطاع الحكومي وشبه الحكومي من جهة، وبين القطاع الخاص والقطاع شبه الحكومي من جهة أخرى.

ووفق النتائج المحصل عليها، فإن تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال من طرف الأفراد أعلى في القطاع الخاص مما هو عليه الأمر في القطاع الحكومي مما يستدعي فحص هذه العلاقة في دراسة مستقلة من أجل التعمق في هذه النتيجة. وقد وجدنا معامل الارتباط سلبيا بين نوع الوظيفة وموقعها في الهيكل التنظيمي أي هرم السلطة وتقبل «الفساد» في إدارة الأعمال حيث (ر=-0,10) وهي دالة عند 0,05؛ أي أن الأفراد ذوي المناصب العليا أكثر تقبلا للفساد في إدارة المال والأعمال من الموظفين العاديين مما يساير الفكرة المنتشرة والإعتقاد الاجتماعي بأن «الفساد» يستشري في قمة الهرم قبل أن يستشري في أسفله. وتجدر الإشارة إلى أن الفساد في قمة الهرم هو أشد وأخطر أنواع الفساد لأنه يكون مرتبط بمراكز النفوذ والسلطة والقوة.

مناقشة النتائج

نلاحظ أن متوسطات تقبل «الفساد» لدى الأفراد في إدارة الأموال والأعمال تقع تحت المتوسط النظري حسب مقياس الفساد المعتمد في هذا البحث. إن إتجاه هذه النتيجة لا تتماشى مع الدراسات السابقة ومع تقارير منظمة «الشفافية الدولية» التي تشير إلى تفشي واسع لـ «الفساد» المالي والإداري في البلدان العربية. وقد تفسر هذه النتيجة بصعوبة تقبل «الفساد» من طرف الأفراد علنا في المجتمعات العربية خاصة إذا عرفنا أن حفظ «ماء الوجه» من القيم الأساسية في الثقافة العربية. كما أنها قد ترجع كذلك إلى طبيعة العينات التي حصلنا عليها باعتبارها عينات قصدية غير ممثلة للمجتمعات الأصلية، وغير ممثلة للجنسين بطريقة متوازنة.

أما علاقة الارتباط الموجبة بين الشعور الإيجابي نحو «الواسطة» وتقبل «الفساد»» في إدارة المال والأعمال وخاصة من طرف الأفراد الذكور المشاركين في البحث فتدل على اعتبار «الواسطة» في البلدان العربية بصورها المختلفة صورة من صور «الفساد» في إدارة المال والأعمال؛ حيث تفتح ممارستها الباب واسعا لاستعمال الرشوة وتدخل المحاباة والمحسوبية وتبادل المصالح الشخصية كوسائط ووسائل لإدارة المال والأعمال بدلا من تحكيم المعايير الموضوعية في التقويم واتخاذ القرارات بصفة عامة.

أما عدم وجود فروق جوهرية بين الذكور والإناث في موضوع تقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال في البلدان العربية التي شملها البحث فقد يعزى افتراضا إلى عدم تمثيل الإناث تمثيلا جيدا في العينة الإجمالية حيث لم تتجاوز نسبة الإناث المشاركات في هذه الدراسة نسبة 23,4% بينما بلغت نسبة الذكور 76,6%، كما أن العينة السعودية مكونة من الذكور فقط.

وبالنسبة لتقبل «الفساد» في إدارة المال والأعمال من طرف الأفراد في القطاع الخاص بنسبة أعلى مما هو عليه الأمر في القطاع الحكومي، فإن هذه النتيجة تتماشى مع ما قد أشارت إليه منظمة «الشفافية الدولية» في تقريرها السنوي في عام 2009 عندما أشارت إلى تفشي الفساد

في البلدان الصناعية؛ إذ أن ممارسات الفساد من رشوة وسواها عادة ما تنتشر في الشركات الدولية الكبرى. وأشارت كذلك إلى أن أصحاب رؤوس أموال مشبوهة عادة ما يبيضونها ثم يهربونها إلى بلدان غنية بهدف توطينها هناك. وقد لاحظت المنظمة أنه تم كشف ما بين 1990 و2005 عن تورط أكثر من 283 شركة دولية كبرى تمارس الفساد، مما كلف دافعي الضرائب نحو 300 مليار دولار. وأضافت المنظمة أن مستوى الفساد في القطاع الخاص عال جدا، وأنه ليس من غير العادة أن تجد شركات محلية وعالمية تدفع رشاوى للحصول على عقود، وأن الشركات القوية تمارس ضغوطا غير مناسبة على مختلف المؤسسات بل والتأثير في القوانين أيضا بهدف تأمين شروط استثمار إيجابية.

وبصفة عامة، فإن استعمال «الواسطة» في إدارة المال والأعمال يؤدي إلى مفاسد كثيرة وخاصة في إدارة الموارد البشرية وتوظيفها في برامج وخطط التنمية التي تصرف عليها أموال كبيرة جدا مما يؤدي مثلا إلى إبعاد الكفاءات ووضع غير المؤهلين في مراكز قيادية وهامة، كما يؤدي ذلك إلى وضع عراقيل كبيرة أمام المبادرات والمشاريع التي لا تعتمد على الواسطة.

ولعل صعوبة التعامل مع العراقيل البيروقراطية وذهنيتها المتجمدة وسلطتها المتحيزة، وتفشي ممارسة «الواسطة» كآلية لتزييت هذه الآلة المهترئة والصدئة هو الذي أدى إلى سلبيات كثيرة في إدارة المال والأعمال بالبلدان العربية من أهمها :

- عزوف كثير من المستثمرين عن الاستثمار في بيئة مثل هذه سواء كان هؤلاء المستثمرون وطنيين أم أجانب.

- إصابة الشباب بصفة عامة وأصحاب المبادرات والأفكار الإبداعية بصفة خاصة بالإحباط والتفكير في الهروب إلى الخارج بحثا عن فرص عمل وفرص نجاح دون الحاجة لاستعمال «الواسطة». ويكفينا في هذا المجال أن نشير إلى كثرة تداول مفردة «الهجرة» إلى الخارج والرغبة الملحة في ذلك بين شباب البلدان العربية كدليل على هذا الإحباط وما يرتبط به من سلوك سلبي. ومن أبرز أشكال هذا السلوك السلبي لجوء بعض الشباب لاستعمال طرق غير شرعية للهجرة للخارج مما يعرضهم لأخطار مختلفة وخطيرة.

ولا يخفى أيضا أن «الواسطة» قد أصبحت في معظم الأحيان الوجه الظاهري لظواهر خفية وهي ممارسة أشكال «الفساد» المختلفة في إدارة المال والأعمال، وفي إنجاز المعاملات كالرشوة والمحاباة والمحسوبية وتبادل المصالح الشخصية والتهرب من دفع الضرائب وتطبيق القوانين ولو على حساب المصلحة العامة للدولة وللمجتمع ككل.

المراجع باللغة العربية

1. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (1980). لسان العرب. دار المعارف، القاهرة.
2. الوصال، كمال أمين (2009). الفساد : دراسة في الأسباب والآثار الاقتصادية. عالم الفكر، مجلد 38، عدد 2، الكويت.
3. بيير لاكوم (2003). الفساد. ترجمة سوزان خليل. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية بالتعاون مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون- مصر.
4. جلال عبد الله معوض(1987) . الفساد السياسي في الدول النامية. دراسات عربية، العدد 4.

5. سكجها، باسم والكيلاني، ساندة (2002) الواسطة في الأردن: السر المعلن. مؤسسة الأرشيف العربي، عمان، الأردن.

6. مجموعة باحثين (2010). مؤشر الفساد في الأقطار العربية: إشكالية القياس والمنهجية، ط. 1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

7. المنظمة العربية للعلوم الإدارية (2010). نحو استراتيجة وطنية لمكافحة الفساد، المؤتمر السنوي الحادي عشر، القاهرة، 5 يوليو، 2010.

8. المنظمة الوطنية لمكافحة الفساد وحماية المال العام (نسكو). (2009) التقرير السنوي للشفافية الدولية: بارومتر الفساد العالمي، نشر بتاريخ 18 أغسطس 2009. أخذ الموضوع من موقع المنظمة أدناه بتاريخ 08 يوليو 2010.

http://www.nscoyemen.com/index .php

المراجع باللغات الأجنبية

9. Ali, A.J. and Ali Al-Kazemi, A. (2006), HRM in Kuwait, in Managing Human Resources in the Middle East, eds. P.S. Budhwar and K. Mellahi, London: Routledge, 79-96.

10. Blunt, P. and Jones, M. L. (1992). Managing organisations in Africa, Wa - ter de Gryter and Co.

11. Branine, M. (2006). Human resource management in Algeria, in Human Resources in Developing Countries, eds. P.S. Budhwar and Y. A. Debrah. London: Routledge, 155-173.

12. Elamin A. M. (2006). Implications of personal networks (Ala'aqat) in the African context: the case of strategy formation in two major Sudanese e - terprises. The International Journal of Applied Management and Tec - nology, 4,. 1, 125-137.

13. Greenberg, J. and Baron, A. R. (2007). Behavior in organizations, Prentice Hall; 9 edition.

14. Brian Whitaker, B. (2009). What's Really Wrong with the Middle East. Saqi Books.

15. El-Said, H., & McDonald, F. (2001). Institutions and joint ventures in the Middle East and North Africa. In H. El-Said & K. Becker (Eds.) Manag - ment and international business issues in Jordan (pp. 65-83). Bingha - ton, NY: Haworth.

16. Hutchings, K. and Weir, D. (2006). Understanding Networking in China and the Arab World, Journal of European Industrial Training, 30: 272-90.

17. Lascoumes, P. (1997). Elites irrégulières, essai sur la délinquance d'affaires, Paris - Gallimard

18. Leong, C-H., & Lin, W. (2010). Show me the money: Construct and pr -

dictive validity of the Intercultural Business Corruptibility Scale. In C-H. Leong & J.W. Berry (Eds.) Intercultural relations in Asia: Migration and work effectiveness (pp. 151-176). Singapore: World Scientific

19. Mellahi, K. and Wood, G. T. (2003), From Kinship to Trust: Changing R - cruitment Practices in Unstable Political Contexts, International Journal of Cross-Cultural Management, 3: 369-81.

20. Mény, Y. (1997). La corruption dans la vie publique, problèmes politiques et sociaux. La Documentation française.

21. Nnadozie, E. (2001). Managing African business culture in Felix M. Ed - ho, eds., Management Challenges for Africa in the twenty-first Century, Praeger Publishers, Westport.

22. Smith, P.; Torres, C.; Leaong, H. C.; Budhwar, P.; Achoui, M.; Lebedeva, N. (2010): How distinctive are indigenous ways of achieving influence in business organizations? A comparative study of Guanxi, Wasta, Jeitinho, Svyazi and "Pulling Strings". Submitted to: The International Journal of Human Resources Management.

23. Transparency International (2009). The Global Corruption Report 2009. Cambridge University Press. Cambridge, UK. Retrieved in 12/07/2010

24. Yahiaoui, D. and Zoubir, Y. H. (2006), HRM in Tunisia, in Managing Human Resources in the Middle East, eds. P. S. Budhwar and K. Mellahi, London: Routledge, 233-49.

نحو مقاربة جديدة لتاريخ العرب الحديث: مناقشة مفاهيم وعرض تصورات[1]

أ.د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الكويت

ملخص:

تقترح هذه الدراسة إطارا منهجيا لتجديد الرؤية لدراسة التاريخ العربي الحديث في مختلف أبعاده، من حيث الوقوف على جوانب التفرد والخصوصية فيه، وتوضيح أهم المفاهيم والأحكام التي رسمت معالم صورته النمطية في ثقافتنا التاريخية، وتحديد معالم الفترة الزمنية التي ارتبط بها وطبيعة المواضيع التي يطرحها ومضمون الكتابات التاريخية المتعلقة به، وأخيرا التنبيه إلى القضايا والمواقف التي يجب إعادة النظر فيها أو تصحيحها لتطوير الثقافة التاريخية العربية عموما والدراسة العلمية الأكاديمية للتاريخ العربي خصوصا.

وينطلق هذا المسعى من الحاجة الملحة لفهم موضوعي ونظرة واقعية للتاريخ العربي الحديث تعبر بصدق عن واقع ثقافة المجتمعات العربية، وتنطلق من الذاكرة التاريخية للفرد العربي، وتتخلص من الصور النمطية التي فرضتها هيمنة النظرة الأوربية المركزية من جهة، والخطاب الإيديولوجي والعاطفي من جهة أخرى، وهذا ما لا يمكن تحقيقه إلا بالارتقاء بالدراسات التاريخية العربية إلى مستوى علمي وتفاعل فكري يؤهلها لفرض ذاتها وتقديم البديل.

الكلمات الدالة: التاريخ، العرب، المفاهيم، التناول.

مقدمة

إن قارئ التاريخ العربي الحديث أو مستقرئه أو المتتبع لأحداثه وقضاياه غالبا ما تستوقفه العديد من التساؤلات وتطرح عليه الكثير من الاستفسارات، بعضها يتعلق بالحقبة الزمنية والرقعة الجغرافية، وبعضها الآخر يتصل بطبيعة الأحداث والتطورات وما تعبر عنه من مفاهيم وأفكار، مما يحول دون تكوين فكرة متكاملة وصورة واضحة المعالم عن تاريخ العرب الحديث. وهذا ما شجعنا على إثارة ومناقشة بعض هذه التساؤلات والاستفسارات في هذا العرض، مع تأكيدنا على أن هذه المقاربة ليس القصد منها تقديم تصورات جديدة وإيجاد حلول مبتكرة، وإنما الهدف منها إثارة الاهتمام والتشجيع على تبادل الرأي حول تجديد الرؤية وتحديد الهدف من دراسة التاريخ العربي الحديث في مختلف جوانبه النوعية وجميع مستوياته التعليمية. هذا وحتى يمكن تحديد أبعاد هذه المقاربة ومناقشة القضايا المتعلقة بها، فإننا نجمل الإشكالية المتعلقة بدراسة تاريخ العرب الحديث في التساؤلات التالية:

1- قدمت الخطوط الرئيسية لهذا المقال في لقاء علمي بسيمينار قسم التاريخ – جامعة الكويت بتاريخ 2004/12/21، ونظرا للنقاش الذي أثاره ارتأينا استكمال جوانبه ونشره لتتم الفائدة.

- ما هي خصوصية الفترة الحديثة من تاريخ العرب ؟
- وما هي نوعية المفاهيم والأحكام التي رسمت معالم صورته النمطية في ثقافتنا التاريخية ؟
- وما هي أبعاد الفترة الزمنية التي يتناولها وطبيعة المواضيع التي يطرحها ؟
- وما هي القضايا والمواقف التي يجب إعادة النظر فيها أو تصحيحها ؟

وما دامت الإجابة عن هذه الأسئلة المتعلقة بإشكالية فهمنا وموقفنا ونظرتنا وتقييمنا للتاريخ العربي الحديث متعذرة في حدود هذا العرض، وذلك لتعدد الآراء واختلاف القناعات وتباين المشارب حول المفاهيم والأحكام والمواقف من قضايا التاريخ العربي الحديث والتي أصبح جلها بفعل التكرار من قبيل الحقائق المسلم بها والتي لا يمكن طرحها للنقاش أو إخضاعها للنقد دون تشنج أو رد فعل عنيف.

ونظرا لكل ذلك فإننا نحاول عرض الأسئلة المتعلقة بإشكالية فهم ومعالجة التاريخ العربي الحديث عرضا موضوعيا محايدا دون إطالة قد تسبب ملل القارئ، ودون إجمال قد يعيب المضمون، ما دام هدفنا من كل المسائل التي نعرض لها هو الدعوة إلى تحديد الرؤية ورسم إطار أولي لتاريخ عربي متكامل يقوم على فهم موضوعي ونظرة واقعية تعبر بصدق عن واقع ثقافة المجتمعات العربية وتنطلق من الذاكرة التاريخية للفرد العربي، هذه الذاكرة التي لا زالت تختزن هذا التاريخ وتتفاعل مع أحداثه وتتأثر بتداعياته؛ وهذا ما يتطلب تضافر الجهود وتكامل الدراسات والتواصل بين المهتمين بقضايا التاريخ العربي الحديث، والعمل على تحوير ما يتلقاه طلبة الثانوي وما يدرسه الطلاب الجامعيون وما يعرض على جمهور القراء، لأن إعادة قراءة التاريخ العربي وخاصة الفترة الحديثة منه تشكل متطلبا لإعادة بناء الذات العربية ومقدمة لتغيير ذهنية متحجرة ظلت لفترة طويلة تؤكد عجزنا وتكرس قصورنا وتحول دون فهمنا لمعطيات واقعنا أو التعامل الإيجابي مع متطلبات عصرنا.

أولا: خصوصية الفترة الحديثة من تاريخ العرب

قد يتساءل قارئ التاريخ العربي عن خصوصية الفترة الحديثة ومكانتها من سياق التاريخ العربي العام ومدى أهميتها وجدوى دراسة أحداثها والاهتمام بقضاياها، ما دامت العصور التاريخية بالنسبة للذاكرة التاريخية للشعوب العربية متكاملة ومترابطة، وأن عصر الازدهار والإسهام الحضاري للعرب يرتبط بالعهود الإسلامية وليس بالفترة الحديثة التي اعتدنا أن نعلق عليها مشاكلنا أو نرجع إليها لنبرر قصورنا بحجة الانغلاق العثماني والهيمنة الأوربية.

على أن النظرة المتفحصة لأحداث التاريخ العربي والفهم الواعي للتطورات التي عاشتها الشعوب العربية، تظهر لنا أن الفترة الحديثة من تاريخ العرب تعتبر بكل المعايير مرحلة انتقال من ماض مجيد نعتز به وواقع متأزم نعيشه ونتأثر بأحداثه، مما يجعل أحداث هذه الفترة حاضرة في واقعنا وانعكاساتها ماثلة في ذاكرتنا. فهي بحق المعبر التاريخي الذي تشكلت أثناءه مكونات المجتمعات العربية وتحددت فيه معالم الكيانات السياسية في البلاد العربية، وعبرها تحددت معطيات التاريخ العربي ورسمت صورة حاضره ومعالم مستقبله.

إن تعاملنا مع التاريخ العربي انطلاقا من واقعنا اليوم ورصد مؤشرات صيرورته وتلمس

جوانب التكامل والتضاد في أحداثه مرتبطة أساسا بدراسة الفترة الحديثة من تاريخ الشعوب العربية، هذه الفترة التي نعتبرها فترة حاسمة ومفصلا أساسيا وحيزا حيويا في الذاكرة التاريخية للشعوب العربية، وذلك للخصائص التي عرفت بها والمميزات التي اتصفت بها، والتي يمكن أن نتعرف على أهم جوانبها في النقاط التالية:

1. لقد ارتبطت بدايات الفترة الحديثة من تاريخ العرب (القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي) بانقلاب خطير في موازين القوى العالمية، تحددت معالمه في صراع دولي بين قوة العثمانيين المتصاعدة واندفاع الأوربيين نحو أقاليم ما وراء البحار. فكانت البلاد العربية بمشرقها ومغربها طرفا رئيسيا في هذا النزاع العالمي[2]، فقد واجهت الشعوب العربية بفعل ضعف الدول الإقليمية في المغرب العربي (المرينيون والزيانيون والحفصيون)، وتراجع دولة المماليك بمصر والشام والحجاز، خطر التوسع الإيبيري (الإسباني-البرتغالي) الذي أنهى الوجود الإسلامي بالأندلس مع سقوط غرناطة (898 هـ/1492م) وتبنى سياسة توسعية ذات نزعة صليبية تقوم على فكرة الاسترجاع المسيحي وإخضاع الشعوب الإسلامية واستغلالها، فتعرضت سواحل بلاد المغرب العربي للهجمات الإسبانية والبرتغالية وفي اجتياح المد البرتغالي سواحل المغرب الأقصى وفرض نفوذه على سواحل الجزيرة العربية، قبل أن يزيحه العثمانيون ويبسطوا سلطتهم على البلاد العربية من حدود الجزائر الغربية إلى تخوم العراق الشرقية[3].

أما على المستوى الإقليمي فقد سلم العثمانيون في صراعهم مع الإسبان بوضع المغرب الأقصى كمنطقة حاجزة، فظل محتفظا باستقلاله تحت حكم الأسرة السعدية ثم الأسرة العلوية، في الوقت الذي حرص فيه السلاطين العثمانيون على إلحاق بلاد الرافدين بدولتهم مما أبعد عنها مخاطر النفوذ الصفوي بإيران الذي كان يحمل مشروعا مذهبيا ذا نزعة قومية توسعية[4].

2. عرفت نهاية الفترة الحديثة من تاريخ العرب الهيمنة الغربية والنفوذ الأوربي الذي تحول مع ضعف الدولة العثمانية من مجرد حقوق ممارسة تجارية وامتيازات في المعاملة الدبلوماسية في عهد سليمان القانوني وفرانسوا الأول (1535م)، إلى نفوذ سياسي وهيمنة اقتصادية وضغط عسكري، قبل أن يستفحل الاضطراب السياسي والركود الاجتماعي والانكماش الاقتصادي في الدولة العثمانية وتصبح محل نزاع بين الدول الأوربية لاقتسامها والاستيلاء على ولاياتها الأوربية منها والعربية.

وهذا ما مكن فرنسا من بسط سلطتها على الجزائر (1830م) وتونس (1881م)، وفرض انتدابها أخيرا على كل من سوريا ولبنان (1921م)، وسمح لبريطانيا بفرض هيمنتها على مصر (1881م) ثم السودان، وتأكيد نفوذها بمنطقة الخليج وجنوب الجزيرة العربية (اليمن

2-للتعرف أكثر على هذا النزاع العالمي، أنظر:
- أحمد عبد الرحيم مصطفى، (1986). في أصول التاريخ العثماني، ط. 2، بيروت، دار الشروق.
- هيس س. آندرو،(1986). افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، الكويت.
- Von Hammer Purgstall, J. (1844). *Histoire de l'Empire Ottoman*, Trad. J. J. Hellert, 18 Vols., Paris.
- Braudel, F. (1988). *La Méditerranée à l'époque de Philippe II*, 8ème Éd., Paris, (2 Vols.).

3-تناولت العديد من المؤلفات الفتح العثماني للبلاد العربية، نذكر منها:
- أوزتانا يلماز، (1988). تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، إستانبول، منشورات مؤسسة فيصل، المجلد الأول.
- نيقولاي إيفانوف، (1988). الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574 م)، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت.

4-ليلى الصباغ، (1973). المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية.

وحضرموت)، قبل أن تكمل سيطرتها على المشرق العربي بإعلان انتدابها على فلسطين وشرق الأردن والعراق (1921 م). وبذلك خضعت البلاد العربية للهيمنة الأوربية، ففقدت مجتمعاتها تواصلها وتكرست تجزئتها السياسية وتأخرها الاقتصادي.

3. عرفت المجتمعات العربية في الفترة الحديثة أسلوبين مختلفين وطريقتين متباينتين من حيث طبيعة الحكم العثماني ونوعية الروابط بين الولايات العربية ومركز الدولة العثمانية (إستانبول)، فخضعت البلاد العربية في مجملها في الفترة الأولى من العهد العثماني (القرنان العاشر والحادي عشر للهجرة/السادس عشر والسابع عشر للميلاد) لحكم عثماني مباشر لم يحاول المساس بمقومات الشعوب العربية الحضارية ولم يؤثر على بنائها الاجتماعي وخصوصيتها الثقافية، بل حرص على إبقائها بعيدة عن الانشقاقات المذهبية والنزاعات الطائفية والحركات المتطرفة، فظلت بنيتها الاجتماعية وذهنيتها الثقافية متماسكة، وهذا ما أشاع جوا من التسامح والتعايش بين مختلف الملل والأديان والقوميات، فكان الحكم العثماني بمواصفات تلك الفترة نموذجا موفقا حافظ على انسجام وترابط الشعوب العربية في إطار الرابطة العثمانية ممثلة في السلطة المطلقة للسلطان العثماني.

أما الفترة المتأخرة من العهد العثماني (القرنان الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد) فقد عرفت خلالها أغلب الأقطار العربية حكما عثمانيا غير مباشر في إطار سلطة الحكام المحليين[5]، كان نتيجة تطور داخلي سمح بتبلور التقاليد والثقافة المحلية للأقطار العربية وأدى إلى تمايز كياناتها السياسية التي كانت أساس الدول القطرية في البلاد العربية، فتحولت بذلك التنظيمات الإدارية العثمانية إلى أنظمة حكم محلي، وهذا ما سمح للكيانات المحلية أن تنظم شؤونها بنفسها دون انتظار تعليمات السلطان وتدخل السلطة العثمانية المركزية، وساعد على مواجهة الأوضاع الاقتصادية المتأزمة والتصدي للعلاقات الاجتماعية المضطربة والضغوط الخارجية المتزايدة.

وبهذا كان الحكم العثماني غير المباشر حلا ملائما لحالة الدولة العثمانية ولواقع البلاد العربية إذا استثنينا منطقة الهلال الخصيب، إذ أبقى على الرابطة العثمانية وأكد الخصوصية القطرية للولايات العثمانية وأخر تفكك ما بقي من ولايات الدولة العثمانية، قبل أن تصفى تركتها في الحرب العالمية الأولى.

4. شهدت الفترة الحديثة من تاريخ العرب العديد من الأحداث المهمة، منها ما كان في شكل عنيف كحركات التمرد ومقاومة استبداد الحكام وظلمهم، ومنها ما كان تحولا سلميا وتغيرا داخليا أثر على البنية الاجتماعية وسمح بتلاحم المجموعات السكانية واندماج الأقليات العرقية والدينية لتشكل لحمة المجتمعات العربية الحالية، ولتزيد في غناها الثقافي وحيويتها الاجتماعية، على أن أهم مظهر لهذا التفاعل الداخلي تمثل خاصة في الحركات الإصلاحية التي أخذت طابع يقظة حضارية في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، تهدف للخروج من حالة الجمود والركود التي كانت تعيشها البلاد العربية والتصدي للهيمنة الأوربية التي أطبقت قبضتها على العديد من الأقطار العربية.

5-من أشهر الأسر والسلالات التي حكمت في البلاد العربية وكان لها استقلال فعلي عن مركز السلطة العثمانية بإستانبول، نذكر على سبيل المثال: آل الجليلي بالموصل، وآل العظم بالشام، وآل شهاب بلبنان، وظاهر العمر وأحمد الجزار بفلسطين، وحسن باشا وداوود باشا ببغداد والبصرة، وعلي بك الكبير ومحمد أبي الذهب بمصر، وآل القرمانلي بطرابلس الغرب، والبايات الحسينيين بتونس، والدايات الباشوات بالجزائر، وغيرهم، راجع:

- لوتسكي، (1980). تاريخ الأقطار العربية، ترجمة عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي.

لقد كانت هذه الحركات الإصلاحية استجابة موفقة واسترجاعا للوعي بالذات رغم اختلاف قناعاتها وتباين وجهات نظرها وتصوراتها لتنظيم المجتمع وإصلاح أحوال الأمة؛ فاكتسبت طابع دعوات إصلاحية سلفية كان في طليعة من حمل لواءها كل من الإمام محمد بن عبد الوهاب (1703-1792م) بنجد، والمهدي محمد بن أحمد (1844-1885م) بالسودان، والداعية محمد بن علي السنوسي (1787-1852م) ببرقة، أو اتخذت شكل مشاريع تجديد وتنظيم وتحديث لأجهزة الدولة وهياكلها، كما هو الأمر في الجزائر في عهد الأمير عبد القادر الجزائري (1807-1883م)، وفي مصر تحت حكم محمد علي (1805-1848م)، وفي تونس بتشجيع من البايات الحسينيين ومبادرة من خير الدين باشا (1810-1899م)، وفي المغرب الأقصى بمساع من السلطان الحسن الأول (1873-1893م).

كما عبرت هذه الحركات الإصلاحية عن نفسها بنشاط فكري هدفه بث الوعي وإيقاظ العرب ليتدبروا أمورهم ويحافظوا على مصالحهم، فاتخذ هذا النشاط طابعا سياسيا تحرريا عند جمال الدين الأفغاني (1839-1897م) وعبد الرحمن الكواكبي (1849-1902م)، وتوجه تربوي لدى محمد عبده (1849-1905 م)، وأسلوبا إرشاديا وتوجيهيا كما هو الحال عند محمد رشيد رضا (1865-1935م).

ثانيا: الصورة النمطية للفترة الحديثة من تاريخ العرب الحديث

تتحكم في نظرتنا للفترة الحديثة من تاريخ العرب وفي تقييمنا للحكم العثماني الذي يمثل الإطار العام لتلك الفترة في أغلب الأقطار العربية، الصورة النمطية التي تشكلت في أذهاننا من جراء الأحكام والآراء الشائعة التي أصبحت من قبيل المسلمات التي لا تقبل المراجعة ولا تطرح للنقاش لدى العديد من قراء التاريخ العربي، رغم أن تلك الأحكام والآراء لا تتجاوز كونها انعكاسا لميول أصحابها وتعبيرا عن قناعاتهم ونوعية ثقافتهم ومدى تأثرهم بالميل القومي والمفهوم الديني والوضع الاجتماعي.

وحتى نتعرف على الصور النمطية للفترة العثمانية انطلاقا من حصيلة الحكم العثماني والتأثير الأوربي، فإننا نحاول إجمالها في ثلاثة توجهات أو مواقف :

1. الاتجاه المؤيد للحكم العثماني في البلاد العربية:

لا يسلم بالقناعات الفكرية الأوربية والأحكام التاريخية الغربية التي رأت في الدولة العثمانية العدو الأول والخصم الرئيسي للشعوب الأوربية، فأفزعتها هجماته وأخافتها ضرباته لبضعة قرون، منذ فتح القسطنطينية (1453م) وحتى حصار فيينا الثاني (1683م)، فألصقت بالدولة العثمانية بفعل العداء لها كل التهم من استبداد وتخلف وتعصب ووحشية.

فقد رأى أصحاب الاتجاه المناصر للحكم العثماني في هذه الاتهامات الأوربية للحكم العثماني مجرد دعاوى باطلة ما دام المفهوم الحضاري الإسلامي يرى في الفترة العثمانية من تاريخ العرب مرحلة إيجابية عرفت فيها أغلب الشعوب العربية وحدة سياسية وتكاملا اقتصاديا وترابطا اجتماعيا في إطار الرابطة والأخوة العثمانية وتحت حكم إسلامي متمثل في شرعية السلطان العثماني، الذي كان بمثابة الدرع الواقي ضد مخاطر الهيمنة الأوربية والنزاعات والحروب المرتبطة بظهور الدول المحلية التي عرفها العالم العربي قبل التحاق أغلب أقطاره بالدولة العثمانية.

لقد ذهب أصحاب هذا الاتجاه في مناصرتهم للحكم العثماني بالبلاد العربية[6] إلى حد القول بأنه من التجني على التاريخ القول بأن الحكم العثماني الذي أزاح دولة المماليك بمصر والشام وقضى على دولتي الحفصيين والزيانيين بتونس وتلمسان، أنه حكم أجنبي حل محل حكم عربي ونظام استعبد العرب وسلبهم حريتهم واضطهد ثقافتهم وأبعدهم عن التواصل والتفاعل الحضاري مع أوربا، لأن ذلك يتنافى مع الواقع التاريخي والنظرة الموضوعية للأحداث، وهذا ما جعل الحكم العثماني في البلاد العربية استجابة موفقة وضرورة ملحة اقتضتها الظروف الدولية في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فكان حكما متجاوبا مع أوضاع الشعوب العربية، فباعتماده اللامركزية الإدارية وفر للعرب تواصلا اقتصاديا واجتماعيا وحماية عسكرية وسياسية لم تتوفر لهم قبل اندماجهم في الدولة العثمانية، وهذا ما يكسب الدولة العثمانية صفة خلافة إسلامية لا تختلف في أسسها عن دولة الخلافة في التاريخ العربي الإسلامي راشدية أو أموية أو عباسية أو فاطمية[7]، ويجعل من إستانبول عاصمة إسلامية استقطبت النخبة العربية وضمت مكتباتها رصيدا غنيا من التراث العربي ناهز ثلاثمائة ألف مخطوط عربي[8].

2. الاتجاه المعادي للحكم العثماني في البلاد العربية:

يرى في الدولة العثمانية قوة أجنبية مارست هيمنة استعمارية على البلاد العربية، وهذا ما أفقدها في نظرهم صفة الشرعية وجعل حكمها يتصف بالظلم والتعسف والإكراه والقهر، ففترة الحكم العثماني حسب هذا التوجه بمثابة عهد مظلم قائم على الاستبداد والعدوان ومستند إلى مبدإ القوة وقانون الغزو، فكرس عزلة العرب وتأخرهم لأكثر من أربعة قرون (1918-1516م)، فتحولوا بذلك من حاكمين إلى محكومين، وألحق بهم خسارة قومية فادحة تمت تفاصيلها وأقيمت حججها على «أممية الإسلام»[9]، لكون فكرة «الخلافة» في حد ذاتها عاملا مساعدا على استسلام العرب للحكم التركي، مما أخر كثيرا نشوء الفكرة القومية العربية[10]. وأرجع عبد الرحمن الرافعي إلى الحكم التركي تأخر البلاد المصرية وتقهقرها وتناقص سكانها[11]، واعتبر محمد بن عبد المنعم السيد أن مصر فقدت مكانتها وأصبحت ولاية تابعة لدولة أجنبية بفعل الحكم العثماني لها بعد أن كانت دولة كبرى ممتدة من جبال طوروس شمالا إلى أسوان جنوبا ومن برقة غربا إلى الفرات شرقا[12]، متناسيا أن حكم المماليك كان قائما على عناصر دخيلة على مصر جلبت من مناطق القوقاز.

لقد كان هذا التوجه المعادي للحكم العثماني صادرا عن رد فعل عاطفي على سياسة التتريك وأسلوب الهيمنة الذي مارسه القوميون الأتراك اتجاه القوميات الأخرى التي كانت

6-من المؤرخين المناصرين للدولة العثمانية نذكر على سبيل المثال: محمد فريد بك، وعبد العزيز الشناوي، وعبد اللطيف البحراوي، ومحمد حرب، وأحمد توفيق المدني، وإسماعيل أحمد ياغي، وزكريا سليمان بيومي.

7-عبد العزيز محمد الشناوي، (1980). الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 2 ج.، القاهرة.

8-عبد الجليل التميمي، (1998). الحوار العلمي والثقافي العربي التركي، استراتيجيا التبادل والانفتاح العربي وإيديولوجية القطيعة، المجلة التاريخية المغاربية، السنة 25، العددان 89-90، ص ص. 256 و264.

9-حسن علوي، (د.ت). التأثيرات التركية في المشروع العربي، بغداد، ، ص. 24.

10-ساطع الحصري، (1960). البلاد العربية والدولة العثمانية، ط. 2، بيروت، دار العلم للملايين، ص. 46.

11-عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة الوطنية، (1981). تطور نظام الحكم في مصر، القاهرة، دار المعارف، ص. 54.

12-عبد المنعم السيد الراقد، (1972). الغزو العثماني لمصر ونتائجه في الوطن العربي، الإسكندرية، مؤسسة الشباب الجامعية، ص. 207 و263-266.

تتألف منها الدولة العثمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر، فاكتوى العنصر العربي من الإجراءات العنصرية الظالمة التي ارتبطت بالانقلاب الدستوري الذي قام به الاتحاديون (1908م)، مما تسبب في حدوث القطيعة بين العرب والأتراك، فانتهى الأمر إلى الطلاق بين العنصرين الغالبين في الدولة العثمانية (العرب والأتراك) بفعل اصطدام المطامح القومية العربية بالنزعة الطورانية القائمة على خصوصية الإثنية التركية، وتعمق العداء بفعل إعدام جمال باشا لرجالات العرب وإعلان شريف مكة حسين بن علي الثورة على الحكم التركي (1916م).

لقد انعكس كل ذلك في الكتابات التاريخية العربية وخاصة ما صدر منها بالشام والعراق فلم تعد معاداة الحكم العثماني قاصرة على القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي وإنما انسحبت على كل الفترة العثمانية من تاريخ العرب، وأصبح مجرد الموقف المحايد من تلك الفترة وعدم معاداة الحكم العثماني يعتبر إصرارا على الخطإ وتجن على حقوق العرب، يؤاخذ عليه صاحبه وتعتبر كتاباته مجرد تهديم إنشائي وتهويم عاطفي[13].

3. الاتجاه المحايد في النظرة للحكم العثماني:

لا يعلن عداءه للحكم العثماني، كما لا يحاول مناصرته، وإنما يلتزم موقفا متفهما للظروف التي بسط فيها العثمانيون سلطتهم على أغلب البلاد العربية، ويحاول أن يتخذ موقفا محايدا من الحكم العثماني[14] يتجاوز الأحكام الجاهزة والاتهامات الاعتباطية ولا يقف عند الرأي القائل بتحميل الحكم العثماني مسؤولية التخلف والركود والعزلة التي عاشها العرب أثناء الفترة العثمانية، فأوضاع البلاد العربية المتردية حسب هذا الاتجاه المحايد هي حالة ميزت العالم الإسلامي ولم تكن خاصة بالدولة العثمانية، عرفها المغرب الأقصى الذي لم يخضع لحكم العثمانيين، كما عاشتها شعوب إيران تحت حكم الصفويين والقاجاريين ومسلمو الهند في دولة المغول. فلم يكن للعثمانيين والحالة هذه خيرا منعوه عن العرب أو شرا سلطوه عليهم، فكل ما فعلوه هو أنهم ملأوا فراغا سياسيا كانت تعيشه البلاد العربية ووضعوا حدا للفتن الداخلية وتصدوا للتهديدات الخارجية ووفروا الأمن للحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي، فلم يحالفهم النجاح في تحقيق نتائج ملموسة تغير أوضاع الشعوب العربية وتسمح بتطورها، إذ لم يحدث الحكم العثماني للبلاد العربية صدمة في نفوس العرب ليوقظهم نحو نهضة ذاتية تحرك المجتمعات العربية وتدفعها إلى الأمام، كما لم يجد العثمانيون بدورهم لدى العرب الرصيد الثقافي الذي يمنحهم الغذاء الفكري الذي وجدوه في بداية دولتهم في المجتمع الإيراني بفارس، لكون البلاد العربية مشرقا ومغربا كانت تعيش آنذاك مرحلة تراجع وجمود[15].

لقد عرفت الكتابات التاريخية ذات المنحى المحايد في معالجتها للحكم العثماني بالبلاد العربية تطورا ملحوظا مع نهاية القرن العشرين بفعل تغير النظرة لأحداث التاريخ بفعل

13- سيار الجميل، (أكتوبر 1996). العرب المعاصرون والدولة العثمانية (رؤية نقدية)، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، العدد 23-24، ص. 101 و104.

14- أصبح اليوم هذا الاتجاه هو الغالب على دراسة الفترة العثمانية من تاريخ العرب، فقد ساهم فيه العديد من مؤرخي البلاد العربية، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر كل من: ليلى الصباغ، وعبد الجليل التميمي، وعبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ويوسف محمد عراقي، وعبد الكريم رافق، ومحمد الآرناؤوط، ومحمد كمال الدسوقي، ومحمد عدنان البخيت، ومحمد الهادي الشريف.
-يوسف محمد عراقي، (1996). الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، دراسة وثائقية، القاهرة.

15- ليلى الصباغ، المصدر نفسه، ص. 288.

الإحباط الذي أصبح يعيشه العالم العربي اليوم، فتراجعت المواقف السياسية والإيديولوجية التي طبعت العلاقات العربية التركية في بداية القرن العشرين والتي تسببت في سد قنوات الاتصال المعرفي وأدت إلى توقف التبادل الثقافي بين الدائرتين العربية والتركية وتكريس القطيعة بين الجانبين[16]، وبذلك تهيأت الظروف لإعادة كتابة تاريخ العرب في الفترة العثمانية بعيدا عن الميل العاطفي المناصر أو النزعة القومية المعادية، وإنما انطلاقا من المصالحة مع الماضي والنظر إليه كحصيلة إسهام ونتاج تطورات تنطلق من نظرة موضوعية وموقف محايد يرى أن العهد العثماني تركة مشتركة بين شعوب الإمبراطورية العثمانية يتوجب قبول جوانبها السلبية وتبني مظاهرها الإيجابية والانتفاع بتجاربها واستلهام العبر من أحداثها.

ثالثا: إشكالية المرحلية أو مسألة التحقيب في التاريخ العربي الحديث

تعددت الآراء حول تحديد بداية ونهاية العصر الحديث في التاريخ العربي، فمن الكتابات التاريخية ما يعتمد المصطلح الغربي في تحديد العصور الحديثة، فتجعل بدايتها فتح القسطنطينية سنة 1453 م، ونهايتها اندلاع الثورة الفرنسية (1789 م)؛ ومنها من تحصرها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري/الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، فيرجع بدايتها إلى ظهور الحكم المحلي في الولايات العربية العثمانية مع مطلع القرن الثامن عشر، ويحدد نهايتها بسقوط الدولة العثمانية (1918 م)؛ ومنها من يعتبر بداية العصور الحديثة سقوط غرناطة وانتهاء حكم المسلمين بالأندلس (1492 م)، ونهايتها احتلال فرنسا للجزائر (1830 م). كما توسعت بعض الكتابات التاريخية في تحديد تاريخ العرب الحديث، فأدرجت فيه الفترة الاستعمارية وألحقتها بالحكم العثماني، فاعتبرت بدايته انتصار السلطان سليم الأول (ياووز) العثماني على دولة المماليك في معركة مرج دابق (23 أغسطس 1516 م)، ونهايته بظهور الكيانات العربية المستقلة بعد الحرب العالمية الثانية (1945 م). وهذا ما نتج عنه اضطراب في السياق التاريخي للفترة الزمنية من التاريخ العربي الحديث وأحدث تداخلا في المسائل التاريخية وغموضا في المعالجة وتشويشا في الرؤية التاريخية.

إن طبيعة الزمن في حد ذاته لا تسمح لأي مؤرخ أن يقف عند سنة بعينها لتكون بداية لفترة أو حقبة زمنية لأن ذلك يتعارض مع منطقية التاريخ. فتداخل الأحداث وتفاعلها لا يسمح بجعل أي زمن محدد بداية أو نهاية لأي عصر أو فترة تاريخية، فالزمن يمضي تاركا الأحداث في موقعها الزمني، فيصير الحاضر ماضيا والماضي القريب ماضيا بعيدا، وهذا ما يتعذر معه الاتفاق على تاريخ محدد أو سنة بعينها لتكون بداية أو نهاية للتاريخ العربي الحديث[17]. كما أنه لا يمكن التسليم بأن حادثة محددة مهما عظمت تكون حدا فاصلا في تطور الأحداث ما دامت حركة التاريخ في حد ذاتها تتداخل فيها البدايات مع النهايات ويتفاعل فيها الجديد مع القديم وتجعل الحداثة والقدم أمرين نسبيين، بحيث أنه من غير الممكن أن تحدد فترات التاريخ بسنوات أو بأحداث مهما علا شأنها وعظمت نتائجها.

ومع ذلك فالمرحلية أو تحديد الفترات التاريخية أمر ضروري لكل قارئ للتاريخ ومتتبع لأحداثه ومهتم بتطوراته، فهي من المسائل اللازمة لدراسة التاريخ والبحث فيه، وهذا ما يتوجب معه من أجل توحيد الرؤية للتاريخ العربي الحديث الاتفاق على تحديد الإطار

16- عبد الجليل التميمي، المصدر نفسه، ص. 268-269.

17- قاسم عبده قاسم، الرؤية الحضارية للتاريخ: قراءة في الزمن التاريخي العربي، د.ت.، ص. 39-40.

الزمني على ضوء الأحداث الكبرى والتغيرات الحاسمة التي غالبا ما تقترن بحركات التحول الكبرى في التاريخ أو ترتبط بالأحداث الخطيرة والأوضاع المصيرية في حياة الشعوب. فمتتبع التاريخ العربي الحديث لا يمكن أن يتجاوز أهمية بعض الأحداث وتأثيرها على صيرورة التاريخ العربي وتطوره، مثل سقوط غرناطة (898هـ/1492م) والقضاء على دولة المماليك (923هـ/1517م) وحملة نابليون على مصر (1213هـ/1798م) واحتلال فرنسا للجزائر (1246هـ/1830م) وانتهاء الحربين العالمتين الأولى (1337هـ/1918م) والثانية (1356هـ/1945م) وغيرها.

إن قراءة متأنية للتاريخ العربي الحديث تسمح لنا بالتعرف على آفاق الفترة الحديثة، بحيث تجعل بدايتها مرتبطة بالتوسع العثماني بالبلاد العربية في مستهل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ونهايتها محددة بسقوط الدولة العثمانية وتغير خريطة الوطن العربي مع انتهاء الحرب العالمية الأولى، هذه الحرب التي حملت في طياتها أكبر انقلاب عرفه العرب في تاريخهم، فقد أنهت ما بقي من استقلال شكلي للبلاد العربية وحولت العلاقة مع أوربا إلى عملية اجتياح وإخضاع أدت إلى تغير طبيعة ومكونات الشرق العربي خاصة، هذه المكونات التي أصبحت تفرض نفسها على القارئ الذي يريد أن يتفهم واقع العرب[18]. على أن اتساع المدى الزمني لهذه الفترة وتداخل أحداثها دفع الكثير من المؤرخين إلى اختصارها بإلحاق الفترة المتقدمة منها (ق. 10-11هـ/16-17م) بتاريخ الدولة العثمانية الذي يشترك فيه العرب مع غيرهم من شعوب تلك الدولة، وحصرها في الفترة المتأخرة من الحكم العثماني (ق.12-13هـ/18-19م) التي تطور فيها الحكم المحلي في أغلب الأقاليم العربية وتحولت فيها الامتيازات إلى هيمنة استعمارية وظهرت التنظيمات الحديثة والحركات الإصلاحية ونما الوعي القومي وارتسمت مطالب الحركات الوطنية الحديثة.

قد يبدو هذا التحديد الأخير للفترة الحديثة من تاريخ العرب أكثر ملاءمة لدراسة أوضاع المشرق العربي الحديث، إلا أنه يظل – في نظرنا- مفتقرا إلى التواصل التاريخي والفهم المتكامل لأحداث العهد العثماني، فضلا عن عدم ملاءمته لمعطيات تاريخ المغرب العربي الحديث التي جعلت من المرحلة العثمانية وحدة تاريخية متكاملة لا يمكن اختصارها، تبدأ بالقرن 10هـ/16م وتنتهي بالقرن 13هـ/19م.

من كل ما سبق تتضح لنا ضرورة تحديد الإطار الزمني للفترة الحديثة من تاريخ العرب بضبط بدايته ونهايته على ضوء الوقائع الكبرى المؤثرة في سير التاريخ العربي، وخاصة منها ما يتصل بالجوانب الحضارية ويتعلق بالتيارات الفكرية التي غالبا ما تحمل في طياتها قيما وتحولات في السلوك وفي نظرة المجتمع وفي توجه التاريخ، تكون بمثابة الوقائع المحورية التي تتحكم في سير التاريخ العربي الحديث وتشكل إطاره العام بدءا بمفهوم الرابطة العثمانية وأسلوب الحكم المحلي وانتهاء بحركات الإصلاح وتجارب التحديث وبوادر التيقظ القومي والنضال الوطني ضد الاستعمار الأوربي، وهذا ما يتطلب من المهتمين بالتاريخ العربي الحديث، وخاصة الباحثين العرب، تعميق النقاش وتوسيع الحوار وتبادل الرأي للاتفاق على تحديد البعد الزماني وضبط الأحداث المحورية لتجاوز إشكالية مسألة التحقيب في التاريخ العربي الحديث.

18-Sauvaget, J. (1946). Commet étudier l'histoire du Monde arabe ?, in Revue africaine, T. 90, p. 17.
- Alem, J. P. (1964) . *Le Proche-Orient arabe*, P.U.F, p. 7.

رابعا: إشكالية المضمون التاريخي للفترة الحديثة من تاريخ العرب

يرتبط المضمون التاريخي لأي فترة من فترات التاريخ بنظرتنا لأحداث التاريخ وتقييمنا لنشاط الإنسان وإسهاماته، فالتاريخ كما هو معروف سجل الماضي وحصيلة جهد الإنسان ونتاج تفاعله مع وسطه وبيئته وظروف عصره، وهذا ما يجعل قيمة التاريخ مستمدة من الإنسان الذي يصنع أحداثه ومستوى من يكتب وقائعه ونظرة من يستعرض مسائله، وهذا ما يطرح إشكالية تحديد مضمون المسائل والقضايا التي تشكل المحاور الأساسية والمفاصل الرئيسية في التاريخ العربي الحديث، ما دام الإلمام بكل الأحداث ومجمل الوقائع شيء متعذر، خاصة إذا تعلق الأمر بالدراسة والبحث، فتظل معرفتنا بحكم محدودية الوثاق وتعدد الروايات مقتصرة على تسجيل بعض المشاهد والتقاط بعض الصور وتحديد بعض الأحداث والتطورات.

فالتاريخ العربي الحديث شأنه في ذلك شأن تاريخ الأمم الأخرى تتداخل أحداثه وتتعدد وقائعه بحيث يصعب حصرها وتحليلها، فواقع وأحداث التاريخ أشبه ما تكون بنهر هائج متدفق تحوي مياهه تفاصيل كل ما يتعلق بالإنسان من نشاط وسعي وأفكار وآمال وتطلعات وأحاسيس ونجاح وفشل[19]. وهذا ما يتطلب تحديد مفهوم تاريخي يتماشى ومنهج البحث التاريخي الحديث حتى يمكن تحديد المحاور الرئيسية وضبط القضايا الأساسية التي يتوجب عرضها على القارئ لتتشكل لديه الخطوط الرئيسية والملامح المعبرة عن التاريخ العربي الحديث.

إن أهم المواضيع التي تشكل لحمة التاريخ العربي الحديث والتي تجنبه الرؤية القطرية المحدودة والاستعراض العام المبسط تتمثل في البحث في مسببات وظروف التحاق البلاد العربية بالدولة العثمانية، ودراسة طبيعة الإدارة العثمانية في الولايات العربية، والعوامل التي ساعدت على تطورها من إدارة مباشرة إلى حكم محلي شبه مستقل، وكذلك عرض جدلية الامتيازات الأوربية ومظاهر الهيمنة الغربية وأساليبها في البلاد العربية، وتجارب بناء الدول الوطنية في البلاد العربية خاصة في الجزائر في عهد الأمير عبد القادر أو في مصر أثناء حكم محمد علي، ومحاولات الإصلاح وحركة اليقظة العربية ومسألة القومية عند العرب، وأساليب النضال الوطني ضد الاستعمار الأوربي، بالإضافة إلى مراجعة المكونات الثقافية والأسس الاقتصادية والمرجعية الروحية التي صاغت الذهنية العربية وتحكمت في سلوك العرب ومواقفهم من المتطلبات الداخلية والضغوط الخارجية.

لقد تحكمت في صياغة وطرح إشكالية المضمون التاريخي للفترة الحديثة من تاريخ العرب عدة مؤشرات وجهت فهمنا للأحداث التاريخية وتحكمت في تقييمنا للتطورات التي ارتبطت بها تلك الأحداث، وهذا ما نحاول التعرض له في النقاط التالية:

1. مسألة العلية أو السببية في التاريخ العربي الحديث:

وذلك لكون التاريخ باعتباره أحداثا ماضية يظل دائما موجودا في الحاضر الذي نعيشه من خلال أسبابه البعيدة ونتائجه القريبة. وهذا ما يكسب الأسباب الداخلية والعوامل الخارجية في تفسير أحداث التاريخ العربي أهمية بالغة، سواء في تصور الماضي أو تقييمه والحكم عليه، فالتاريخ العربي الحديث كغيره من فترات التاريخ العربي الأخرى هو حصيلة تفاعلات

19- قاسم عبده قاسم، المصدر نفسه، ص. 27.

داخلية وتأثيرات خارجية؛ فالتفاعلات الداخلية تفرزها حركية المجتمعات العربية في وعيها بذاتها وفي تعاملها مع واقعها وفي فهمها لثقافتها، بينما التأثيرات الخارجية غالبا ما ترتبط بنوعية العلاقة مع إستانبول وسياسة السلاطين العثمانيين أو تتعلق بالاتصال أو الاحتكاك أو التعامل مع الدول الأوربية عن طريق الامتيازات وأحداث الغزو ونشاط القناصل والتجار، وهذا ما أوجد اضطرابا في النظرة إلى الأحداث وتذبذبا في تعليل التطورات التي عرفها التاريخ العربي الحديث، بحيث نجد بعض المؤرخين يأخذون بالأسباب الداخلية وآخرون يركزون على العوامل الخارجية.

لقد أضرت هذه الازدواجية بفهم وتحليل التاريخ العربي، وحالت دون تفسير متكامل له ينطلق من مفهوم التطور الداخلي ليصل إلى استكمال الصورة التاريخية بالتفاعل الخارجي. فنجد المدافعين عن الدولة العثمانية يرجعون عوامل الضعف التي كانت تعيشها البلاد العربية ومعها بقية أقاليم الدولة العثمانية إلى عوامل خارجية ومخططات عدائية من قبيل دسائس الأعداء من يهود وماسونيين وإمبرياليين باعتبارهم يشكلون الثالوث الشيطاني المتربص بالعالم العربي الإسلامي، بينما المعادون للدولة العثمانية والناقمون على حكمها للبلاد العربية يخالفون هذا التوجه فيرجعون عوامل ضعف المجتمعات العربية إلى طبيعة الحكم العثماني ذاته وما اتصف به من استبداد وظلم، دون أن يحاولوا تلمس التطورات الداخلية مع كونها في بعض الأحيان تعتبر منطلق التفاعلات ومحور التحولات.

إن اختلاف النظرة إلى الحملة الفرنسية على مصر (1798م) يقدم لنا مثالا حيا على تباين المواقف واختلاف الآراء حول مدى تأثير العوامل الخارجية في غياب البحث عن الأسباب الداخلية للتأثيرات التي عرفتها مصر والشرق العربي في مطلع القرن التاسع عشر؛ فهناك من اعتبرها حدثا مهما تسبب في تيقظ بعض الضمائر وتنبه بعض النفوس إلى تقدم شؤون الأوربيين وتراجع أمور المسلمين كما نظر إليها عبد الرحمن الجبرتي المعاصر لها[20]، ومنهم من اعتبرها سببا مباشرا في يقظة العرب، فكانت حسب بعض الآراء بمثابة قبسا أثار شعلة في جمر كان الرماد قد غطاه[21]، وذهب البعض الآخر إلى أنها الحدث الجلل الذي غير مصير الشرق العربي، فهي أشبه بالصاعقة التي هوت من السماء فأيقظت مصر من سباتها العميق ونبهت أهلها إلى ما كان خافيا عنهم من الحقوق وعملت على تنوير أذهانهم، إذ كانت أول اتصال مباشر بين تقاليد الشرق وحداثة الغرب[22].

2. مسألة المركز والأطراف:

تتعلق باختلال توازن المعالجة وقصور التغطية التاريخية لمجموع البلاد العربية من العراق وعمان شرقا إلى المغرب الأقصى وموريتانيا غربا، فقد حظيت الأقطار المركزية للوطن العربي وخاصة مصر والشام بحصة الأسد فيما كتب عن التاريخ العربي الحديث، إذ لا يكفي أن نعلل ذلك بالمساهمة المبكرة لتلك الأقطار في حركة اليقظة الفكرية والتطور الثقافي والالتحاق المتأخر للأقاليم الواقعة بالأطراف كبلدان الخليج العربي وأقطار المغرب العربي والسودان، التي لم تحظ إلا بنصيب محدود من الدراسات التاريخية رغم النمو الاقتصادي الذي عرفته والوزن السياسي الذي اكتسبته ومساهمتها المميزة في العمل

20-عبد الرحمن الجبرتي. مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، (سلسلة اخترنا لك)، د.ت.، ج. 2، ص. 91-94.

21-حمد بديع الشريف، زكي المحاسني، أحمد عزت عبد الكريم. دراسات تاريخية في النهضة العربية، الإدارة الثقافية د.ت.، ص. 22.

22-محمد أمين حسونة، (د.ت). مجلة الكاتب.

العربي المشترك. إن التركيز على المركز وإهمال الأطراف أضر كثيرا بوحدة التاريخ العربي وحال دون بناء تصور متكامل للتاريخ العربي الحديث.

إن تصفح أي كتاب في تاريخ العرب الحديث، سواء كان كتابا موجها للجمهور أو مخصصا للدراسة، ومحاولة توزيع مادته حسب الأقطار العربية يظهر لنا بوضوح اختلال توزيع المادة التاريخية وغياب جانب مهم من تاريخ العرب الحديث. فعلى سبيل المثال نلاحظ أن المقرر الدراسي بالجمهورية العربية السورية لمادة تاريخ العرب الحديث لطلبة الصف الثالث ثانوي لسنة 1998م، خصص من مجموع 36 موضوعا أقرها البرنامج الدراسي : 6 مواضيع عامة و21 موضوعا لمصر وسوريا وفلسطين والعراق و5 للمغرب العربي و4 للجزيرة العربية والخليج ولا شيء للسودان والصومال وإرتريا وجيبوتي[23].

كما نلاحظ أن الكتاب المقرر على طلبة الجامعة بالعراق حول تاريخ العرب الحديث والمعاصر في فترة السبعينيات والذي تكرر طبعه ثلاث مرات ما بين 1973 و1975 م، توزعت مادته حسب الصفحات كالتالي: 51 صفحة للمواضيع العامة و218 لمصر والشام والعراق وفلسطين و11 صفحة للجزيرة العربية والخليج و19 للمغرب العربي و11 للسودان وإرتريا[24].

إن هذا الاختلال في بناء الصورة التاريخية للشعوب العربية يتطلب منا معالجة متوازنة لقضايا التاريخ في مختلف الأقطار العربية بحيث توزع المادة التاريخية على مجموع الأقطار العربية في المقررات التعليمية والبرامج الدراسية في التعليم الثانوي والجامعي وفي النشاط الثقافي، وبذلك نتجنب إهمال الأطراف ولا نقتصر في اهتمامنا على المركز؛ فنحقق النظرة المتكاملة للتاريخ العربي التي لا تفرق بين قطر وآخر ولا تهتم بمنطقة دون أخرى ما دام التاريخ العربي واحدا وقضايا أمته العربية مشتركة.

وهذا ما يتطلب مراجعة مضمون التاريخ العربي الحديث ليكون أكثر توازنا بين الأقطار العربية فنتجاوز مسألة الأطراف النائية إلى المراكز المتعددة والمتكافئة والمتكاملة، لأن تجاهل أيضا ذلك والتركيز على الأقاليم المحورية لا يتناقض فقط وتكامل التاريخ العربي وتوازن جوانبه وإنما يتجاهل التطورات التي عرفها العالم العربي والتي خلقت وضعا جديدا زاد من تلاحم الأقطار العربية وحول مركز الثقل الاقتصادي وحتى الثقافي من القلب إلى الأطراف، فلم تعد مصر والشام قلب العالم العربي وعواصمها مراكزه وإنما ظهرت مراكز أخرى في أقطار الخليج وبلاد المغرب العربي والسودان واليمن؛ وبذلك يمكن لنا إلغاء الثنائية في تناول التاريخ العربي الحديث والتي ظلت تتحكم في تصورنا للتاريخ العربي والقائمة على تسليط الضوء على المركز المؤثر وإهمال الأطراف المتأثرة[25]. وهذا ما يفرض علينا تغيير الرؤية لقضايا التاريخ العربي وإعادة تصور أحداثه وتوزيع مادته، اعتمادا على المميزات المشتركة والظواهر العامة والعوامل المؤثرة في المجتمعات العربية، وبذلك يكتسب التاريخ العربي الحديث توازنه وتكامله وشموليته.

23- علام الدين الخاني، واصف خيمي، وصفي عفلق، (1998). تاريخ العرب الحديث والمعاصر (لطلبة الصف الثالث ثانوي، فرع أدبي).

24- توفيق سلطان اليوزبكي، محمد الدين توفيق، صلاح الدين أمين، (1973)(1975). الحركات الثورية والسياسية في الوطن العربي للطلبة الجامعيين، ط. 1- ط. 3.

25- جابر عصفور،(2004/12/6). حوار المشارقة والمغاربة وتحول صيغة المركز والأطراف، بحث قدم في ندوة حوار المشارقة والمغاربة، الكويت، (عمل غير مطبوع).

3. مسألة المصادر والمراجع:

تتحكم هي الأخرى في تحديد مضمون التاريخ العربي الحديث وفي تجديد نظرتنا لقضاياه ومسائله، كما يتعلق أيضا بمستوى معلوماتنا ومدى قدرتنا على تجاوز المعلومات المتداولة والآراء المتعارف عليها وتكوين فكرة موضوعية معبرة بصدق عن الواقع التاريخي الذي عاشته الشعوب العربية، تتجاوز الأحكام المتداولة والآراء المتعارف عليها.

إن العمل من أجل إيجاد مصادر جديدة كفيلة بتجديد نظرتنا وتغيير رؤيتنا لأحداث التاريخ العربي الحديث يتطلب من الباحث في التاريخ العربي الحديث العمل في اتجاهين: الأول ينصب على إعادة قراءة وتقييم ما كتب حول تاريخ العرب الحديث حتى الآن، وهو في أغلبه دراسات حديثة في مواضيع عامة ومسائل خاصة، والقليل منه بحوث علمية ورسائل جامعية أو مخطوطات ومذكرات منشورة، بحيث تعاد قراءة كل هذه الكتابات بنظرة نقدية ومنهج تحليلي يأخذ بعين الاعتبار متطلبات المنهج التاريخي الحديث، وذلك بهدف تجنب ما احتوته من هفوات تاريخية وأحكام غير موضوعية وآراء إيديولوجية ونظرة ذاتية.

أما الاتجاه الثاني الذي ينبغي أن يسلكه الباحث في تاريخ العرب الحديث في سعيه لتصور تاريخي يتماشى وطموحات الشعوب العربية، فهو العمل على إثراء الرصيد التاريخي العربي بمادة تاريخية جدية، وذلك بالرجوع إلى الأرشيفات الوطنية والمكتبات العامة والتعريف بمضمونها ووضع فهارس تسمح بالرجوع إليها والانتفاع بها، مع العمل المنظم والمبرمج في مشاريع بحث تهدف إلى تحقيق ونشر ما ظل غير معروف منها من أوراق خاصة ومذكرات شخصية ومراسلات وتقارير وتقاييد وغيرها، حتى لا تبقى تلك الوثائق بعيدة عن الباحثين يحتفظ بها الأشخاص وتمتلكها الأسر أو الهيئات الدينية والمنظمات الاجتماعية والمؤسسات التعليمية والوقفية.

إن مسألة المصادر والمراجع في التاريخ العربي الحديث تفرض علينا الابتعاد عن النظرة القطرية والتركيز على المفهوم المتكامل والتناول الشامل الذي يركز على التوسع الأفقي الذي يتطلبه التاريخ العام المشترك دون إهمال الأبحاث الخاصة التي تعكس خصوصية كل إقليم انطلاقا من مبدإ الوحدة من خلال التنوع والتجديد ومن خلال مراجعة ونقد ما هو منشور من المراجع ونشر ما ظل غير منشور ومعروف لدى الباحثين، مع التركيز على الحياة اليومية والنشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية التي ظلت تمثل الجانب المنقوص والحلقة الضعيفة في التاريخ العربي وخاصة منه ما يتصل بالفترة الحديثة[26].

خامسا: إشكالية المفاهيم المرتبطة بالتاريخ العربي الحديث

تتحكم في دراستنا للتاريخ العربي الحديث وتؤثر على فهمنا لقضاياه وتقييمنا للتطورات المرتبطة به، منظومة متكاملة ومتداخلة من المفاهيم والرؤى والتصورات، أصحبت مع الاعتياد عليها والاستسلام لأطروحاتها بمثابة العائق المنهجي والحاجز النفسي الذي يحول دون تجديد فهمنا وتطور نظرتنا للتاريخ العربي الحديث، ولعل أهم هذه المفاهيم والرؤى حضورا لدى المؤرخ العربي ما يتعلق بمسألة الأخذ بالمصطلحات والقيم الأوربية، أو

26- ناصر الدين سعيدوني، (2000). ورقات جزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي. أنظر:
- طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، ص. 21-40.
- وثائق الأرشيف الجزائري المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، ص. 41-58.
- نظرة في المناهج الجامعية والمؤلفات التاريخية المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، ص. 59-69.

يتصل بقضية الميول الإيديولوجية والقناعات السياسية سواء ما يعبر منها على البعد القومي أو يؤكد النظرة القطرية، كما تندرج ضمن تلك الرؤى والتصورات قضية الزعامة ومسألة الشعب ومكانة البطل في تحديد ملامح أحداث التاريخ العربي الحديث، وهذا ما نحاول الإشارة إليه في النقاط التالية:

1. مسألة الأخذ بالمصطلحات والقيم الحضارية الأوربية:

تطرح إشكالية عويصة لدى الباحث في التاريخ العربي الحديث، سواء كانت مصطلحات كالجنسية والوطنية والسيادة الوطنية وقضايا الحدود وحق تقرير المصير والدساتير الوضعية والبرجوازية والجماهير الشعبية، أو مفاهيم وقيم مثل: التطور والتدهور والتقدم والرجعية والتراجع والصراع الطبقي والثورة وغيرها. ومرد هذه الإشكالية أن تلك التصورات وهذه المفاهيم والقيم كانت حصيلة حركية المجتمعات الأوربية ونتيجة التطور الذي عرفته هياكل الدولة ومؤسسات المجتمع في أوربا الغربية خاصة، فكانت إفرازا للواقع الأوربي الذي نتج أساسا من ذاتية الأوربيين وعبر عن نفسه في أحداث الثورة الفرنسية (1789م)، في الوقت الذي ظلت فيه تلك التصورات وما حملته من تعابير وقيم بعيدة عن واقع الدولة العثمانية وغريبة عن المناخ الحضاري الذي كانت تعيشه المجتمعات العربية التي ظلت تتحكم فيها التقاليد والأعراف المتوارثة والشرائع المعمول بها، هذه التقاليد والشرائع التي أفرزت ثقافة خاصة واقتصادا محليا وأسلوب حكم محلي يعبر عن موقف الأفراد وميول الجماعات والطوائف في إطار الدولة العثمانية القائمة على تنظيمات متوارثة سمحت بتآلف القوميات والطوائف وتعايش الأديان والمذاهب.

وحتى بعد انفتاح الدولة العثمانية على أوربا في القرن التاسع عشر وأخذها بالتنظيمات الحديثة التي سمحت بانتشار التعليم في المدن والأقاليم، ظل تأثير المفاهيم الغربية مقتصرا على أفراد قليلين لم يكن لهم تأثير ملموس على تطور الأحداث وتغير ذهنية المجتمعات المحلية قبل حلول القرن العشرين، وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن الأخذ بالمصطلحات والقيم الحضارية الغربية في الكتابات التاريخية المتعلقة بالفترة الحديثة من تاريخ العرب ومحاولة تقييم أحداثه والحكم على تطوراته من خلالها إسقاط غير موفق واستعمال غير موضوعي، ينتج عنه خلط في التعابير واضطراب في الرؤية ومجانبة لدلالات الأحداث الحقيقية ؛ فتعبير «الحداثة» (Modernité) الشائع اليوم لا يعني قبل القرن التاسع عشر لدى العرب بالضرورة النهضة أو التقدم أو التيقظ، وفكرة التدهور (Décadence) التي يكاد يجمع عليها من كتبوا في القرن العشرين حول الفترة العثمانية لا تعبر عن حكم تاريخي وإن كانت صادرة عن موقف سياسي، لأن التدهور في مفهومه التاريخي لا يرتبط بأوضاع المجتمعات أو حالة البلدان، وإنما يتعلق بفترة الأزمات، وقد تنبه إلى ذلك المؤرخ الفرنسي لوغوف (Le Goff) عندما ناقش فكرة التدهور في تاريخ فرنسا بقوله: «إنه لا يجوز في إطار الدراسة العلمية استخدام هذه الكلمة (أي التدهور) إلا لوصف إحدى الحالتين، الأولى وهي انخفاض شديد في السكان، والثانية وهي تراجع حاد في الثروة»[27]، وكلتا الحالتين لم تتأثر بها بصفة أساسية البلاد العربية في تاريخها الحديث.

2. مسألة البعد القومي وقضية النظرة القطرية في التاريخ العربي الحديث:

تتصف أغلب الدراسات التاريخية المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ العرب بالتناقض

27-جيلان آلوم، (1997). حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر في الخمس والعشرين سنة الأخيرة، ص. 170.

في الطرح والاضطراب في العرض لتداخل التوجه القومي بالنزعة القطرية أو التوجه الإسلامي، وهذا ما جعل التصور الإقليمي والتناول القطري يتداخل مع شعارات الرابطة الإسلامية والميول القومية، حتى في الدراسات التاريخية التي تتناول أحد الجوانب التاريخية أو الأقاليم الجغرافية؛ وهذا ما يحد من تكامل التاريخ العربي وينفي قواسمه المشتركة وأحداثه الجامعة وقضاياه المشتركة، ويكرس الخصوصية القطرية والتمايز الإقليمي.

إن النتيجة المنطقية لتداخل التوجه القومي والنظرة القطرية هي كون أغلب الكتب التي تحمل عنوان التاريخ الحديث تقوم في أساسها على نظرة قطرية وتناول محدود لتاريخ العرب المشترك، يؤكد الكينونة القطرية والخصوصية الجهوية لكل قطر، فيبدو التاريخ العربي الحديث والحالة هذه وكأنه تاريخ أجزاء منفصلة وشعوب وأقطار مستقلة بذاتها ولا ترتبط مع غيرها إلا بأوهى الوشائج وأضعف الروابط[28].

وحتى نتوصل إلى تصور مشترك ونتجاوز تناقض الأخذ بالشعارات القومية والقناعات الإقليمية في آن واحد عند معالجة التاريخ العربي الحديث، يتوجب إدماج التاريخ القطري وإدراج الدراسات النوعية لمختلف أوجه الحياة في العالم العربي في إطار تاريخ مشترك للعرب يركز على دراسة القضايا العامة ويهتم بالمسائل المتشابهة والمظاهر المتماثلة في امتدادها الأفقي(الجغرافي) والرأسي (الزمني)، بحيث يتحدد مضمون التاريخ العربي الحديث بعيدا عن الخصوصية القطرية والحدود السياسية والاعتبارات الإيديولوجية، فيغدو بحق حركة عامة ونشاطا مشتركا وعرضا حيا محاوره القضايا الأساسية وبعده جدلية التاريخ العربي في تفاعله الداخلي وعلاقاته الخارجية.

إن المواضيع التي تشكل الإطار العام للتاريخ العربي المشترك عديدة ومتنوعة ولعل أهمها:

- أسباب الحكم العثماني ومميزاته وطابعه العام وموقف العرب منه.
- الامتيازات الأجنبية والتغلغل الأوربي والهيمنة الاستعمارية.
- رد الفعل العربي على الهيمنة الاستعمارية وتعامله مع النفوذ الأجنبي.
- تجارب بناء الدولة الحديثة في العالم العربي من حيث دوافعها وأساليبها والنتائج التي أسفرت عنها.
- المخططات الاستعمارية بالبلاد العربية انطلاقا من غزو الجزائر وانتهاء بفرض الحماية الفرنسية الإنكليزية على منطقة الهلال الخصيب.
- الأوضاع الاقتصادية والحالة الاجتماعية والنشاط الفكري والثقافي للبلاد العربية.
- الإصلاحات بالبلاد العربية بين القوانين الوضعية والمرجعية الإسلامية.
- فكرة الجامعة الإسلامية ومظاهر اليقظة العربية.

3. مسألة الزعامة وإشكالية دور الشعب ومكانة البطل في صنع أحداث التاريخ العربي الحديث:

تفرض نفسها على قارئ التاريخ لكونها تتماشى مع العقلية العربية المشدودة إلى أمجاد الماضي والمتأثرة بالبطولات، والتي غالبا ما تبحث عن البطل المنقذ والزعيم الملهم،

28- توفيق سلطان اليوزبكي وآخرون، المصدر نفسه، ص. 6.

وهذا ما جعل أغلب الدراسات تأخذ بالمذهب البطولي في قراءة التاريخ، والذي يرى أن البطل هو صانع الأحداث ومحور التحولات دون أن يعطي أهمية لإرادة الجماعة وتوجهات الشعب التي بدونها ينتفي دور البطل وتنعدم الزعامة، فعلى سبيل المثال لن يجد محمد علي ولا عرابي باشا وحتى عبد الناصر مكانة لهم في التاريخ بدون تضحيات الشعب المصري، كما أن أمجاد زعماء المقاومة الجزائرية من الأمير عبد القادر إلى قادة ثورة التحرير (1954-1962م) لم تكن لتتحقق لولا إرادة الشعب الجزائري وتصميمه على مواجهة الاستعمار.

إن الأخذ بمفهوم البطل في رصد أحداث التاريخ وتفسير تطوراته يقترن بفترة الطفولة الرومانسية في حياة الشعوب، فتعيش من خلال البطل المراهقة وتتعلق بالحلم، وتجد في تصرفاته تفسيرا للاضطراب والتأزم الناتج عن القصور الذاتي عند الأزمات والتحديات. وهذا ما عبر عنه الكاتب الإنكليزي توماس كارليل (Carlyle) عندما وصف حاجة الشعب، عندما يتعرض للأخطار، إلى البطل المنقذ بقوله: «لقد عرفت شعوب تصرخ مستغيثة بأعلى صوتها: أين البطل؟ أين الزعيم؟ إنه ليس هناك، لم تبعث به العناية الإلهية، وينهار المجتمع لأن البطل لم يظهر حين نودي عليه»[29].

إن هذا المنحى في النظر إلى التاريخ من خلال تمجيد الأفراد في صورة أبطال أو زعماء قلما يتماشى مع الحقائق التاريخية، بل يتناقض ومنهج البحث التاريخي المعتمد على تحليل الأسباب وعرض العلل وتلمس التفاعلات؛ وهذا ما أضر بالتاريخ العربي الحديث وحوله إلى عرض ملحمي وسرد قصصي ساهم في ضبابية الرؤية وتخدير الذاكرة العربية المشدودة إلى الذكريات والمسكونة بصور الماضي كما تريد أن تتصورها أو تتخيلها وليس كما وقعت بالفعل، ولعل هذا ما أدى بالباحث الفرنسي آليم (Alem) أن يعلق على وهم البطولة في الذهنية العربية بقوله: «أن العرب الذين اعتادوا بعد فترة طويلة من العبودية والتبعية ظلوا دائما يحنون إلى عظمة خادعة (une fausse grandeur)، بينما هم في تاريخهم الحديث يعيشون واقعا متأزما يتصف بالانقسام وغطرسة الهيمنة الغربية، وهذا ما جعلهم يرون في كل زعامة أملا لتجاوز واقعهم»[30].

لقد تجاوزت أغلب الكتابات حول تاريخ العرب الحديث القوى الشعبية الفاعلة والرأي العام المؤثر ومظاهر الحياة اليومية التي عبر من خلالها الإنسان العربي عن وجوده لتبرز وتؤكد إنجازات البطل وآراء الزعيم، وحتى في الحالات التي يتم فيها التعرض إلى ما يتصل بحياة العامة وتوجهات الشعب فمن أجل استعمالها فيما يؤكد زعامة البطل وإضفاء الشرعية على أعماله؛ وهذا ما جعل تاريخ العرب الحديث بعيدا عن مفهوم تاريخ الأمم الحية والشعوب الناهضة التي بلغت مرحلة النضج والعطاء وتجاوزت مرحلة الرعية المأمورة إلى منزلة المواطنة المسؤولة، فظل التاريخ العربي الحديث، سواء في منطلقاته القطرية أو تصوراته القومية مشدودا إلى البطولات، يبحث دائما عن عصا يتكئ عليها أو شماعة يعلق عليها إحباطاته، بينما تحول تاريخ الأمم الغربية إلى ملحمة يصنعها الشعب وإسهام حضاري يساهم فيه الجميع، ليس فيه بطل إلا الشعب ولا زعيم إلا إرادة الأمة، وهذا ما عبر عنه جول ميشلي(1798-1874م) (Michelet) بقوله: «إن الشعب في العادة أهم

29- توماس كارليل، (930). الأبطال، ترجمة محمد السباعي، ط. 3. أنظر كذلك:
- أحمد محمد صبحي، (1990). في فلسفة التاريخ، ط. 3، الإسكندرية، المؤسسة الثقافية الجامعية.

30-Alem, J. P. op. cit., p. 6.

من قادته، لأنه الممثل الأول في دراما التاريخ... إنني اضطررت في كتابتي عن تاريخ فرنسا أن أكتشف الشعب من جديد وأرده إلى دوره الطبيعي وأن أنتقص من أحجام تلك الدمى الطامحة التي يحرك الشعب خيوطها، تلك الدمى التي تعودنا حتى الآن أن نفتش عنها وأن نتوهم فيها المحرك الحقيقي للتاريخ»[31].

وميشلي بهذا التوجه يتجاوب مع أفكار عصر التنوير التي نادى بها المفكر الفرنسي فولتير (1694-1778م) (Voltaire)عندما حدد مجال التاريخ بقوله إنه الصورة الحية للأمم والإرادة المعبرة للشعوب وليست المواقف الذاتية للأفراد والنزعة الفردية للقادة، وعبر عن ذلك بقوله: «إن هدفي هو ليس تاريخ الحروب وإنما تاريخ المجتمع... التاريخ هو كل ما يمثل شخصية الشعب... وإن الخير الحقيقي للإنسانية ليس في قوادها ولكن في فلاسفتها وعلمائها وشعرائها... إن العظمة بحق تتجلى في العبقرية والتي سمتها أن يستفيد بها الإنسان وينير الطريق للآخرين. إننا ملزمون أن نحني رؤوسنا إجلالا للذين فسروا الكون (وهم العلماء) لا إلى أولئك الذين يشوهونه (أي الساسة والقواد)»[32]. فما أحوجنا في عالمنا العربي اليوم إلى فكر فولتير ومنهج ميشلي لإعادة قراءة التاريخ العربي الحديث وصياغته حتى يصبح صورة معبرة عن حياة المجتمعات العربية ومعاناتها وطموحاتها وقدراتها وتجاربها.

سادسا: من أجل تصور جديد لتاريخ العرب الحديث

إن القضايا والمسائل المتعلقة بتاريخ العرب الحديث التي سبق عرضها، تفرض على كل مستقرئ للتاريخ العربي تساؤلا محرجا غالبا ما يحاول كل واحد منا تجنبه والتهرب من الإجابة عنه، رغم كونه يمثل إشكالية لكل من يقرأ التاريخ العربي أو يتدارسه أو يلقنه، ولعل أحسن صيغة نورد بها هذا التساؤل هي: هل هناك حقا تاريخ عربي مشترك لكل الشعوب العربية يتجاوز الخصوصية القطرية ويؤكد على الوحدة الفكرية والثقافية والاجتماعية للشعوب العربية، بحيث يمكن اعتباره معبرا عن ذاكرة الماضي وآمال المستقبل ومعاناة الحاضر، مما يكسب التاريخ العربي صفة التاريخ القومي لكافة شعوب الأمة العربية ؟

ومع إقرارنا بصعوبة إيجاد جواب مقنع لهذا السؤال، فإنه لا يسعنا إلا أن نتجاوز الإجابات المحدودة والآراء المسبقة وأن ندلي برأينا في هذا الموضوع بطرح تساؤلات أولية وملاحظات مبدئية أملا في أن تجدد نظرتنا لتاريخنا العربي وأن تدفعنا للبحث عن منطلقات جديدة وآفاق رحبة-كفيلة إن تضافرت الجهود- بإحياء الذاكرة التاريخية للشعوب العربية والعمل على تكامل صورتها وتلاحم مكوناتها، تكون منطلقا لاسترجاع الوعي بالذات وتأكيد الهوية المشتركة للشعوب العربية حاضرا ومستقبلا.

إن الخطوات الأولى التي يجب أن نسلكها في هذا التوجه من أجل صياغة التاريخ العربي المشترك في الفترة الحديثة، تفرض علينا الأخذ بالملاحظات التالية :

1. مراجعة ما كتب حول الفترة الحديثة من تاريخ العرب وذلك بقراءته قراءة نقدية، سواء فيما يتعلق بالشكل أو المضمون أو العرض، مع تقييم الإسهام التاريخي المتعلق بالدراسات الأكاديمية والأبحاث الجامعية والعروض التحليلية والوثاق المنشورة،

31-لويس عوض، (1962). دراسات في النظم والمذاهب، بيروت، منشورات المكتب التجاري. ص. 130.

32-فولتير، (1959). رسائل فلسفسة، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار المعارف. ص. 59.

حتى يمكن الانتفاع بها وتجنب إهدار الجهد الذي بذل فيها، واستبعاد ما قد يلاحظ عليها من الأحكام المتسرعة والتعميمات المبسطة والحقائق غير المهضومة وغير المتماسكة.

2. إثراء الرصيد التاريخي للفترة الحديثة من تاريخ العرب الحديث بالبحث عن المزيد من المصادر الأولية، خاصة الوثائق الأرشيفية والمخطوطات الخاصة والتقارير الأجنبية، مع تحليل ونقد نتائج الدراسات الجغرافية والأثرية والاجتماعية الكفيلة بتجديد نظرتنا إلى التاريخ العربي وتعميق فهمنا لقضاياه، والتي تسمح لنا بالابتعاد عن العرض السطحي للمعلومات والاقتباس المبسط للأحداث وتجنب الأحكام المستهلكة والاستنتاجات المتداولة والمواضيع المكررة، وبذلك يمكن لنا تحقيق رصيد تاريخي وتراكم معرفي يغني التاريخ العربي الحديث ويسمح لنا بالانتفاع من الزيادة السريعة في المعرفة التاريخية ومسايرة التطور المتسارع في استخدام مفاهيم وطرق البحث التاريخي.

3. تحديد إشكالية التاريخ العربي الحديث انطلاقا من الأسباب والخصائص والأهداف والنتائج ومن خلال نظرة موضوعية بعيدة عن الميول الإيديولوجية والقناعات السياسية، بحيث تتجنب الكتابات التاريخية العربية الخطاب الملتزم الذي يعبر عن القناعات الإيديولوجية والمواقف السياسية والآراء المذهبية والأغراض الشخصية، ويبتعد عن العرض الرسمي لأحداث التاريخ، الذي يردد آراء الحكام ومواقف الأنظمة من فهم التاريخ والتعامل مع قضاياه، مع الإصرار على الأخذ في كل قضايا التاريخ العربي الحديث بالخطاب الموضوعي الذي يتماشى ومنهج البحث التاريخي الحديث الذي يتجاوز المعالجة التقليدية الوصفية والتناول الإيديولوجي المنغلق الذي يخضع التاريخ لمتطلبات الحاضر وتصورات المستقبل[33].

4. العمل على التخلص من فكرة المركزية الأوربية (Eurocentrisme) التي تتجاهل خصوصية التاريخ العربي المشترك وتنطلق من نظرة أوربية ترى أن تاريخ الشعوب غير الأوربية لا يمكن معالجته واستخلاص نتائجه وفهم العوامل المتحكمة فيه دون تلمس التأثير الغربي، على اعتبار أن تاريخ الأقوام المتقدمة (وهي الأوربية) هو التاريخ العالمي، وأن سير التاريخ منذ القرن السادس عشر انتظم في عملية تقدمية وجدلية حديثة نتج عنها تشكل العالم المعاصر حسب النموذج الأوربي سياسيا وثقافيا واجتماعيا[34].

إن هذا المنحى في عرض التاريخ العربي ابتداء من تأثير حملة نابليون على مصر وانتهاء بقناعات النخب العربية من قضايا التحديث عشية الحرب العالمية الأولى، يتناقض وأصالة التاريخ العربي وخصوصيته، لأن هذا التوجه في الواقع هو تكريس لمنظور استعماري يرى أوربا هي المركز المؤثر والعالم العربي الطرف المتأثر؛ الأمر الذي يتوجب معه اعتماد فكرة النمو والتطور المتعدد المراكز للمدنية البشرية القائمة على الروابط المتعددة والعلاقات المتكافئة، التي تتجاوز المفهوم القديم

33- ناصر الدين سعيدوني، (2000). أساسيات منهجية التاريخ (ورقات في إشكالية البحث التاريخي)، الجزائر، دار القصبة. ص. 117-147.

- ناصر الدين سعيدوني، (26- 28مارس 2005). إشكالية دلالة النص التاريخي، بحث قدم لمؤتمر الدولي لتحليل الخطاب.

34- جفري باراكلو، (1984). الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة صالح أحمد العلي، ص. 267-268.

للمسألة الشرقية الذي يعادي العنصر الأساسي في تاريخ العرب وهو الإسلام، ويصبغ تاريخهم بروح التعصب وكراهية الأجنبي[35]؛ على أن هذا يبقى في حكم الأمنية ما لم تصل الدراسات التاريخية العربية إلى مستوى علمي يؤهلها أن تفرض نفسها وتقدم البديل وتتجاوز تأثير المركزية الأوربية.

5. إثارة النقاش وتبادل الرأي من خلال عقد المؤتمرات وتنظيم الندوات التاريخية حول «قضايا التاريخ العربي الحديث»، وتعميق النقاش حول الإشكاليات المتعلقة بها، بهدف توضيح التصورات القاصرة والتخلص من النماذج الجامدة التي ظلت تحدد رؤيتنا لقضايا التاريخ العربي، هذه الرؤية التي ترسخت لسوء الحظ وأصبحت من المسلمات، بل صارت تشكل الإطار المرجعي لتصور فهمنا ونظرتنا للتاريخ العربي الذي لا يمكن الخروج عنه وتغيير خطوطه الرئيسية ومنطلقاته الأساسية[36] دون الاصطدام بالأفكار الجامدة والرؤى المتحجرة، هذا في الوقت الذي فرضت فيه مستجدات الظروف الحالية على المهتمين بالتاريخ العربي الحديث إخضاع البرامج التعليمية للمراجعة واعتماد أسلوب التحليل والمقارنة والاستنتاج للتخلص من طريقة الإلقاء والتلقين الذي ينفر المتلقي للتاريخ ويحد من عطاء الأستاذ ولا يساعده على تطوير قدرات الطالب.

6. التوجه نحو دراسة القضايا الأساسية والمسائل المحورية في تاريخ العرب الحديث من خلال نظرة متفتحة لا تهمل التطور المرحلي والتفاعل الداخلي، وذلك لتأكيد استمرارية هذا التاريخ [37] وتواصل وقائعه وأحداثه في دلالاتها القطرية أو تعبيراتها القومية، وبذلك تكتمل صورة التاريخ العربي الحديث، سواء في مظاهر الحياة اليومية التي تتحكم في النشاط الاقتصادي والتفاعل الاجتماعي أو في العلاقات الخارجية والمواقف السياسية والميول الثقافية؛ وبذلك فقط نستطيع القول بأن العرب ماضون في تحرير تاريخهم وتخليصه من الاستلاب الأجنبي والغزو الثقافي واستبداد الزعامات وسحر البطولات، فيصبح التاريخ العربي لا يتعامل مع الأحداث المجردة والبعيدة عن واقع الشعب ومعاناته، إنما يعبر بحق عن الإسهامات الحضارية في دلالاتها وانجازاتها التي تكسب التاريخ العربي بعده الإنساني.

المراجع باللغة العربية

1. آلوم، جيلان (1997). حصاد المدرسة التاريخية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر في الخمس والعشرين سنة الأخيرة، بيروت-القاهرة، دار الشروق.

2. آندرو، هيس س. (1986). افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى، الكويت.

35-Rondot, P. (1957). Islam, Nationalisme, État moderne en Orient, in Revue Orient, n° 1/janvier.

36-لقد بدأ العديد من المؤرخين العرب يدعون إلى تجاوز واقع الدراسات التاريخية الحالي للوصول إلى فهم أعمق ورؤية أوضح ومنهج أدق وأشمل. من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر ما نشره المؤرخ وجيه كوثراني، أنظر:

- وجيه كوثراني، (1992). تأملات في البحث التاريخي العربي، دراسات مشرقية. عدد 7-8.
- وجيه كوثراني، (1994). إشكالية المنهج في الكتابة التاريخية العربية المعاصرة، منبر الحوار. عدد 32-33.

37-

3. إيفانوف، نيقولاي (1988). الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574 م)، ترجمة يوسف عطا الله، بيروت.

4. باراكلو، جفري (1984). الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة.

5. التميمي، عبد الجليل (1998). الحوار العلمي والثقافي العربي التركي، استراتيجيا التبادل والانفتاح العربي وإيديولوجية القطيعة، المجلة التاريخية المغاربية، السنة 25، العددان 89-90.

6. الجبرتي، عبد الرحمن (د.ت.). مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، (سلسلة اخترنا لك)، القاهرة، دار المعارف، ج. 2.

7. الجميل، سيار (أكتوبر 1996). العرب المعاصرون والدولة العثمانية (رؤية نقدية)، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، زغوان - تونس، العدد 24-23.

8. حسونة، محمد أمين (د.ت). مجلة الكاتب.

9. الحصري، ساطع (1960). البلاد العربية والدولة العثمانية، ط. 2، بيروت، دار العلم للملايين.

10. الخاني، علام الدين وخيمي، واصف وعفلق، صفي (1998). تاريخ العرب الحديث والمعاصر (لطلبة الصف الثالث ثانوي، فرع أدبي)، دمشق، مطبعة المنار.

11. الرافعي، عبد الرحمن (1981). تاريخ الحركة الوطنية، تطور نظام الحكم في مصر، القاهرة، دار المعارف.

12. الراقد، عبد المنعم السيد (1972). الغزوالعثماني لمصر ونتائجه في الوطن العربي، الإسكندرية، مؤسسة الشباب الجامعية.

13. سعيدوني، ناصر الدين (2000). أساسيات منهجية التاريخ (ورقات في إشكالية البحث التاريخي)، الجزائر، دار القصبة.

14. سعيدوني،ناصر الدين (2000). ورقات جزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، (طبيعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، وثائق الأرشيف الجزائري المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، نظرة في المناهج الجامعية والمؤلفات التاريخية المتعلقة بالفترة العثمانية من تاريخ الجزائر.

15. سعيدوني، ناصر الدين (26-28 مارس 2005). إشكالية دلالة النص التاريخي، بحث قدم للمؤتمر الدولي لتحليل الخطاب.

16. الشريف، محمد بديع والمحاسني زكي وعبد الكريم، أحمد عزت (د.ت). دراسات تاريخية في النهضة العربية، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة.

17. الشناوي، عبد العزيز محمد (1980). الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، 2 ج.، القاهرة.

18. الصباغ، ليلى (1973). المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية.

19. صبحي، أحمد محمد (1990). في فلسفة التاريخ، ط.3 ، الإسكندرية، المؤسسة الثقافية الجامعية.

20. عبد الرحيم مصطفى، أحمد (1986). في أصول التاريخ العثماني، ط. 2، بيروت، دار الشروق.

21. عراقي، يوسف محمد (1996). الوجود العثماني في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، دراسة وثائقية، القاهرة، بيت الحكمة للإعلام والنشر.

22. عصفور، جابر (2004/12/6). حوار المشارقة والمغاربة وتحول صيغة المركز والأطراف، بحث قدم في ندوة حوار المشارقة والمغاربة، الكويت، (عمل غير مطبوع).

23. علوي، حسن (د.ت). التأثيرات التركية في المشروع العربي، بغداد.

24. عوض، لويس (1962). دراسات في النظم والمذاهب، بيروت، منشورات المكتب التجاري.

25. فولتير (1959). رسائل فلسفسة، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار المعارف.

26. قاسم، قاسم عبده (د.ت). الرؤية الحضارية للتاريخ: قراءة في الزمن التاريخي العربي، القاهرة، دار المعارف.

27. كارليل، توماس (1930). الأبطال، ترجمة محمد السباعي، ط. 3، القاهرة، المطبعة المصرية والمكتب التجاري.

28. كوثراني، وجيه (1994). إشكالية المنهج في الكتابة التاريخية العربية المعاصرة، منبر الحوار، عدد 33-32.

29. كوثراني، وجيه (1992). تأملات في البحث التاريخي العربي، دراسات مشرقية، عدد 8-7.

30. لوتسكي (1980). تاريخ الأقطار العربية، ترجمة عفيفة البستاني، بيروت، دار الفارابي.

31. يلماز، أوزتانا (1988). تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سليمان، إستانبول، منشورات مؤسسة فيصل، المجلد الأول.

32. اليوزبكي، توفيق سلطان، وتوفيق، محمد الدين وأمين، صلاح الدين، الحركات الثورية والسياسية في الوطن العربي (للطلبة الجامعيين)، الموصل، دار الكتب للطباعة والنشر (ط. 1973 /1- ط.3/1975).

المراجع باللغات الأجنبية

33. Alem, J. P. (1964). Le Proche-Orient arabe, Paris, P.U.F .

34. Braudel, F. (1988). La Méditerranée à l'époque de Philippe II, 8ème Éd.,

Paris, (2 Vols.).

35. Hammer Purgstall, J. Von (1844). Histoire de l'Empire Ottoman, Trad. J. J. Hellert, 18 Vols., Paris, .

36. Rondot, P. Islam, Nationalisme, État moderne en Orient, in Revue Orient, n° 1/janvier 1957.

37. Sauvaget, J. (1946). Commet étudier l'histoire du Monde arabe ?, in Revue africaine, T. 90.

التاريخ، الذاكرة والسياسة: سطو فرنسا على التاريخ، حالة الجزائر(1830-2009)

أ.د. محمد القورصو
جامعة الجزائر2

ملخص:

يدعونا قانون 2005 الممجد للاستعمار إلى التأمل مليا في قضايا التاريخ والذاكرة وعلاقتهما بالسياسة من المنظور الفرنسي. إنّ إعادة التدقيق في مكانة ودور التاريخ في بلورة الأيديولوجية الاستعمارية وإسقاطاتها على حركية الحياة السياسية للأحزاب في فرنسا، جعلتنا نقف عند النتيجة التالية: وهي أنّ السياسة في فرنسا تتغذى من ذاكرتها الاستعمارية، ليس هذا فقط ذلك أن المسألة الجوهرية التي تطرح، هي مسألة حق الشعوب المستعمرة سابقا في تاريخيها الوطني. فبعد ما تعرّض هذا الحق الشرعي أثناء الاحتلال للتحريف والتشويه من طرف المدرسة الكولونيالية للتاريخ، ها هو اليوم عرضة للمزايدات والمساومات بين المتصارعين على السلطة في فرنسا دون أن يأبه أي طرف بمن حملوا هذا التاريخ على أكتافهم ونعني بهم الشعوب المستعمرة سابقا والتي يعرف تاريخها سطوا بأتمّ معنى الكلمة.

الكلمات الدالة: الجزائر، فرنسا، الاستعمار، التاريخ، الذاكرة، السياسة.

مقدمة

نحاول الوقوف في هذه الورقة عند مفهوم التاريخ في تصور فرنسا التي تكون قد دخلت فيما يمكن أن نسميه باستكمال بناء تاريخها الوطني بعد أن أدرجت بشكل قسري، تاريخ مستعمراتها السابقة في تراثها التاريخي والحضاري في عملية سطو غير مسبوقة.÷

÷لم تكن هذه المسألة وليدة السياسة المتبعة منذ تولي الرئيس الفرنسي الحالي (نيكولاي ساركوزي) مقاليد السلطة في بلاده كما أنها لم تتم بمعزل عن الصراعات والتجاذبات السياسية التي عرفتها الساحة الفرنسية منذ1958 [1] والتي تحتل فيها الجزائر ولحدّ الساعة، مكانة محورية منذ خطاب العرش بتاريخ مارس 1830 [2] وخروج حملة (المارشال ديبورمون) من ميناء طولون باتجاه الجزائر بتاريخ 25 ماي 1830 [3].

1-سقوط حكومة فيليكس فايار (dralliaG xiléF) – 13-12-1957/14-5-1958- ودعوة الرئيس بار بفيمالين (Pierre Pflimlin) في 31 ماي الجنرال ديغول إلى تولي رئاسة الحكومة (1-6-1958/8-1-1959) وسط أزمة سياسية حادة بسبب الحرب في الجزائر. أنظر:

-ALLEG Henri (sous la direction) (1981). La Guerre d'Algérie. t.2 pp.584-591. Idem., t.3, pp.13-53.
-DROZ Bernard et LEVE Evelyne (sous la direction) (1982). Histoire de la guerre d'Algérie. pp.162-180.

2- ESQUER-Gabriel : Les commencements d'un Empire. La prise d'Alger (1830).p. 189.

3-نفس المصدر ص. 285. أطلت جيوش الاحتلال على الساحل الغربي من الجزائر العاصمة في 03 ماي وشرعت في عملية الانزال البري على ساحل سيدي فرج صبيحة 41 جوان 1830.

1. السطو على التاريخ

÷اصطلاحا، السطو هو الحيازة غير الشرعية على ما للغير باستخدام القوة مهما كان نوعها. فما معنى السطو على التاريخ الذي هو تراث غير مادي وهل بالإمكان أن يكون التاريخ محل سطو؟ يكون الردّ على هذين السؤالين من خلال سؤال آخر. من سمح ولماذا خرب متحف بغداد الزاخر بالتحف الفنية والقطع الأثرية النادرة غداة الغزو الإمبريالي الأمريكي للعراق سنة 2003؟ أليس المقصود من هذا النهب لمتحف بغداد، هو في حدّ ذاته يشمل البعد الثقافي-التاريخي للعراق والعمق الحضاري لبلاد حمو رابي. ألم يصرح آنذاك قائد الأرمادة الأمريكية على العراق، أن بلاده ستعيد العراق إلى غابر العصور التاريخية وأنها ستسحقه وتحوله إلى غبار. من المفارقات أن هذه المقولة التي تحققت في الميدان، تذكرنا بمثيلتها يوم تكتلت الدول الأوروبية ضد الجزائر في مؤتمر آكس لاشبال سنة 1818، الذي شهد وضع اللمسات العملية والأخيرة لمشروع قديم، الغاية منه القضاء «على وكر قراصنة÷ الجزائر» الذين أسسوا لقوة بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاثة قرون ونيف (1830-1518) إلى أن وقعت÷ الجزائر المحروسة فريسة الغزو الفرنسي في 19 جوان 1830.

إن المقصود بالسطو على التاريخ هو تجريد سكان البلد المستهدف من ذاكرتهم عن طريق تحريف وتزييف وتشويه وتبديد ماضيهم حتى تفقد الأجيال الناشئة مرجعياتها الأصلية بل أكثر من ذلك عمقها التاريخي الذي هو مصدر اعتزاز كل الشعوب لاسيما منها تلك التي قاومت الاستعمار.لم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ، إذ الهدف من عملية السطو هو الاستحواذ على الممتلكات المادية[4] وغير المادية للشعوب المستقلة وإدراجها ضمن المنجزات الحضارية للدولة المحتلة. أما كلمة التاريخ فتكتسي في هذا المقام مفهوما عاما بمعنى كل ما من شأنه أن يحفظ الذاكرة كالمتاحف والمكتبات ومراكز الدراسات المتخصصة والمواقع الأثرية على اختلاف أصنافها، من ما قبل العصور الحجرية إلى مخلفات الاستعمار ودور الأرشيف إلخ.

÷أما إذا حاولنا تشخيص «السطو التاريخي» من الناحية السياسية، فهو إقدام فرنسا على سلخ الشعوب التي احتلتها من ذاكرتها وتاريخها؛ واعتبار أن لا تاريخ إلا تاريخ الدولة المحتلة، ولا وجود لمؤسسات إلا لمؤسساتها، ولا وجود لشعب غير الأوروبيين. فالسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح بعد قرابة نصف قرن من الزمن، هل دخلت «المستعمرات÷ الفرنسية السابقة» مرحلة جديدة من تاريخها يكون فيها لدور البحث الفرنسية، الرسمية منها وشبه الرسمية، الدور الريادي في الإعداد لثقافة تاريخية÷ جديدة÷ تتخذ من العولمة والقيم الإنسانية بالمفهوم الغربي مطية لمواصلة «الرسالة الحضارية» التي قطعت الحروب التحريرية حبلها؟

هناك مسألة أخيرة. في حالة السطو على البنوك مثلا، يكون الجاني عصابة من الأشرار غالبا ما يمثلون بعد إلقاء القبض عليهم أمام الهيئات القضائية التابعة لبلدانهم أو في حالات

4- قامت إدارة الاحتلال بسرقة قطع كاملة من الآثار الرومانية والإسلامية من الجزائر، وضعتها بعد ذلك في متحف (اللوفر) بباريس كما سرقت عديد المخطوطات باللغة العربية التي نجت من النهب (أنظر فهرس المخطوطات العربية بالمكتبة الوطنية، بباريس)، أما عشية استرجاع الجزائر سيادتها الوطنية فأصدرت سلطات باريس أوامر وتعليمات لترحيل أرشيف الجزائر الموجد حاليا بـمركز الأرشيف لما رواء البحر بـ (آكس آن بروفانس). أنظر :

Mehenni, Akbal (2004). Le Contentieux archivistique algéro-français. Thèse de Doctorat en Sciences documentaires soutenue au Département de Bibliothéconomie et des Sciences Documentaires, Université d'Alger, p. 365, non éditée.

خاصة ونادرة أمام هيئات جنائية دولية. ولكن عندما يتعلق الأمر بشخص معنوي تمثّله الدولة بمختلف مؤسساتها، فتأخذ المسألة بعدا سياسيا ودبلوماسيا تحكمه قوانين البلاد المسطو عليها لما في ذلك من تعدّ صارخ على السيادتها الوطنية من جهة وإخلال بالعلاقات الدولية من جهة أخرى؛ مما يستوجب حشد كل ما تملكه الدولة المعتدى عليها من إمكانات وما يتوفر لديها من آليات سياسية ودبلوماسية وقانونية واقتصادية وثقافية للتصدي للسطو.

2. التاريخ والسيادة الوطنية

إن التاريخ جزء من السيادة الوطنية. هذا المبدأ الذي لا يقبل النقاش لأنه حق طبيعي÷ تشترك فيه كافة شعوب العالم، أضحى محل تطاول من طرف الدولة الفرنسية التي سنت ترسانة من القوانين تسمح لها بتدوين تاريخ الشعوب التي استعمرتها، مما يجعلنا نتساءل إن هي الحرب على التاريخ وبخاصة تاريخ الجزائر بجميع مراحله، لاسيما مرحلتي الاحتلال الفرنسي(1830-1962) والثورة التحريرية الجزائرية (1954-1962)؟

لقد شهد العالم منذ قرابة عقد من الزمن عودة قوية للتاريخ كان من ورائها عدد من الدول الغربية (فرنسا وقبلها بريطانيا) والآسيوية (اليابان) غير أن هذه العودة لم تكن دعوة للاهتمام بالتاريخ كتراث وطني وإنساني في آن واحد من شأنه المساهمة في التقارب بين الشعوب والأمم وتضميد جراح الماضي القريب والبعيد خدمة للسلم العالمي ورفاهية شعوب المعمورة.جاءت هذه الدعوة منافية تماما لحق الشعوب في تاريخها وثقافتها الوطنية. فهل العالم أمام حرب استباقية من صنف جديد الهدف منها التصدي لعديد الأصوات التي تطالب بتجريم الظاهرة الاستعمارية مع تعويض الدول المحتلة التي أصيبت÷ بأضرار مستدامة؟ أو بعبارة أوضح، هل من علاقة بين المطالبة بتجريم المحتل مهما كان، والسطو على تاريخ وذاكرة وثقافة الشعوب المستعمرة سابقا؟ وأخيرا، هل السطو طفرة من طفرات التاريخ، أم أنه سياسة وعقيدة؟

3. التاريخ في تصوّر فرنسا

لم يكن المقصود في هذه الورقة، التّأريخ لمفهوم التاريخ في فرنسا منذ نشأتها إلى اليوم وإنما محاولة كشف الآليات التي مهدت لسياسة السطو التي اكتست مظهر الأيديولوجية الكولونيالية.

÷جاءت كلمة التاريخ، في القاموس الكولونيالي الفرنسي، مرادفة لعبارة «الإمبراطورية الفرنسية» وغداة سقوط هذه الأخيرة أصبحت مرادفة للثلاثية الكلاسيكية « فرنسا-الجمهورية-الأمة» وللثنائيتين «الجمهورية-الحضارة» و«تاريخ فرنسا». في مثل هذه الحالات، تحمل كلمة التاريخ عند النطق بها معاني الاعتزاز والأنفة والإثارة في نفس الوقت، خاصة إذا كانت محملة برسائل مشفرة كما حدث عدة مرات مع الجنرال ديغول الذي تتحول الكلمات على لسانه إلى÷ رسائل تعبوية تهزم خصومه السياسيين والعسكريين[5]. ÷

5-مجموعة من الجنرالات: (شالChalle)، (زيلارZeller)، (جوهوJouhaux)، و(صالونSalan) يتمرّدون ما بين 22 و25 أفريل 1961 على الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول المتهم بتخليه عن الجزائر لصالح جبهة التحرير الوطني ويستولون على السلطة في الجزائر. عرفت هذه الحركة بـ«انقلاب الجنرالات». أحبطها الجنرال ديغول من باريس بإلقائه خطابا شديد اللهجة وصف فيه الانقلابيين بحفنة من الجنرالات (كارطيرون) فكان لهذه العبارة وقع شديد على باقي ضباط وجنود الجيش الفرنسي في الجزائر الذين انقلبوا على الانقلابيين وبذلك قضي على التمرّد.

إن أول من أعطى بالغ عنايته في فرنسا، منذ منتصف القرن العشرين بالتاريخ؛ كمرجع وذاكرة مؤسساتية؛ هو الجنرال ديغول. مما يعني أن الموضوع سابق للتشنجات السياسية التي تكون قد تسببت فيها الجزائر[6]. حسب ما تعكسه الأدبيات السياسية والتاريخية الفرنسية، فكل الرؤساء الفرنسيين الذين تعاقبوا بعد ديغول على قصر (الإيلزي)، لم يحيدوا عن نهجه مع الملاحظة أن مسألتي الذاكرة والتاريخ الكولونياليين امتزجا امتزاجا قويا بالسياسة في عهدي (جاك شيراك) ونيكولا ساركوزي أي منذ÷ 1995إلى يومنا هذا.

وبعيدا عن كل مبالغة لغوية، شكل التاريخ وقود السياسية الفرنسية، الداخلية منها والخارجية. فعندما أراد الجنرال ديغول تحريك همم الفرنسيين7 غداة احتلال باريس (14جوان 1940) وأجزاء معتبرة من فرنسا ما بين 7 جوان 1940 و8 ماي 1945 من طرف جحافل الجيش النازي، استنفر بني جلدته وجيوش المستعمرات باسم «مجد فرنسا العظمى». فأمكن للرجل الجديد أن يفتح باسم ما يسمى اليوم في فرنسا بـ «التاريخ المشترك»، جبهتين متكاملتين: جبهة المقاومة المسلحة وجبهة التعبئة النفسية المخلّدة لحدّ الساعة لـ : «فرنسا التاريخية»، «فرنسا الحرّة»، «فرنسا المقاومة» وكلها مرادفات لكلمة التاريخ بمفهومه البطولي والحضاري وظفها ديغول لينسي الفرنسيين هموم الاحتلال الألماني وتهميش بلدهم في المحافل الدولية[8] عشية أفول نجم (هتلر) واستسلام ألمانيا النازية.

يرى ديغول أن التاريخ جزء أساسي في تكوين «فرنسا الماضية والحالية والمستقبلية»[9] وأن مؤسسات الدولة الفرنسية جزء لا يتجزأ من التاريخ بل إن مردّ تطوّر المؤسسات الفرنسية هو التاريخ الذي ساهمت فيه أجيال متتالية وشعوب عدة عاشت تحت سماوات مختلفة وعلى ضفاف أنهار وبحور مترامية الأطراف (ص. 7-9). فإذا كانت من وجهة نظره «الحقائق الأساسية للأمة» بمثابة «المحرّك الأول» و«الجغرافية» بمثابة «المحرّك الثاني» فإن التاريخ وما ينطوي عليه من «أيديولوجيات وخيارات سياسية»، هو «المحرّك الثالث»[10]. فالوعاء الذي تنصهر فيه الأمة التي تجمعها جغرافية واحدة، هو التاريخ، تلك المرآة العاكسة لكل التطورات والمتغيرات. فلا غرو إذا عنون ديغول الفصل الأول من مذكرات الأمل بـ: «المؤسسات». أما أول جملة افتتح بها هذا الفصل فكانت عن مكانة وأهمية التاريخ في حياة فرنسا. «جاءت فرنسا من أعماق العهود. إنها حيّة. [و] العصور تناديها» (مذكرات الأمل، ص.7). ان نظرة ديغول لتاريخ فرنسا، تتجاوز حدودها الإقليمية، بل حدود إمبراطوريتها الاستعمارية لتشمل الكون بأسره. أما من حيث البعد الزمني فـإن «ماضيـ[ها] وحاضر[ها] ومستقبلـ[ها] لا يقبلون الانحلال» (مذكرات الأمل، ص.7) ويستطرد قائلا «ومن ثمة فإن الدولة،المكلفة بشؤون فرنسا، لمسؤولة في ذات الوقت عن ميراثها÷ السابق، عن مصالحها

6- ترجع بعض الأقلام الفرنسية تشنج العلاقات بين البلدين إلى مطالب الاعتذار التي رفعتها الجزائر على لسان الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في الجمعية العامة الفرنسية سنة 2000 وفي كل المناسبات التاريخية، خاصة بمناسبة ذكرى مجازر 8 ماي 1945.

7- كان الجنرال ديغول يشغل منصب نائب كاتب الدولة في حكومة (بول رينوPaul Reynaud) عشية احتلال باريس من طرف الألمان وتوقيع اتفاقية السلام يوم17 جوان 1940بين (هتلرHitler) و(بيتانPétain)، رئيس الحكومة الجديد. غادر ديغول باريس باتجاه لندن حيث وجه كلمته المشهورة: «خسرت فرنسا معركة ولكنها لم تخسر الحرب». بعث نداء 18جوان 1940 للجنرال ديغول، مؤسس حزب «فرنسا الحرّة» و«الحكومة الفرنسية المؤقتة»، الأمل في نفوس الفرنسيين الذين شرعوا في تنظيم المقاومة وهبوا لتحرير عاصمتهم باريس.

8- غيبت فرنسا عن مؤتمرات واشنطن (جانفي 1941)، الدار البيضاء (فبراير 1943) طهران (نوفمبر 1943)، يالطا (فبراير 1945) بوطسدام (17 جويلية- 2 أوت 1945)

9-GAULLE (de) : Mémoires d'espoir, p.7.

10-PEYREFITTE Pierre : c'était de Gaulle

الحالية وعن آمالها المستقبلية» (مذكرات الأمل، ص.7). هذه بالتأكيد ورقة طريق وجهها ديغول لمن سيتوالون من بعده على رأس الدولة ومؤسساتها.

ولكن في سياق تاريخي وسياسي آخر، لا تخلو هذه المقاربة من النزعة النيوكولونيالية التي تميّز بها الجنرال ديغول والتي حجبت عنه عزيمة الشعوب في تقرير مصيرها. فـ«الأمة» في مفهومه، هو الشعب الفرنسي سواء تواجد داخل الحدود الإقليمية لفرنسا أو كان منتشرا عبر مستعمراتها التي÷ تسكنها «شعوب» و«أعراق» مختلفة (مذكرات الأمل، ص.7). أما «الجغرافية» فهي تلك الأطراف المترامية للإمبراطورية الاستعمارية التي كانت مفخرة فرنسا عند الشدائد (الحرب مع بروسيا في 1870، الحربين÷ العالميتين 1914-1918 و1939-1945 [11]. وأما «المؤسسات»، فهي ذلك الساعد القمعي، التعسّفيّ÷ الذي لو لاه لما÷ بقيت فرنسا ما بقيت في مستعمراتها.

إن مأسسة (institutionalisation) المقاربة الديغولية للشأن التاريخي وتبنيها من طرف أحزاب اليمين وحتى اليسار (في عهد ميتران على وجه الخصوص) حوّلها مع مرّ الزمن إلى ثقافة سياسية تفاعلت معها الأوساط الجامعية (ظهور التيار التحريفي للتاريخ[12] وشرائح عريضة من المجتمع الفرنسي التي غذتها نزعة منظمة الجيش السري (O.A.S) والأقدام السوداء المتأصلة في جنوب فرنسا حول مدن مرسيلية، باربينيون، طولون، نيس وغيرها من المدن التي استقطبت الأوربيين النازحين من الجزائر غداة التوقيع على اتفاقية (إيفيان) واستفتاء تقرير المصير(3 جويلية 1962). تعتبر اليوم هذه المدن خزانا لأصوات اليمين، تتهافت عليها الطبقة السياسية بمختلف حساسياتها الأيديولوجية بمناسبة كل الاستحقاقات الفرنسية المصيرية.

4. مراحل سطو فرنسا على تاريخ الجزائر 1830-2000

يقول محيي الدين جندار[13] : «إن الصنيع الكولونيالي نمّط الفكر التاريخي الفرنسي والأوروبي لشمال إفريقيا». هذه النمطية تحوّلت تدريجيا وتحت تأثير ومتطلبات الاحتلال العسكري ثم الإدارة الكولونيالية وأخيرا تحت ضغط الكولون الذين آل إليهم الأمر أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين[14]، إلى عقيدة تاريخية غذتها «المدرسة الفرنسية العتيقة»[15] بما أنجزته من دراسات أعدت من طرف ضباط جيش الاحتلال ما بين1837 إلى غاية 1880 وأعطتها بعد ذلك أقلام «مدرسة جامعة الجزائر»[16] التي تأسست سنة 1880، بعدا أيديولوجيا تناقلته مختلف الأجيال التي درّست وتخرجت من جامعة الجزائر. بعد 1962، تولى هذه÷ المهمة مركز الأبحاث والدراسات حول مجتمعات البحر المتوسط»17 اختصارا بالفرنسية (كراسم) الذي وسع فضاءه البحثي فأصبح يعرف بـ: معهد الأبحاث

11-كانت الجغرافيا الاستعمارية حاضرة بقوة أثناء حرب التحرير حيث اعتمدت فرنسا على الشعار التالي : « من دنكارك إلى تامنراست، بلد واحد».

12-Le courant révisionniste.

13- DJENDER Mahieddine : Introduction à l'histoire de l'Algérie…p.90.

14-منح قانون تنصيب الوفود المالية في 23أوت 1898 سلطة سياسية كبيرة للكولون.

15-La *Vieille Ecole Française* (137-1880).

16-*L'Ecole Universitaire d'Alger* 1880-1962.

17-*Le Centre de Recherches et d'Etudes sur les Sociétés Méditerranéennes*. (C.R.E.S.M.)

والدراسات حول العالم العربي والإسلامي»[18] اختصارا بالفرنسية (ايريمام) يوجد مقره بمدينة (آكس آن بروفانس).÷ يتبع (ايريمام) لـ: المركز الوطني للبحث العلمي»[19] الفرنسي وينشر حولية سنوية تعرف بـ: حولية شمال إفريقيا»[20]. إلى جانب ذلك خصصت بعض الجامعات في باريس، روان، ومرسيليا كرسي الأستاذية لتدريس تاريخ المغرب والجزائر.

1.4. من تحريف وتقزيم تاريخ الجزائر (1962-1830)[21]

اكتسى السطو على تاريخ بلدان المغرب عموما والجزائر على وجه الخصوص، أوجها وأشكالا مختلفة اشتركت فيه كافة القوى العسكرية (منتصف القرن التاسع عشر) والحساسيات السياسية والفكرية (القرنين العشرين والحادي والعشرين) سواء كانت داخل أو خارج السلطة، ولقد ظهرت بوادر هذا السطو غداة احتلال الجزائر بإقدام قادة الجيش الغازي ومن حذا حذوهم من الباحثين والدارسين الفرنسيين والأوربيين، على÷ تركيز كامل عنايتهم على تاريخ شمال أفريقيا والجزائر وجغرافيتهما الطبيعية والبشرية والثقافية والدينية واعتبار تعدد وتشعب مظاهرها،عوامل تفرقة وضعف وتفتيت.إن أولى مظاهر هذا السطو هو تجريد تاريخ المنطقة من وحدتها التاريخية والتركيز على عدم قدرتها على بناء مؤسسات تضمن لها التواصل والاستمرارية التاريخية والحضارية. وسبب ذلك حسب رأيهم دخول «العرب» وانتشار الإسلام في «بلاد البربر».

يرى محيي الدين جندر، أن عدم تكافؤ القوى بين دولة إمبريالية في أوج عظمتها وشعب لا زالت تحكمه قوانين النظام الإقطاعي، هي السبب الرئيس في هزيمة هذا الشعب الذي فرض عليه جيش الاحتلال ثم من بعده النظام الكولونيالي سيطرتهما المطلقة عبر كامل ربوع الجزائري. تولّد عن انهزام الشعب المحتل وتشتيت قواته الحيوية، إحساس قوي لدى÷ منظري الاحتلال من عسكريين وسياسيين ودارسين وجامعيين، أن هذا الشعب آيل لا محالة إلى÷ الزوال. فكيف تحوّل هذا الإحساس إلى عقيدة غذتها دراسات وتحاليل عسكرية راهنت على قوتها وجبروتها من جهة، وقناعتها الراسخة بأن الجزائر فرنسية ولا يمكنها أن÷ تكون إلا كذلك، من جهة أخرى. هذا ما سنتعرض له من خلال عيّنة من الدراسات التي اعتبرت رائدة في وقتها، بل ولا زالت كذلك في بعض الدوائر، ليس فقط في فرنسا فحسب ولكن حتى في الجزائر.

جاء في كتاب أرناست مارسيي المعنون: تاريخ تموقع العرب في إفريقيا الشمالية÷[22] أن «غزو الهلاليين تسبب في انحلال سياسي وأخلاقي » وعندما « أصبح العرب القوة الوحيدة لهذه المماليك، فرضوا إرادتهم على ملوك البربر وتسببوا بغدرهم وثوراتهم في فك، بشكل نهائي، وحدة شعب الأهالي الذي مزقته حروب غير متناهية÷ بين المرينيين وبني عبد الواد والحفصيين» (ص.314).

18-*Institut de Recherches et d'Etudes sur le Monde Arabe et Musulman* (I.R.E.M.A.M.)

19-*Centre National de la Recherche Scientifique* (C.N.R.S.).

20-*Annuaire de l'Afrique du Nord*.

21-لم نطمح من الأساس إلى التعرّض لكل ما صدر عن المدرسة الكولونيالية والفرنسية منذ 1830إلى 1962. الغاية من هذه الورقة هو الوقوف عند عيّنة من الدراسات التي أسست للتيار التحريفي الفرنسي الذي أخذ طابعا ثقافيا واجتماعيا وسياسيا غداة 1962.

22-MERCIER Ernest : Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale.

÷÷ ÷÷1.1.4. **أرناست مارسيي** (1878–1955)[23]

÷خرج هذا المترجم العسكري بخلاصة مفادها أنه: «يمكن التنبؤ بأن الاحتلال الفرنسي للجزائر سيتمخض عنه بعث لإفريقيا الشمالية، ليس عن طريق إحياء العرقيات المحكوم عليها بالانطفاء، ولكن عن طريق تثبيت العنصر الأوروبي في البلاد» ص.358. من الواضح أن الغاية، هي تبرير الغزو والاحتلال. لكن هل سيكون «الانطفاء» المرتقب لسكان بلدان المغرب العربي، طبيعيا بمعنى بيولوجيا أم بفعل فاعل والفاعل في هذه الحالة معروف؟

2.1.4. **جورج مارصي** (1876-1962)

تمحورت أطروحة أستاذ كرسي الآثار الإسلامية بـ«جامعة الجزائر»[24] البروفيسور جورج مارصي، التي ناقشها في جامعة الصوربون (باريس، فرنسا) والمطبوعة سنة 1913 تحت عنوان: العرب في [المنطقة] البربرية من القرن 11 إلى القرن1425 ، حول نفس الإشكالية أرناست مارسيي. استهل مارصي دراسته بمقدمة جاء في فقرتها الأولى وسطرها الافتتاحي أن: «تاريخ [منطقة] البربر في العصور الوسطى لا تثير مطلقا [في نفسية] القارئ الفرنسي الاهتمام الذي يجده عند [مطالعته] تاريخ البلدان الأوروبية». هو فما السبب يا ترى؟ «هناك أشياء كثيرة تنفر القارئ الفرنسي رغم وقوعه تحت سحر هذه المناطق البعيدة» يقول مارصي الذي أعدّ قائمة طويلة من هذه المنفرات منها: «أسماء الأعلام÷ الفظة النطق، المعقدة الاستنساخ التي تجرح عينه وتثبط ذاكرته، فتتولّد لديه حيرة دائمة» (ص.1) ويرى جورج مارصي في شق آخر، أن الحرب سجال بين «البربر» و«العرب» وفيما بين كل واحد منهما بسبب البحث الدائم عن توفير الشروط الضرورية للعيش. ولأنه في نظره «لم يتحمسوا للقضايا الدينية الكبرى» ولا «يشغلهم حب الوطن الذي يبقى غريبا عنهم»، يصف تاريخهم بـ«غير المتجانس والحقير» ص.680. فمتى كانت «القضايا الدينية الكبرى» و«حب الوطن» حكرا على جنس أو شعب دون آخر؟ ولأن نظرته لتاريخ المغرب العربي÷ وإفريقيا، نظرة أوروبية محورية لا تستوعب ما هو خارج ذلك[26]، فإنه لم يقف أو لم يرد أن يقف، عند تلك الشبكة العنكبوتية التي نسجها التاريخ÷ الغابر الممتد من العصر الحجري مرورا بالفينقيين÷ والممالك البربرية والرومان والوندال والبيزنطيين إلى العرب الفاتحين والأتراك قبل وقوع الشرخ الذي أحدثه الاحتلال الفرنسي في جسم بلاد المغرب وشعوبها التي لم تميزها حسب زعمه حركية تاريخية: «لا تبدو بلاد البربر قادرة على الارتقاء بوسائلها الخاصة؛ فكان لزاما عليها أن تكون مقطورة من طرف الغير» (ص.1).

3.1.4. **إيميل فيليكس غوتيي** (1864–1940)

ثالث مرجع اعتمدنا عليه هو لـ :(إيميل فيليكس غوتيي)، المكنى بافتخار في التاريخية الفرنسية بمؤرخ «العصور المظلمة للمغرب» لنشره سنة 1927 كتابا تحت عنوان: إسلامية

23–لم نعتمد هنا على تاريخ ميلاد ووفاة المؤلفين ولكن على تاريخ طبع المراجع المعتمدة.

24–من المفارقات أن جامعة ابن يوسف بن خدة بالجزائر العاصمة، المعروفة أيضا بالجامعة المركزية، احتفلت سنة 2009 بالذكرى المئوية لتأسيس «جامعة الجزائر» (1909–2009). فهل زكت الوزارة الوصية، بصمتها المطبق، التواصل بين الجامعة الكولونيالية وبين الجامعة الوطنية ؟

25-MARCAIS Georges : Les Arabes en Berbérie du XIe. Au XIV siècle.

26–أنظر جاندار، صص. 85–117 ناصر الدين سعيدوني : أساسيات منهجية للتاريخ. دار اليقضة للنشر، الجزائر، 2000، 207ص. راجع بالخصوص «معطيات التعامل مع تاريخ الجزائر المعاصر.صص.120–122.

شمال إفريقيا. العصور المظلمة للمغرب، ولهذا العنوان قصة نوجزها على النحو التالي[27]. كتب في الطبعة الأولى الشطر الأول من العنوان: (إسلامية شمال إفريقيا)، في أعلى غلاف الكتاب بأحرف صغيرة الحجم أما الشطر الثاني منه (العصور المظلمة للمغرب)، توسط الغلاف وجاء بأحرف كبيرة الحجم غليظة الشكل، داكنة السواد، مما يدل على أنه هو العنوان الرئيس للكتاب. اختفي الشطر الأول من عنوان الطبعة الأولى : (إسلامية شمال إفريقيا) في طبعة 1937 ليستبدل بعنوان آخر: (ماضي شمال إفريقيا) الذي كتب على سطرين÷ بأحرف كبيرة وغليظة في حين كتب÷ الشطر÷ الثاني (العصور المظلمة) بأحرف جد صغيرة. حافظ الناشر (بايو)،÷في طبعتي 1952 و1964 على العنوان الأول (ماضي شمال إفريقيا) وجعل منه العنوان الرئيس للكتاب وأدرج الشطر الثاني منه (العصور المظلمة) في العنوان÷الداخلي للكتاب. لماذا كل هذه التعديلات والتغييرات المتتالية؟ ألأن الناشر وقبله المؤلف قاما بمراجعة المحتوى وتكييفه مع مستجدات البحث التاريخي والأنثروبولوجي؟ أم لأنهما تنبئا بما أفرزته سنوات ما بعد الحرب العالمية (1939-1945) من دينامكية للحركات السياسية المناهضة للاستعمار عموما والاستعمار الفرنسي على وجه الخصوص؟ لا هذا ولا ذاك. الغاية كانت تكتيكية لا غير ولم يكيّف محتوى الكتاب مع المستجدات السياسية لبلدان المغرب العربي لأن الأيديولوجية الكولونيالية التي أسست للكتاب بقيت على حالها ولم تطوّر موقفها إزاء قضايا التحرّر والمستعمرات[28].

انطلق غوتيي من العبارة العربية: «جزيرة المغرب» لبناء اشكالية بحثه الضخم التي تمحورت حول التموقع الجغرافي لهذه الجزيرة. يرى المؤلف أن «المغاربة» يديرون ظهرهم للبحر مصدر التقدم والحضارة التي لا تنفذ إليهم من» الصحراء التي تحاصر [جزيرة المغرب...]» ص.7. هكذا وبجرة قلم أقصى غوتيي÷ بلدان المغربي العربي من صرح الحضارة. تمهيدا لماذا؟ لنواصل مطالعة كتابه: «إن بلدانا قارية في اتصال مفتوح مع ما يحيط بها، تساهم دون تأخر في÷ حياة الكون. الأمر يختلف تماما بالنسبة لجزيرة، لمنطقة شديدة العزلة مثل المغرب. إن أشياء قديمة لا فائدة فيها في بلدان أخرى، يحتفظ بها [هنا] زمنا طويلا. إن الحاضر لا ينافس الماضي بوتيرة سريعة. في المغرب دام العصر الحجري أكثر من أوروبا. شيّد العديد من الدلمن[29] (نصب ما قبل التاريخ) من حجارة تحمل نقوشا رومانية» ص.7.
هل لجأ المؤلف للجغرافية لأنه جغرافي التكوين، أم لأنه حاول تفسير ما لم يجد له÷ تفسيرا باستنطاقه المحيط الطبيعي علّه يزوده بمعلومات لم تدوّن تاريخيا؟

÷

في الواقع، أسس غوتيي÷ فرضيته على ما اعتبره تخلّفا مستداما للسكان: «من بين الأعراق البيضاء المتوسطية، يعتبر المغربي بكل التأكيد المتباطئ الذي بقي بعيدا في الخلف» ص.7. ثم يواصل متسائلا: من سيوفر شروط استغلال «الطاقات الهائلة التي يتوفر عليها المغرب من خمر وزيت وصوف ومناجم ومن يحوّل هذه الثروات الكامنة من حالة الجمود إلى حالة ديناميكية... من هو منشط هذا كله في بلد تعرف جميع مقاطعاته السقم؟ المغرب

27-راجع الملحق رقم 1.

28-ومع ذلك ورد على لسان (غبرييل أودييزيو) الذي قام بكتابة تصدير الكتاب ما يلي : « ...لكنه (غوتيي) اختفى مبكرا فلم يشهد تسارع وحظوظ القومية الجزائرية الوشيكة التحقيق». ص.8. غير أن «القومية» التي يتحدث عنها أودييزيو، هي قومية كولونيالية تؤسس لـ «جزائر جديدة».

29-Dolmens.

محكوم عليه بعدم الاكتفاء بسبب المناخ» ص16. فهل من حلّ ينقذ الجزائر من الموت المبرمج؟ «التعاون» يجيب بسخاء المؤلف ص.16. ومع من؟ مع فرنسا الاستعمارية طبعا، صاحبة الكفاءات العلمية والقدرات التقنية والمالية.

2.4. ...إلى تبييض «الكارطيرون» وتخليد ذاكرة « لو.آ.آس.» (1962–2009)...

1.2.4. في عهد رئاسة الجنرال ديغول (1958 - 1968)

حكمت المحكمة العسكرية العليا التي نصّبت سنة 1961، على الجنرال السابق (أدمون جوهو)، بحكم الإعدام لمشاركته في انقلاب «الكارطيرون» ضدّ الجنرال ديغول في 25-22 أفريل 1961 في حين÷ أصدرت حكما بالمؤبّد على مدبر الانقلاب والمتهم الرئيسي[30] الجنرال السابق (راهول صالون). لم يستسغ الجنرال ديغول هذا الحكم ورأى فيه÷ محاولة ليّ اليد لحمله على النطق بالعفو في حق أدمون جوهو. يذكر الناطق الرسمي للحكومة (ألان بارفيط)، أن الجنرال ديغول غضب غضبا شديدا لإفلات صالون من عقوبة الإعدام (بارفيط) ص.(169 – 172)[31].÷

÷ديغول الذي كان مصرا على تسليط أقسى العقوبات على «الكارطيرون» وقادة ونشطاء لو.آ.آس. وكل من تعدى على أمن الدولة، يغيّر موقفه لمقتضيات سياسية داخلية فيصدر مجموعة من القوانين تمحوا جميع ذنوبهم. يمسّ العفو الرئاسي الصادر في 17 ديسمبر 1964، 173عضو من تنظيم لو.آ.آس أما قانون17 جوان 1966، فإنه شمل الضباط الذين دبروا الانقلاب الفاشل وكل مرتكبي مخالفات ضد أمن الدولة أو تلك المتعلقة بـ «أحداث الجزائر». وفي موضوع ذو صلة مع أزمة مايو 1968، وبمقتضى قانون 7 جوان، أعفى الجنرال عن كافة أسرى لو.آ.آس. أما قانون 24 جويلية من نفس السنة، فمسح جميع العقوبات المرتبطة بـ «أحداث الجزائر» بما فيها المرتكبة من طرف ضباط الجيش الفرنسي في الجزائر.

2.2.4. في عهد رئاسة الاشتراكي فرانسوا ميتران (1981-1995)

إن القوانين الصادرة في عهد الجنرال ديغول، الرجل الرمز بالنسبة للفرنسيين بما فيهم خصومه الأيديولوجيين ، فتحت شهية المتنافسين على كرسي الإيليزي، ومن يومها تحوّل التاريخ، لاسيما تاريخ ما كان يسمى آنذاك بـ» أحداث الجزائر»، إلى جزء محوري في السياسة الفرنسية الداخلية والخارجية. هكذا اصطبغت رئاسيات 1981 التي جمعت بين الرئيس المنتهية عهدته (فاليري جيسكار ديستان) وبين المترشح (فرانسوا ميتران)، بصبغة تاريخية حادة كان الفائز فيها مرشح الحزب الاشتراكي الذي عرف كيف يوظف التاريخ عاطفيا وثقافيا وسياسيا، فكانت النتيجة أن تجاوبت معه÷ القوى الاجتماعية والسياسية المنتمية لليمين المتطرف بما فيها لو.آ.آس التي استعادت سطوتها السياسية. فإذا ما دققنا في هذه العلاقة التي تبدو في الوهلة الأولى غير طبيعية بين الحزب الاشتراكي الفرنسي واليمين المتطرف، ينكشف لنا الوجه الحقيقي لليسار الفرنسي وما تحالف ميتران مع اليمين المتطرف إلا جزء من المخطط الرامي إلى الإطاحة بالجنرال ديغول الذي اعتبر إلى غاية

30- Courriere, Yves. La guerre d'Algérie-IV. Les Feux du désespoir ….p.273.

31- Peryrefitte, Alain. C'Etait de Gaulle .La France redevient la France, 1994, 598.

1964من ألد خصوم لو.آ.آس لأنهم في نظره أشدّ أعداء فرنسا.

استغل الحزب الاشتراكي الفرنسي هذه العداوة ليتحالف سنة 1965 مع اليمين المتطرف بما فيهم نشطاء لو.آ.آس. الذين دعوا إلى مناصرة ميتران، مرشّح اليسار ضد ديغول. وفي السنة الموالية، أي في 1966، قدم (غيمولي) وشيخ بلدية مرسيلية (غاسطون ديفار) والأمين العام للحزب الاشتراكي فرانسوا ميتران، مشروع قانون يقضي بإعادة عناصر لو.آ.آس إلى وظائفهم السابقة مع الاحتفاظ برتبهم العسكرية.

÷هكذا كانت الاستحقاقات التي خاضها الحزب الاشتراكي ضد غريمه اليمين الديغولي، من أقذر الحملات من الوجهة الأخلاقية لأن «حرب الجزائر» أي ثورة أول نوفمبر 1954، دخلت بورصة السياسية الفرنسية وتأكّد بعد ذلك أن فوز المرشح فرنسوا ميتران في رئاسيات 1981، كان نتيجة تحالفات سرية بينه وبين÷ قائد لو.آ.آس.، راوول صالون، ورئيس التنظيم العنصري روكور، (جاك روزو) الذي طلب من أتباعه « معاقبة فاليري جيسكار ديستان» الذي أخل بوعوده تجاه الأقدام السوداء عندما كان في سدة الحكم. وفور تنصيب فرانسوا متران رئيسا للجمهورية الفرنسية، صودق بتاريخ 3 ديسمبر 1982على آخر قانون عفو في صالح الجنرالات الانقلابيين الذين أعيد÷ دمجهم في صفوف الجيش الفرنسي مع المحافظة على رتبهم السابقة واحتساب السنوات التي قضوها في السجن سنوات عمل كما أنهم استفادوا من÷التعويض ومعاشات التقاعد كاملة، وقد برّر ميتران هاته المقايضة السياسوية بـ «أن الصفح÷ من حق فرنسا»[32]. عقب المؤرخ الفرنسي (جيل مونسرون) على ذلك بقوله: «من غير المقبول أخلاقيا اعتبار ملف جرائم الجيش الفرنسي مطويا» ص.37 [33].هكذا أصاب فارنسوا ميتران عصفورين بحجر واحد. أولا÷ تمكّن من اعتلاء كرسي الإليزي وثانيا، من طي صفحة الشرخ الفرنسي-الفرنسي بتوظيفه تاريخ «أحداث الجزائر» ولكن كما جاء في صحيفة (لومانيتي) على حساب واجب «الحقيقة في الماضي والحاضر والمستقبل»[34] بل وذاكرة الفرنسيين الأحرار الذين أعدوا سنة 2000 بيانا عرف بـ «بيان الإثنى عشر» هزّ أركان حكومة (ليونال جوسبان)الاشتراكية.

3.4. ...إلى تمجيد الاستعمار 1999-2010.

القانون الفرنسي الممجد للاستعمار:20 فبراير 2005

÷÷÷÷÷÷أبرز ما ميز هذه الفترة بعد إخفاق «اتفاقية الصداقة بين الجزائر وفرنسا»[35] التي راهن عليها الرئيسان عبد العزيز بوتفلقية وجاك شيراك، هو صدور القانون÷ الفرنسي رقم 58/2005 المؤرخ في 23 فبراير 2005 المتضمن «اعتراف الأمة [الفرنسية] والمساهمة الوطنية لفائدة÷ المرحلين الفرنسين». لم نتطرق في هذه الورقة بالتفصيل لهذا القانون الموصوف في الجزائر بـ «قانون العار» لأنه ليس موضوع هذه الورقة، لكن سنحاول الوقوف عند خلفياته السياسية لما لها من إسقاطات على تاريخ الثورة التحريرية وذاكرة

32-ليس غريبا على (ميتران) مثل هذه التحالفات وهو الذي أتهم بتواطئه مع النازي الفرنسي (طوفيي) .

33- MANCERON Gilles, REMAOUN Hassan (1993). D'une rive à l'autre. La Guerre d'Algérie. De la mémoire à l'histoire. pp.293, p.37.

34-L'Humanité ,numéro spécial guerre d'Algérie , 2001,114p.

35- BEAUGE Florence (2008). Algérie, de la guerre à la mémoire .Paris :quel avenir ?, 166p, Cf. son article : « En visite à Alger,Nicolas Sarkozy enterre le traité d'amitié entre la France et l'Algérie » pp.143-144. هذه نشرت (لوموند) الفرنسية اليومية في المقالة Le Monde بتاريخ 12-7-2007

شعب بأكمله ارتبط اسمه بمكافحة الاحتلال[36].

حلّت عبارة «حرب الجزائر»[37] محلّ «أحداث الجزائر» سنة 1999 [38] فاستغلها اليمين المتطرف والحركى÷والأقدام السوداء لتعزيز مكانتهم السياسية فزادوا في تصعيد لهجتهم واحتجاجاتهم وضغطوا بشكل غير مسبوق على السلطات الفرنسية لحملها على تلبية÷ مطالبهم[39]. الملفت للانتباه، أن القوى السياسية المتنافسة على السلطة وفي طليعتها حزب الأغلبية الإتحاد من أجل حركة شعبية (U.M.P) الذي كان يرأسه وزير الداخلية سابقا، وهو رئيس الجمهورية حاليا (نيكولا ساركوزيا)، وجدت في تاريخ فرنسا الاستعماري، أرضية لتخصيب أفكارها واستثمارها سياسيا في الداخل والخارج. داخليا، أصبح ساركوزي لسان حال فرنسا جديدة، قوية، يسودها الأمن والاستقرار. فاعتبره الكثير من الفرنسيين، المدافع الأمثل والأقدر على قمع انتفاضات «لمهمشين» في ضواحي باريس وليون ومارسيليا. خارجيا، رأت فيه نسبة عريضة من الفرنسيين، أنه المتصدي الشجاع والشرس لمطالب الاعتذار والتعويض التي رفعتها الدولة الجزائرية[40]، فهو بالتالي حامي ذاكرة الفرنسيين بل ذاكرة الدولة الفرنسية ومؤسساتها التي ارتبط ويرتبط ماضيها وحاضرها ومستقبلها بتاريخ المستعمرات الفرنسية في العالم.

لقد شكلت دوما ذاكرة «حرب الجزائر» الوتر الأكثر حساسية للقوى السياسية في فرنسا وكانت الاستحقاقات السياسية، الرئاسية منها على وجه الخصوص، فرصة لفتح ملف تاريخ فرنسا في الجزائر للمرة الألف والتذكير بتضحيات وآلام فرنسيي ما بعد 19 مارس 1962؛ كل ذلك لاستعطاف واستمالة هذه الشريحة من المجتمع الفرنسي. فماذا ترك ديغول وميتران، للرئيسين شيراك وساركوزي؟ أمضى الرئيس شيراك وقته في تخليد عدد من الأيام التاريخية ذات صلة بـ «حرب الجزائر» وتكريم الحركى تحت قوس النصر، كما رفع منحة قدامى مجندي الحربين العالميتين وعسكر فرنسا في÷ الجزائر ما بين 1954 1962 .في عهده وبطلب منه أستلم الوزير الأول (جان بيار رفران) سنة 2003 ، المسودات الأولى لقانون 2005 الذي عرضه فيما بعد الوزير المنتدب لقدامى المحاربين، حملاوي ميكاشرى، على الجمعية الوطنية الفرنسية التي صادقت عليه في جلسة ليلية وفي ظروف قيل عنها غامضة حضرها عدد قليل من نواب الأغلبية ونواب المعارضة بما فيهم أحزاب اليسار من الحزب الاشتراكي والشيوعي.÷

يعتبر قانون 23 فبراير2005، بالنظر لما سبق، ذروة ما وصلت إليه فرنسا في مجال السطو على تاريخ وذاكرة الشعوب التي استعمرتها.

• فعندما «تعرب الأمة [الفرنسية] عن عرفانها للنساء والرجال الذين ساهموا في انجاز

36-يمكن الرجوع في هذا الصدد لعدد من المراجع منها:
Rosenman Anny et Valensi Lucette. La Guerre d'Algérie dans la mémoire et l'imaginaire. Ed. Bouchène, Saint-Denis, 2004, 304p.

37-Strora Benjamin. Guerre d'Algérie : Les instruments de la mémoire.

38- أنظر الفرق بين «حرب الجزائر» و«الحرب في الجزائر» - نفس المرجع السابق، ص. 215.
فلم نحسن في الجزائر توظيف هذا التعديل الاصطلاحي؛ الذي هو إقرار صريح بارتكاب فرنسا عدوانا غير شرعي على الجزائر وخوضها حربا لا إنسانية ضد المدنيين؛ للمطالبة بحقوق الجزائر التاريخية من اعتذار وتعويض وما إلى ذلك على غرار ما فعلته فرنسا مع ألمانية ما بعد النازية.

39- Savarese Eric : Algérie, la guerre des mémoires .Ed. Non Lieu,Paris , 2007, 175p, p.56.

40- انظر رد فعل الحركى بعد خطاب الرئيس بوتفليقة في الجمعية العامة الفرنسية سنة 2000. المرجع السابق ص.59.

العمل الذي قامت به فرنسا في المقاطعات الفرنسية سابقا بالجزائر وتونس والهند الصينية وكذلك في الأقاليم الخاضعة للسيادة الفرنسية سابقا ...» المادة الأولى؛

- وعندما «تعترف الأمة الفرنسية بـالمعاناة والتضحيات المبذولة من طرف المرحلين، والأعضاء القدامى في التشكيلات المساعدة والمندمجة، والمفقودين، والضحايا المدنيين والعسكريين في الأحداث المتعلّقة بصيرورة استقلال هذه المقاطعات والأقاليم السابقة وتنحني أمامهم وأمام عائلاتهم بكل خشوع» المادة الأولى،
- وعندما «تشرك فرنسا؛ المرحلين من شمال إفريقيا والمفقودين والمدنيين ضحايا المجازر أو التجاوزات المرتكبة أثناء حرب الجزائر وبعد 19 مارس 1962 خرقا لاتفاقيات إيفيان، وكذا الضحايا المدنيين لمحاربي تونس والمغرب؛ في التكريم الذي خصت به يوم 5 ديسمبر2005 المحاربين الذين سقطوا من أجل فرنسا في شمال إفريقيا» المادة الثانية.
- وعندما تسعى القوة الاستعمارية السابقة لتأسيس «مؤسسة لذاكرة حرب الجزائر ولمحاربي تونس والمغرب بمساعدة الدولة» المادة الثالثة.

فهذا دليل قاطع على أن «الجمهورية» التي هي مفخرة كل الفرنسيين، لم تتحرّر لحدّ الساعة من تاريخها الاستعماري ومن مشروعها الإمبراطوري الذي أنعشته العولمة وحرك دواليبه التوغّل التجاري للصين ونشّطه النفوذ الاستراتيجي المتزايد للولايات المتحدة الأمريكية في القارة الإفريقية التي اعتبرتها فرنسا فيما مضى حيازة خاصة بها.

ما المادة الرابعة التي أسالت الكثير من الحبر فجاءت على النحو التالي :
«تخصص برامج البحث الجامعي لتاريخ تواجد فرنسا فيما وراء البحار وبالخصوص في شمال إفريقيا، المكانة المستحقة. وعلى البرامج المدرسية، بالخصوص، أن تعترف بالدور الإيجابي للتواجد الفرنسي فيما وراء البحار، خاصة في شمال إفريقيا، وتخصص لتاريخ وتضحيات محاربي الجيش الفرنسي المنحدرين من هذه الأقاليم المكانة المرموقة المستحقة. يشجع التعاون الذي يسمح بتوفير المصادر الشفوية والمكتوبة المتوفرة بفرنسا وبالخارج».
÷كانت هذه المادة محلّ معارضة شديدة من طرف فئة عريضة من المثقفين الفرنسيين والجامعيين على وجه الخصوص. مفجر هذه القنبلة، البروفسور (كلود ليوزو)، أستاذ التاريخ÷ بجامعة باريس7 (جوسيو)، أما زميله البروفسور (بونوا فلاز)، أستاذ بالمعهد الجامعي لتكوين المعلمين، بـفراساي والمختص في مواضيع الذاكرة، فيرى أن هذا القانون يعيد فرنسا «ثلاثين أو أربعين سنة إلى الوراء» كما أنه يرى أن مطلب «إعادة تقييم الماضي الاستعماري لفرنسا» هو «ثمرة لوبي» أعضاؤه من تنظيم الإتحاد من أجل حركة شعبية[41] أو.آم.بي. من بين الأسماء التي÷ لعبت دورا أساسيا في اقتراح÷ ثم تمرير هذا القانون، ذاع صيتها مع الصعود السياسي لـنيكولا ساركوزي، وزيرة الدفاع السابقة (2002-2007) ووزيرة الدولة وزيرة العدل الحالية -2009-(ميشال أليو ماري) والأمين العام لحزب (O.M.P) في 2002 وزير الصحة الأسبق -2004- (فيليب دوسط بلازي) والنائب ومقرر اللجنة التي تقدمت بقانون 2005 (كريستيان كاط) وكلهم من الحزب الحاكم حاليا.÷

أما إذا استنطقنا قانون 2005 على ضوء الحراك السياسي الفرنسي- الفرنسي، فإننا نلاحظ

41-Section de Toulon de la Ligue des Droits de l'Homme: Loi, histoire, mémoire. in. http//www.ldhtoulon.net 07.11.2005

أنه اكتسى صبغة المزايدات السياسوية الاستباقية تحضيرا لرئاسيات ماي 2007، التي فاز فيها رئيس حزب أو آم.بي نيكولاي ساركوزي، الخارج من÷ تحت جبّة الرئيس المنتهية عهدته جاك شيراك.

اقتداء بالجنرال ديغول، وظنا منه أن التاريخ هو الماضي والسياسة هي المستقبل ، سعى هذا الأخير إلى طي صفحة تاريخ فرنسا في الجزائر وفتح صفحة جديدة بتوقيع البلدين على «اتفاقية الصداقة». على العكس من ذلك أقحم الرئيس الفرنسي الحالي نيكولا ساركوزي، ماضي الإمبراطورية الاستعمارية، في قلب السياسة الفرنسية وما وصف في الجزائر بأنه «عمي البصيرة والذهن»[42]، هو منهج وسياسة يسريان في الميدان.

مرة أخرى كانت جزائر الثورة، حاضرة بكل ثقلها في معترك الرئاسيات الفرنسية الأخيرة. الغلبة فيها كانت للذي لعب أكثر من منافسيه وببالغ الذكاء والتحدّي على أوتار جيل «حرب الجزائر» والماضي الاستعماري لفرنسا في الجزائر، من جهة، وواجب «الدولة الفرنسية الأبدية»43 ومؤسساتها في إعادة الاعتبار «للذين تركوا كل شيء خلفهم»، من جهة أخرى. من هذه الزاوية، كانت رئاسيات 2007 شبيهة إلى حدّ كبير بسيناريوهات 1958 و1965 و1981، ميزتها الوحيدة أن الفائز فيها قام بانقلاب على التاريخ عندما حوّله من مادة معرفية وملجئ للذاكرة الأسرية والجماعية للأقدام السوداء إلى جبهة أيديولوجية تتغذى من لهيب حنين الأقدام السوداء الذي لم ينطفئ.

الخاتمة:

لم يكن قانون 23 فبراير 2005 مجرّد طفرة تاريخية. لقد مهّدت مرحلة تحريف تاريخ المغرب العربي على يد الدارسين والباحثين والجامعيين الفرنسيين في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، لمرحلة تبييض الصفحات السوداء لجيش الاحتلال الفرنسي في الجزائر (1830- 1962) وتاريخ مأسسة التعذيب والاغتيالات طيلة حرب التحرير (1954-1962). فكانت المرحلة الثالثة، المعروفة في الأوساط الفرنسية نفسها، بـ «تمجيد الاستعمار الفرنسي» امتدادا طبيعيا للمرحلتين السابقتين.

تشبع المسؤولون السياسيون الذين ارتبطت أسماؤهم بهذه المرحلة، بالإرث الأيديولوجي لأحزابهم الأصلية وتجارب من سبقهم في مناصب الدولة قبل أن يقدم بعضهم على تأسيس أحزاب جديدة إقتداء بأسلافهم تمهيدا للظفر بكرسي الإيليزي.

المراجع باللغات الأجنبية

1. Alleg Henri (sous la direction)÷(1981). La Guerre d'Algérie. Ed.Temps Actuel, Paris, t.2, 607p. Idem.,t.3, 613p.
2. Droz Bernard et Lever Evelyne÷(1991). Histoire de la guerre d'Algérie (1954-1962). Seuil, Paris, 106 p.
3. Beauge Florence (2008). Algérie, de la guerre à la mémoire. Paris÷:quel avenir÷?Ed.Chihab,Alger,166p..Cf.son article÷:«÷En visite à Alger,Nicolas

42- عبد العزيز بوتفليقة (كلمة الرئيس) : مراسيم الاحتفالات المخلدة للذكرى لـ05 لتأسيس الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. تلمسان، الأربعاء 29جوان 2005.

43-العبارة للجنرال ديغول. تم توظيفها من طرف المرشح للرئاسة 2007، نيكولا سارموزي.

Sarkozy enterre le traité d'amitié entre la France et l'Algérie÷» pp.143-144.

4. Courriere Yves (1971). La guerre d'Algérie. Les Feux du désespoir (la fin d'un empire), t.4, Ed. Fayard, 675p.
5. Djender Mahieddine (1991). Introduction à l'histoire de l'Algérie, E.N.A.L., 2e. Ed., 210 p.
6. Esquer -Gabriel÷(1923). Les Commencements d'un Empire. La prise d'Alger (1830). Editions l'Afrique Latine, Alger et Edouard, Paris, 477p.
7. Gaulle÷(de) Charles (1970). Mémoires d'espoir. Le renouveau 1958-1962, Ed. Plon, 378 p.
8. Gautier÷Emile Félix (1952). Le Passé de l'Afrique du Nord. Les siècles obscurs. Payot, Paris.
9. Journal Officiel de la République Française÷.Lois n°2005-158 du 23 f - vrier 2005 portant reconnaissance de la Nation et contribution nationale en faveur des Français rapatriés.
10. L'Humanité, numéro spécial guerre d'Algérie, janvier 2001.
11. Le Cour Grandmaison Olivier (2009). La République impériale. Politique et racisme d'Etat. Casbah. Alger, 401p.
12. Marcais Georges÷(1913). Les Arabes en Berbérie du XIe. Au XIV siècle. Ed. D.Braham (Constantine), Leroux (Paris), 771p.
13. Mercier Ernest÷(1875). Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afr - que Septentrionale, Ed. Marle, Constantine, Challamel, Paris.
14. Peyrefitte÷Alain (1994). C'Etait de Gaulle .La France redevient la France, Fayard, Paris, 598 p.
15. Rosenman Anny et Valensi Lucette÷(sous la direction de) (2004). La Guerre d'Algérie dans la mémoire et l'imaginaire. Ed. Bouchène, Saint-Denis, France, 304p.
16. Savarese Eric (2007). Algérie, la guerre des mémoires .Ed. Non Lieu,Paris, 175p.
17. Mehenni Akbal (2004). Le Contentieux archivistique algéro-français. Thèse de Doctorat en Sciences documentaires soutenue au Département de Bibliothéconomie et des Sciences Documentaires, Université d'Alger, 365 p., non éditée.
18. Strora Benjamin. Guerre d'Algérie÷: Les instruments de la mémoire, in. Rosenman A, et Valensi L. op.cit.p.215

مفتـاح الأسماء الفرنسية الواردة في المقالة

آكس لاشبال	Aix La Chapelle
أليو ماري ميشال	Alliot-Marie Michelle
الإيلزي	Elysée (l')
بايو	Payot
جوسبان ليونال	Jospin Lionel
جوهو أدمون	Jouhaud Edmond
جيسكا ر ديستان فاليري	Giscard d'Estain Valéry
دوسط بلازي	Douste-Blazy
بورمون المارشال	Bourmont (de) maréchal
ديغول الجنرال	De Gaulle (général)
ديفار غاسطون	Defferre Gaston
رفران بيار	Raffarin Pierre
روزو جاك	Roseau Jacques
روكور	Recours
ساركوزي نيكولاى	Sarkozy Nicolas
صالون راهول	Salan Raoul
لو.آ.آس.	O.A.S.
اللوفر	Louvres
ليوزو كلود	Liauzu Claude
غوتييإيميل فيليكس	Gautier Emile Félix
غيمولي	Guy Mollet

الفرنسيون الأحرار واستقلال المغرب

أ.د. زكي مبارك
أساتذ بجامعة محمد الخامس الرباط- المغرب

ملخص:

الفكرة السائدة لدى جيل المغاربة في فترة ما بعد الاستقلال، أن كفاح الحركة الوطنية المغربية ضد الوجود الاستعماري الفرنسي بمختلف أشكاله وهياكله كان عاما وضد كل ما هو فرنسي، فهم ملّة واحدة، لا فرق بين ذوي النزعة الاستعمارية و«الأحرار» منهم المدافعين عن حقوق الإنسان وحريته.

كرست هذه «الفكرة» نتيجة قلّة الأدبيات الوطنية منها أو الأجنبية، التي تناولت بالدراسة استثناء الفرنسيين «الليبراليين الأحرار»، الذين كانت لهم مساهمات هامة وفعالة في دعم الحركة الوطنية ومساندتها، كما كان لهؤلاء دور في تنوير الرأي العام الفرنسي والدولي، وفي عودة الملك محمد الخامس إلى عرشه من منفاه، وفي حلّ الأزمة المغربية ـ الفرنسية حلا سلميا.

تهدف من ثمة هذه المقالة إلى تعريف أجيال فترة ما بعد الاستقلال ببعض هؤلاء الأحرار ونشاطهم ونضالهم، ومنهم على سبيل المثال جان جوريس وروبير جان لونكي وفرنسوا مورياك.

الكلمات الدالة: إستقلال المغرب، الفرنسيون الأحرار، التاريخ السياسي، الإستعمار.

مقدمة:

تحت عنوان: «دعم الليبراليين الفرنسيين للحركة الوطنية المغربية في كفاحها ضد الاستعمار» صدر بالمجلد الأول لهذه الموسوعة بحث تناول فيه الباحث عبدالمجيد بن جلول جوانب من هذا الدعم والشخصيات الفرنسية البارزة التي ساهمت فيه معنويا وسياسيا وفكريا[1].

إن الفكرة السائدة لدى جيل ما بعد الاستقلال بخصوص كفاح المغاربة من أجل تحرير الوطن أنه كان كفاحا ضد الوجود الاستعماري بكل أشكاله ومكوناته، وكل الفرنسيين المتواجدين في مغرب الاحتلال ملة واحدة، ولا فرق بين ذوي النزعة الاستعمارية والاستغلالية وذوي النزعة المتحررة والمدافعة عن كرامة الإنسان وحقوقه المشروعة انطلاقا من قناعات عقائدية أو دينية أو إنسانية محضة.

ولعل ما كرس هذه الفكرة لدى أجيال ما بعد الاستقلال قلة الكتابات الوطنية والأجنبية التي تناولت هذا الموضوع في فجر الاستقلال وحتى السنوات الأخيرة من القرن الماضي، علما بأن مساهمة الفرنسيين الأحرار في كفاح الشعب المغربي كانت هامة وفعالة في عودة محمد الخامس إلى عرشه، وفي حل الأزمة المغربية الفرنسية حلا سلميا وحضاريا.

ينتمي الأحرار الفرنسيون إلى رجالات الفكر والسياسة والدين والمال والأعمال والإعلام والدبلوماسية والى جمعيات المجتمع المدني والمنتديات الثقافية. فبهذا الانتماء والتواجد

1- موسوعة دعم الليبراليين الفرنسيين للحركة الوطنية المغربية في كفاحها ضد الاستعمار. عبد المجيد بن جلول، ص ص 834-944.

في كل هذه المحافل، شكلوا داخل المجتمع الفرنسي السياسي قوة ضغط إحتلت القضية المغربية، بفضل مواقفهم ونشاطهم المكثف، مكانة ملحوظة بالتعبئة التي حظيت بها من طرفهم، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. عملوا على تنوير الرأي العام الفرنسي حول حقيقة الأوضاع في المغرب منذ أن اشتد الصراع بين الملك محمد الخامس والسلطات الاستعمارية بعد خطاب طنجة التاريخي، وتصاعد بعد حوادث الدار البيضاء الدامية في دجنبر 1952، وبلغ ذروته بعد إقدام السلطات الاستعمارية على نفي محمد الخامس يوم 20 غشت 1953.

رأينا من المفيد، بداية، أن نضع حركة الأحرار الفرنسيين في سياقها التاريخي والسياسي وذلك بالتوقف عند رائد من رواد الفكر التحرري الفرنسي المعادي للاستعمار واستغلال الشعوب، هو المناضل جان جوريس (Jean Jaurès)، كما اعتبرنا المناضل الاشتراكي روبير جان لونكي (Robert Jean Longuet) من الشخصيات الفرنسية الأوائل التي ساندت بقلمها وأفكارها ومواقفها مطالب الحركة الوطنية المغربية وهي في مرحلة النشوء والتطور داخل المغرب وفرنسا. بهذه المساندة الجريئة، وفي وقتها المبكر، فتح لونكي الطريق لتتبلور أفكار الفرنسيين الأحرار داخل المجتمع الفرنسي والمستعمرات.

لا يمكن التحدث عن الفرنسيين الأحرار دون التوقف عند أديب ومفكر ومناضل وظف مكانته العلمية والفكرية والأكاديمية لخدمة القضية المغربية بصفة عامة، وعودة محمد الخامس إلى عرشه بصفة أخص، إنه الأكاديمي فرانسوا مورياك (François Mauuriac).

طبعا، هناك شخصيات أخرى لا تقل مكانة ومرتبة نضالية من أجل القضية المغربية، منها من تركت مذكرات وشهادات وكتابات تاريخية وسياسية حول نضالها...ومنها من صدرت حولها مؤلفات يجد الباحث المهتم بهذا الموضوع أهمها في المراجع.

1. **جان جوريس** (Jean Jaurès) :

يمكن اعتبار جان جوريس(1859-1914م) من رجالات فرنسا الأحرار الأوائل الذين واجهوا الحزب الاستعماري الفرنسي مواجهة عنيفة، معارضين سياسته الاستعمارية والتوسعية بصفة عامة، ومخططاته لاحتلال المغرب، منبها حكومة بلاده من مغبة التورط في ما كان يسميه جوريس «بعش الزنبور المغربي» (Le guépier marocain) نظرا لموقع المغرب الجغرافي، ورغبة دول أوربية في احتلاله كإسبانيا، وانجلترا، وألمانيا، بحجة ما يربطها بالمغرب من روابط الجوار، والجغرافيا، والتاريخ، والاتفاقات التجارية وغيرها، مما جعل كل واحدة من هذه الدول تعتبره مجالا من مجالها الحيوي. لهذه الاعتبارات وغيرها، كان جوريس يعارض حكام بلاده في استعمار فرنسا للمغرب، كما كان ينتقد بشدة وجرأة سلوكات وأسلوب تعامل وتصرف الحكام الفرنسيين في المستعمرات الفرنسية المنافية لقيم الثورة الفرنسية، ومبادئ حقوق الإنسان.

وجد جوريس داخل المجتمع الفرنسي فئات من مختلف الشرائح الاجتماعية تؤيد أفكاره وتدعم مواقفه وتساند توجهاته السياسية. ومن أجل بلورة هذه الأفكار ونشرها، أصدر جوريس سنة 1904 جريدة L'Humanité. وفي سنة 1905 أسس الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي سيتميز نشاطه السياسي والفكري بمواقفه المعادية للسياسة الاستعمارية بصفة عامة، والمؤيدة لحق الشعوب المستعمرة في تقرير مصيرها متى بلغت من الوعي

والتقدم الحضاري والاجتماعي ما يمكنها ويضمن لها ذلك. ومن سنة 1905 إلى سنة 1914 ظل جوريس يناضل من أجل ترسيخ أفكاره والدفاع عنها في كل المحافل إلى أن تم اغتياله يوم 31 يوليوز 1914.

2. **روبير جان لونكي** (Robert Jean Longuet) :

يعتبر روبير جان لونكي (1987-1901م) من الفرنسيين الأحرار الرواد الذين دعموا مطالب الحركة الوطنية المغربية وهي في طور النشوء والتكون. فبحكم إنتمائه إلى أسرة ذات توجهات اشتراكية، إذ أنه ابن النائب والزعيم الاشتراكي جان لوكي حفيد مؤسس الاشتراكية كارل ماركس، فإن موقفه من الاستعمار الفرنسي لم يختلف عن مواقف أجداده. زار روبير جون لوبكي المغرب كمحام متمرن خلال سنوات 1927 و1928 و1931 في نطاق مهمته، مكنته هذه الزيارات من الاطلاع على حقائق السياسية الفرنسية تجاه الشعب المغربي، خصوصا بعد صدور «الظهير البربري» وما خلفه من ردود فعل في المغرب والبلدان العربية والإسلامية.

«... فثارت ثائرته لما شاهده واختبره أثناء اتصالاته بالمغاربة والسلطات الفرنسية، وكان من شأن هذا أن فتح عينه على التعسفات والاضدهادات التي يرتكبها الاستعمار الفرنسي، فتحدث لأبيه عن فكرة إصدار مجلة لاطلاع الرأي العام الفرنسي على حقيقة الأوضاع في المغرب»[2].

تزامنت هذه الفكرة مع اقتناع قادة الحركة الوطنية بضرورة امتلاك حركتهم أداة إعلامية خارج الوطن تعرف بمطالبهم وبنشاطهم وأفكارهم، وتفضح السياسة الاستعمارية، وترد على الحملات التضليلية التي شنتها ضدهم وسائل الإعلام الاستعمارية.

وجدت الحركة الوطنية الناشئة ضالتها المنشودة في المحامي والمناضل الاشتراكي روبير لونكي. ففي أحد اللقاءات بباريس بين لونكي الأب، وروبير لونكي الابن، ومحمد حسن الوزاني، وعمر بن عبدالجليل، واحمد بلا فريج، تمت الموافقة بين هؤلاء الأطراف على إصدار مجلة تحمل إسم «المغرب Maghreb». صدر العدد الأول منها في يوليوز 1932م، تولت تحريرها والإشراف على إصدارها شخصيات فرنسية وإسبانية مرموقة. يقول حسن الوزاني في هذا الصدد : «بصدور «مغرب» أصبح لحركتنا الفتية منبر عام في باريس، وتعبأت أقلام مغربية وفرنسية في سبيل الحملة المنظمة ضد السياسة الفرنسية في بلادنا خاصة، وفي الشمال الإفريقي والشرق العربي عامة»[3].

من مظاهر الدعم الذي قدمه المناضل الاشتراكي للحركة الوطنية المغربية مساهمته الفكرية في إعداد وتحضير وتحرير وتقديم للسلطات الفرنسية في باريس، دفتر برنامج الإصلاحات المغربية في فاتح دجنبر 1934م. ومنذ ذلك، ظلت صلاته بقادة الحركة الوطنية وطيدة، ودعمها لمطالبها ونشاطها الوطني متواصل. فمن منجزاته في هذا الباب تأسيسه لجمعية «عصبة الدفاع عن المغرب الحر» في جوان 1945م، تولى روبير لونكي رئاسة هذه العصبة التي ضمت كذلك صفوة من الشخصيات الفرنسية من أكاديميين ومحامين ورجال الفكر والقلم. كما ضمت هذه العصبة بصفتهم ملاحظين الطلاب المغاربة: احمد العلوي،

2- الوزاني. حياة وجهاد. الجزء الثالث، ص 208.

3- الوزاني. حياة وجهاد. الجزء الثالث، ص 212- 312.

واحمد الشرفي، ومحمد الخلطي. أما هدف هذه العصبة ودواعي تأسيسها فهي موضحة في بيانها التأسيسي الذي نقتطف منه الفقرات التالية :

«...هدف العصبة استحداث علاقات ضرورية بين كل الشخصيات الفرنسية والمغربية للتعريف بالمطامح الوطنية للشعب المغربي...لقد أضحى من الصعب والمستحيل الانسياق وراء نظام يتسم بالظلم والاضطهاد والعنصرية، شبيه في كثير من النقط بالنظام الذي قاومنا جنبا إلى جنب، نحن الشعوب المتعطشة الى الحرية.... إن فرنسا والمغرب كافحا معا من أجل نفس المثل العليا. إن المغرب، باسم أبنائه الذين استبسلوا وأحاط بهم المجد في ميادين الوغى والذين قدموا بسخاء دمائهم لتخليص العالم من الفاشية، يطالب بنصيبه من العدل والحرية، لأن هذه الحرب التي خضنا غمارها معا، كانت حرب تحرير بالنسبة لجميع الشعوب»[4].

بعد استقلال المغرب لم يحظ هذا المناضل بما يستحقه من عرفان وتقدير من طرف المغرب. إلا أن اهتمامه بقضاياه ظلت متواصلة إلى يوم وفاته يوم الخميس 19 مارس 1987م بباريس.

3. **فرانسوا مورياك** (1889م-1970م) (François Mauriac):

بمدينة بوردو الفرنسية ولد فرانسوا مورياك يوم 11 اكتوبر 1885م. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمؤسسات تشرف عليها الكنيسة الكاثوليكية، بعد ذلك رحل الى باريس لمتابعة دراسته الجامعية يوم 15 شتنبر 1907م، وليحتك برجالات الفكر والسياسة. حصل على ليسانس في الأدب الفرنسي واخذ يكتب مقالات أدبية في الصحف الباريسية. في سنة 1925م نراه يوقع عريضة تندد بمواقف المفكرين التقدميين من اليسار الفرنسي الشيوعي والاشتراكي، وباقي المثقفين الأحرار الذين يتعاطفون مع الثورة التحريرية الريفية ويعارضون تحالف فرنسا مع إسبانيا لمواجهة هذه الثورة الشعبية في المغرب.

غير أن مواقفه من السياسة الفرنسية في المستعمرات ستعرف تحولات بعد إطلاعه على ما ترتكبه السلطات الاستعمارية هناك من جرائم وإبادة ومظالم ومظاهر الاستغلال الفاحش التي تتنافى وأبسط مبادئ حقوق الإنسان والأخلاق المسيحية وقيمها الدينية والإنسانية. فبنشاطه الفكري المتميز هذا، يصبح مورياك عضوا في الأكاديمية الفرنسية سنة 1933م.

وفي سنة 1952م حصل فرنسوا مورياك على جائزة نوبل للآداب، وهي السنة التي اشتد فيها الصراع بين الحركة الوطنية المغربية والسلطات الاستعمارية في كل من باريس والرباط بعد الأيام الدامية التي كانت مدينة الدار البيضاء مسرحا لها على إثر المظاهرات التي نظمتها الحركة الوطنية تضامنا مع المناضل التونسي فرحات حشاد يومي 7 و8 دسمبر 1952م. لقد سالت الدماء أنهارا خلال اليومين، وتعرض قادة الحركة الوطنية إلى كل أنواع التعذيب والتنكيل والنفي، كما تم اعتقال أبرز العناصر الوطنية النشيطة من عمال، وفلاحين وتجار. أما المتظاهرون وغيرهم من الأبرياء العزل والذين قتلوا برصاص القوات الاستعمارية والاحتلالية وحتى من طرف المدنيين الفرنسيين، فقد أخفيت جثثهم في حفر جماعية سرية خارج المدينة.

4- الوزاني. عز العرب، حدثني والدي. ص .348-346

زعزعت هذه الأحداث الدامية وتصرفات الجالية الفرنسية ضمير الفرنسيين الأحرار وخصيصا منهم الكاثوليك، في كل من المغرب وفرنسا. ويأتي في طليعة هؤلاء الكاثوليك، روبير بارا (Robert Barrat) قطب رحى المركز الكاثوليكي للمثقفين الفرنسيين (C.C.I.F) في باريس. لقد توصل هذا المناضل الكاثوليكي بتقرير شامل عن أحداث البيضاء الدامية من طرف أعضاء هذا المركز المنتسبين لأسقفية الرباط التي كان يشرف عليها Mgr. Lefèvre. فهذا الأخير سبق له أن وجه رسالة إلى مساعديه والمشرفين على الكنائس بالمغرب يدعوهم فيها إلى حث الجاليات الفرنسية المستقرة بالمغرب على ضرورة التعامل مع المغاربة، أصحاب البلاد، بما تميله عليهم الأخلاق المسيحية وتعاليمها.

تدارس المركز الكاثوليكي للمثقفين الفرنسيين ما ورد في هذا التقرير حول الأحداث الدامية للبيضاء، فقرر مطالبة الحكومة الفرنسية بإجراء بحث لتقصي الحقائق حول ملابساتها وعواقبها وما خلفته من ردود فعل عنيفة في المغرب وفرنسا والمشرق العربي والعالم الإسلامي مما أساء بسمعة فرنسا وتاريخها.

من الخطوات التي أقدم عليها روبير بارا السعي الحثيث إلى إقناع الأديب والأكاديمي الفرنسي والمثقف الكاثوليكي الملتزم إلى إعلان موقفه من أحداث البيضاء كما يمليه عليه ضميره. ومن أجل ذلك، عقد مع الأديب مورياك لقاءات شارك فيها صفوة من الفرنسيين الأحرار وبعض الطلبة المغاربة المتواجدين في باريس خلال هذه الحقبة، وفي طليعتهم الطالب أحمد الطيبي بنهيمة الذي كانت تربطه بالأديب مورياك وشائج وثيقة من المحبة وصداقة خاصة.

في 13 يناير 1953م يعلن مورياك دخوله المعركة بجانب الأحرار الفرنسيين الكاثوليك بافتتاحية ملتهبة نشرها بجريدة Le Figaro ومنها هذه الفقرات :

«... إن تدخلنا في القضية المغربية بصفتنا مسيحيين، ولأننا لا نستطيع الإمساك عن الكلام وسنواصل دائما مع هؤلاء الشعوب، البحث عن فرص الإلتقاء والتقارب معهم، وعلى المسيحية والإسلام، بعد قرون من الصراع، أن يخوضا اليوم المعركة، جنبا إلى جنب،وقلب على قلب، إننا نجد أنفسنا في ميدان لا يخضع إلى السياسة ولن يبعدنا عنه أي نزاع من ورائه مصالح. إن الذين يعبدون إلها واحدا، يشعرون برابطة وشائج الأخوة بينهم مهما كانت الظروف ونؤكد أن ضحايا الدار البيضاء لن تذهب دماؤهم هدرا»[5].

بهذه الافتتاحية يعلن مورياك علانية وبشكل صريح وقوفه بجانب القضية المغربية، ويصبح بحكم مكانته الفكرية، من الشخصيات السياسية والدينية التي لها وزنها وكلمتها ونفوذها وفعاليتها في الحقل الفكري والسياسي الفرنسي. ومما دعم موقفه ووطد مركزه التأييدات التي تلقاها من مفكرين آخرين، ومن الوزن الثقيل الذين حملوا لواء الدفاع عن الشعوب المستعمرة ونادوا بحوار مسيحي إسلامي لتعميق المحبة والأخوة، ومن هؤلاء نذكر Louis Massignon و Régis Blachère اللذان أعربا له عن ارتياحهما العميق بارتفاع صوت آخر ينضاف إلى أصواتهم : «صوت فرنسا المسيحية – صوت الحق والحقيقة». كما توصل مورياك بخطاب بعث به إليه شيخ الإسلام مولاي العربي العلوي ينوه فيه بمواقف الأديب والأكاديمي المسيحي داعيا إياه إلى مواصلة نضاله من أجل توطيد أواصر التفاهم والمحبة بين المسيحية والإسلام لما فيه خير شعوب الديانتين.

5- الوزاني،عز العرب، حدثني والدي، ص .37-38

واصل مورياك نضاله من خلال قناعاته الفكرية والدينية في إطار أنشطة المركز الكاثوليكي للمثقفين الفرنسيين، ومن خلال مختلف المنابر الإعلامية والثقافية. فمن الأنشطة الهامة التي نظمها هذا المركز، الندوة الفكرية والسياسية تحت عنوان «قضايا شمال إفريقيا أمام الضمير الفرنسي» وذلك يوم 26 يناير 1952م، شارك في هذه الندوة مورياك الذي ترأس جلساتها، وكذلك روبير بارا رئيس المركز، والمؤرخ شارل أندري جوليان (C.A.Julien) والنائب الاشتراكي فرانسوا ميتران (F.Mitterand).

استاءت السلطات الاستعمارية واللوبي الكولونيالي من هذا النشاط ومن تحركات الفرنسيين الأحرار في كل من فرنسا والمغرب، ولا سيما تحركات جوليان، وبلاشير، وماسينيون. ولمواجهة هذه التحركات المكثفة عمدت إلى تنظيم حملات مضادة في كل من المغرب وفرنسا، تركزت أساسا حول الإساءة بسمعة محمد الخامس، وباتهام قادة الحركة الوطنية بالشيوعية والرجعية، وخلق أحزاب سياسية مغربية موالية للسلطات الاستعمارية، وتهييء المناخ لتنفيذ مؤامرة خلع السلطان محمد الخامس وإحلال محله سلطانا آخر.

هذه المؤامرة بدأت تتضح ملامحها وتتحدد في كل من مراكش وفاس بتنسيق تام مع اللوبي الكولونيالي في باريس، بزعامة المقيم العام السابق في المغرب الماريشال جوان (Juin).

لمواجهة هذه الحملات المضادة والمخططات الرامية إلى خلع محمد الخامس، رأى مورياك ورفاقه المنضويين تحت لواء المركز الكاثوليكي أنه يتعين عليهم استقطاب مزيدا من العناصر الفاعلة في الساحة الثقافية والبرلمانية والاقتصادية ذات التوجهات والقناعات المعادية للفكر الاستعماري بكل أشكاله، والذين لهم حضور متميز في المجتمع الفرنسي من أمثال : Rous، Izard، Blachère، Julien وهم أعمدة «مؤتمر الشعوب ضد الاستعمار»، والنائب الاشتراكي A.SAVARY، وغيرهم من المفكرين ورجال الإعلام، والجامعيين والأطباء المؤيدين لحقوق الشعوب والمدافعين عن كرامة والإنسان.

بذل المناضل الكاثوليكي روبير بارا R.Barrat مجهودات جبارة لإقناع هذه الشخصيات بضرورة الإسهام في خلق جمعية سياسية وفكرية قوية وفاعلة لمواجهة اللوبي الاستعماري وإفشال مخططاته في المغرب بوجه أخص. عقدت هذه الشخصيات يوم 3 جوان 1953م اجتماعا موسعا تدارست خلاله قضايا شمال إفريقيا بصفة عامة، والقضية المغربية بصفة خاصة، أسفر هذا الاجتماع على تأسيس جمعية تحمل اسم «فرنسا-المغرب France-Maghreb» أسندت رئاستها بدون جدال الى مورياك. كما ضمت بجانبه روبير بارا، وجوليان، وماسينيون، وبلاشير، وروس، وسفاري، وغيرهم من أقطاب الفكر والسياسة والمال والأعمال من أمثال A. De Peretti الذي كان من وراء تأسيس جمعيات سياسية وفكرية للدفاع عن القضية المغربية ومن أهمها : جمعية الضمير الفرنسي Conscience Française، وجمعية الصداقات المغربية-الفرنسية Les Amitiés Franco Marocaines اللتان ستلعبان دورا مهما في مواجهة السلطات الاستعمارية في المغرب.

تمحور نضال جمعية فرنسا-المغرب حول القضية المغربية فعملت على تنوير الرأي العام الفرنسي عن حقيقة ما يجري فيه ويحبك من مناورات وتحركات تستهدف عزل محمد الخامس وإحلال محله سلطانا آخر، يساير السياسة الاستعمارية ولا يساند مطالب وكفاح الشعب المغربي. في هذا المجال بالذات، تميز مورياك بكتاباته ومقالاته وتحليلاته وافتتاحياته الملتهبة والصريحة والموضوعية التي كان يغذي بها كبريات الصحف الفرنسية

: Le Monde ،Le Figaro، مجلة L'Observateur،L'Express،Esprit. كما تميز نشاط جمعية فرنسا-المغرب بالتجمعات السياسية والندوات الصحفية التي تعقدها، كالتي نظمتها يوم 29 يونيو 1953م ترأسها مورياك وتناول فيها الكلمة: Blachère، Massignox، الجنرال Catroux. صدر عن هذه الندوة بيان يشجب السياسة الاستعمارية الفرنسية ومخططاتها، كما يندد بالقمع والاضطهاد الذي يتعرض له الوطنيون وفئات الشعب المسالمة. كما حذر البيان من مغبة تنفيذ المؤامرة التي تدبر لخلع محمد الخامس. وفي هذا الباب سعى مورياك الى إقناع رئيس الحكومة الفرنسية بضرورة التدخل لدى المتآمرين لإيقاف مخططاتهم وتحركاتهم وذلك خلال الإجتماع الذي عقده مع رئيس الحكومة الفرنسية LANIEL يوم 15 غشت 1953م، أي خمسة أيام فقط قبل تنفيذ مؤامرة (20 غشت). عن هذا اللقاء ورد في إحدى يومياته المشهورة، «...عندما كنت أشرح له الحالة السياسية في المغرب وما يجري في هذا البلد، كان فكره تائها... لا يبالي بما أحكيه..فتيقنت أن مسألة خلع محمد الخامس لا تحظى لديه بالعناية المطلوبة».

فعلا، أقدمت السلطات الاستعمارية في المغرب على تنفيذ مخططها الرامي إلى نفي محمد الخامس يوم 20 غشت 1953م. وفي الغد، عقدت جمعية فرنسا-المغرب اجتماعا طارئا برئاسة مورياك. من المتدخلين المستشرق Massignon الذي قال : «...إن جمعية فرنسا-المغرب قد خسرت معركة، ولكنها لم تخسر الحرب. فعليها أن تواصل مهمتها التي من أجلها تأسست».

إن هذه الحرب سيقودها مورياك بعزيمة أقوى وبتصميم فاق كل التوقعات. حرب ساخنة سيعلنها ضد السلطات الحكومية في باريس، وضد المستعمرين الغلاة في المغرب، بالقلم والفكر والبيان والتبيين، في إطار جمعية فرنسا -المغرب التي أصبحت تشكل في المجتمع السياسي الفرنسي قوة ضغط فكرية وسياسية فاعلة ومؤثرة واجهت الحزب الكولونيالي مواجهة عنيفة وشرسة.

تطور النضال داخل المغرب بظهور حركات المقاومة وجيش التحرير، وتمحور هذا النضال حول مطلب أساسي : عودة محمد الخامس إلى عرشه كشرط أساسي قبل الدخول في أية مباحثات من أجل حل الأزمة المغربية الفرنسية واندلاع الكفاح المسلح في كل من المغرب والجزائر أرغم السلطات الاستعمارية على الرضوخ للإرادة المغربية... وبعودة محمد الخامس ربح مورياك الحرب. ولهذا نراه يحظى من طرف العاهل المغربي، بمجرد وصوله إلى باريس، بحفاوة بالغة، وبتقدير يليق بمكانة الأكاديمي وبكفاحه ونضاله من أجل القضية المغربية وعودة محمد الخامس إلى عرشه.

ظل مورياك على صلة وثيقة بالمغرب وبرجالاته من سياسيين ومفكرين، كما ظل يدافع عن حقوق الشعوب المستضعفة كما تمليه عليه قناعاته الفكرية والأخلاق المسيحية وقيمها الدينية والإنسانية. كتب العاهل المغربي محمد الخامس على صورة لمورياك العبارات التالية أهداها إليه : «إلى السيد فرنسوا مورياك صديق جلالتنا وصديق المسلمين الذي يحرص على الإعراب عما يمليه عليه ضميره الكريم حفاظا على الصداقة المغربية-الفرنسية التي يجب أن يحرص كل الحرص على استمرارها»

توفي الأديب والأكاديمي المناضل المسيحي يوم 1 سبتمبر 1970م، وتبعا لما ورد في توصياته، تمت مراسيم الدفن خالية من كل مظاهر البهرجة والبروتوكول. عاش متواضعا أقصى ما يكون التواضع والبساطة، وأبى إلا أن يغادر هذه الدنيا كذلك.

المراجع للتوسع في الموضوع:

- **باللغة العربية:**

1. أوفيد، جورج (1987). اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية 1905-1955. ترجمة محمد الشركي وعبدالجليل ناظم، مراجعة عبداللطيف المنوني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء.
2. رشد، عبدالله (2004). كفاح المغاربة 1953-1956. ط. المطابع المتحدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، الفرنسيون الأحرار، ص324-328.
3. الزهيري، قاسم (1984). محمد الخامس الملك المناضل، مطبعة اكدال-الرباط، نشاط جمعية فرنسا-المغرب، صفحة 154-155، نشاط الفرنسيين الأحرار، ص120-123.
4. المصمودي، حسن أحمد. صفحات حول موريك ويومياته. مجلة المعرفة، عدد خاص، ص 142-143.
5. الوزاني، عز العرب محمد حسن (1984). حدثني والدي. مؤسسة محمد حسن الوزاني، الطبعة الأولى.
6. الوزاني، محمد حسن (1984). مذكرات حياة وجهاد: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية. الجزء الثالث (1930-1934)، مؤسسة محمد حسن الوزاني، الطبعة الأولى.

- **باللغة الأجنبية:**

7. André de Peretti (2006). L'indépendance du Maroc et la France 1946-1956. Mémoire et Témoignage, éd. kawtar – Rabat, sur France M – ghreb.
8. Barrat, Robert (1953). Justice pour le Maroc. éd. Seuil, Paris.
9. Bleuchot, Hervé (1973). Les libéraux français au Maroc. Ed de l'unive – sité de Provence.
10. Corval Pierre (1956). Le Maroc en révolution. Préface du G. Catroux, Paris, Chapitre IV, Action des groupements÷: France-Maghreb, Comité d'Etudes, France Islam.
11. Delanoe, Guy. Mémoires÷: trois tomes,÷ éd. L'harmattan, Paris.
12. Dubois Roquebert,Henri (2003). Mohammed V, Hassan II, tels que je les ai connus. éd. Tarik-collection témoignages, Casablanca.
13. Julien, C.A.(1979). Une pensée anti-coloniale. éd. Sindibad, Paris.
14. Julien, C.A.(1978). Le Maroc face aux impérialismes, éd. J.Afrique, Paris.
15. Lacouture, Jean (1980). François Mauriac, éd. Seuil, Paris.
16. Liauzu, Claude(2004). Colonisation÷: Droit d'inventaire A.Colin, Paris.

17. Liauzu, Claude÷(2007). Dictionnaire de la Colonisation Française. L - rousse à Présent, Paris, p. 385.

18. Liauzu, Claude (2007). Dictionnaire de la colonisation française. Larou - se à Présent, p. 173.

19. Nataf, Félix (1975). L'indépendance du Maroc, Témoignage d'Action 1950-1956. Avant propos, de A. Bouabid, éd. Plon.

20. Paillat Claude. La liquidation.÷Histoire et documents R.Laffont, Mission de Catroux à Antsirabé, Paris, t-II Chapitre 12.

21. Overd, Georges (1984). La gauche française et le nationalisme marocain 1905-1955 t.I, L'Harmattan, Paris.

22. Rozelet, Anne-Marie (1998). Passeurs d'Espérance-Français libéraux dans le Maroc en crise 1945-1955. Afrique-Orient.

23. Stéphane, Bernard (1963). Le conflit Franco-Marocain 1943-1956. Bruxelles, tome III, Chapitre V, Le lobby Marocain de Paris France M - ghreb.

24. Yrissou, Henri. Entretiens avec S.M Mohamed V à Antsirabé et à la celle saint-cloud en 1955- In Actes du colloque international. Mohamed V : le roi leader,16-20 Nov 1987. Rabat Publication de l'Association Ribat Al Fath.

25. Zaki, M'barek (2004). Mohammed V: de compagnon de la libération à l'exilé d'Antisirabé. Imprimerie El Maarif El Jadida-Rabat, Les Français libéraux et l'indépendance du Maroc.

تجماعت في منطقة القبائل: مجلس العرش أم مجلس القرية ؟

د. محمد الهادي حارش
أستاذ محاضر، جامعة الجزائر2.

ملخص:

برزت في منطقة القبائل منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين شرارة وعي «بالمواطنة» بدلا من العروشية، بفعل الدور الذي لعبته الهجرة إلى أوروبا عموما وفرنسا بالخصوص والتأثر بالحركات القومية والعمالية، وكذا دور «تجماعت» في المنطقة، حيث أنها تعد بمثابة منتدى سوسيو- ثقافي للقرية.

وبالإضافة إلى ذلك نشير إلى مفعول عملية تراجع دور العروش بفعل كل من السياسة الاستعمارية التي كانت ترمي إلى تشجيع «الاستيطان» الأوروبي في الجزائر من خلال تفكيك البنية الاجتماعية القائمة على «العرش» والتركيبة الإقتصادية القائمة على «الملكية المشاعة»بهدف الوصول بسهولة إلى الاستيلاء على الأرض، وفعل الحركة الوطنية السياسي بمختلف توجهاتها خاصة منها الاتجاه التحرري الاستقلالي.

الكلمات الدالة: تجماعت، القبائل، العرش، القرية.

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن دور العروش السوسيو- ثقافي في منطقة القبائل؛ وقد تزامن هذا الحديث (في بداية الألفية الثالثة) مع إدراكنا وسكان المنطقة للتراجع الذي عرفه دور العروش التقليدي في منطقة القبائل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وهو تراجع تسبَّبت فيه ثلاثة عوامل أساسية : يكمن العامل الأول في السياسة الاستعمارية الفرنسية الرامية إلى تشجيع الاستيطان الأوروبي في الجزائر. وهو أمر تطلب تكريسه، كما نعلم جميعا، تفكيك القوة الاقتصادية للبنية الاجتماعية التقليدية الموجودة في ذلك الوقت والقائمة أصلا على «العرش»، من خلال تفكيك التركيبة الاقتصادية القائمة على «الملكية المشاعة» للأرض، باعتبار أن استمتلاك الأرض من طرف المعمرين يشكل قاعدة الاستيطان، ولهذا عمل المستعمر على تفتيت المجتمع الريفي، وتفكيك التنظيم الاجتماعي القائم على التعاون، وذلك بجعل الفلاح ينسلخ عن الجماعة، حتى يصبح « لقمة صائغة» في يد المستوطن (المعمر!).

أما العامل الثاني، فيكمن في بروز وعي بـمفهوم «المواطنة» في المنطقة؛ بدأت معالمه تتبلور في أذهان الناس منذ أوائل القرن العشرين، وكان ذلك نتيجة حركة هجرة، مكثفة نسبيا، لأبناء منطقة القبائل نحو أوروبا عموما وفرنسا بالخصوص، وتأثرهم جراء ذلك بمفاهيم وأفكار الحركات القومية والعمالية ـ الاجتماعية والسياسية ـ التي ظهرت في أوروبا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مما جعلهم يتخلون تدريجيا عن فكرة «العرش» لصالح فكرة « الوطن».

والعامل الثالث، يكمن في دور الحركة الوطنية بمختلف توجهاتها، خاصة الإتجاه

الاستقلالي، الذي ظهر أول ما ظهر في أوساط العمال المهاجرين في فرنسا، «وهو الاتجاه» الذي تجاوز في برنامجه الإطار «الوطني» إلى الإطار «المغاربي»، ورغم الانفصال الذي وقع فيه بداية من سنة 1933 باستقلال الجزائريين بالعمل العمل السياسي في «نجم شمال إفريقيا»، لكن الفكر ظل دائما وحدويا مغاربيا، ونظرا لدور أبناء منطقة القبائل في الحركة الوطنية، بمختلف توجهاتها، خاصة في التيار «الاستقلالي» (النجم، حزب الشعب- حركة إنتصار الحريات الديمقراطية)، فكان من الطبيعي أن يساهم هذا النضال في تنمية الوعي «بالمواطنة» في المنطقة، ويتراجع دور «العرش».

بناء على ما سبق يتبين لنا أن تراجع قوة البنية الاجتماعية للعروش، وغياب دورها في منطقة القبائل منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يمكن ترصده في ترسانة القوانين[1] الاستعمارية المتعلقة بملكية الأرض، بداية من القرار المشيخي «السناتوس-كونسلت» الذي أصدره نابليون الثالث في الثاني والعشرين من أبريل عام ثلاثة وستين وثمانمائة وألف (22-04-1863)[2]، الذي ينص في البند الثاني على تقسيم «أرض كل عرش من أعراش بلاد التل، وغيرها من الأوطان القابلة للحراثة، وتوزيعها على الدواوير التي يشملها العرش المذكور...، يقسم الوكلاء القطعة الحاصلة لكل دوار، ويفردون أقسامها لأهل الدوار وأشخاصه، ليستقلوا بملكها»[3].

كان يرمي هذا القرار إلى خلق الملكية الفردية، كما هو واضح من النص، بهدف تفكيك ومن ثم تفتيت وتشتيت أراضي العروش، غير القابلة للتنازل، حتى يسهل في مرحلة ثانية الاستيلاء عليها، بتقسيمها إلى وحدات إدارية صغيرة هي الدواوير التي حددت حدودها وإمتداد أراضيها[4].

ولما كانت الملكية، تكتسي طابع الملكية المشاعة «ملكية جماعية»، وهو ما يعد في نظر المستوطنين سدا منيعا أمام محاولاتهم شراء الأراضي، فقد عمد هذا القرار إلى خلق الملكية الفردية الخاصة بين أعضاء الدواوير، كلما كان ذلك ممكنا، وبذلك تحدث فرنسا تغييرا عميقا في اقتصاد المنطقة، بالتحول من إقتصاد تقليدي، يعتمد على وحدة أرض العرش، والاستغلال الجماعي(الملكية المشاعة)، وعدم القابلية للقسمة والتنازل، إلى إقتصاد يعتمد الملكية الفردية، مما أدى إلى خلل في الإقتصاد من ناحية، ومنح العقود للعائلات والأفراد، جعل التنازل عن الأرض «بالبيع» ممكننا وسهلا، خاصة في الأزمات كالجفاف والمجاعات.

1-ترسانة القوانين والمراسيم والقرارات، تبدأ بقراري الكونت كلوزيل(08-09-1830 و07-12-1830)القاضيان بضم أملاك البايلك وأراضي الموظفين الأتراك وبعض أراضي وأملاك الوقف، أما مرسوما 1844 و1846، فإن الأول يعد بمثابة المصادقة على ما سبق وحصل عليه المستوطنون من أراضي، بينما يفتح الثاني المجال لإلحاق أراضي أخرى بأملاك الدولة الفرنسية بحجة أن أصحابها لا يملكون عقود الملكية، بإجراءات التحقيق عن عقود الملكية في المناطق الريفية، كما تمت مصادرة أراضي البور باعتبارها دون مالك، أما مرسوم 31جويلية1845، فقد سمح للعسكريين بمصادرة أراضي كل من يقوم بنشاط عدائي ضد فرنسا، بينما ضم قانون 16 جوان1851 أراضي الغابات إلى أملاك الدولة وكذا حوالي ستين(60) ألف هكتار من أراضي القبائل.

2-أنظر حول هذا القانون :

-Bulletin officiel de l'Algérie (1863), pp. 106-108.
-Duval, Jules (2001). p. 121.

3-Bulletin officiel de l'Algérie (1863), pp. 186-230.

4-نشير في هذا الإطار، أنه تنفيذا للقرار المشيخي (1863) تم إنشاء ستة وخمسين وستمائة (656) دوار في عمالات الجزائر الثلاث(الجزائر، قسنطينة، وهران)، وتبعت هذه العملية تقسيم الأراضي والدواوير إلى ملكيات فردية، طبعا هذا تسهيلا لعملية الاستيلاء عليها لاحقا.

كان الهدف المنشود من كل هذا هو تشجيع الاستيطان، وتفتيت المجتمع الريفي وتفكيك التنظيم الاجتماعي القائم، بهدف جعل الفلاح ينسلخ عن الجماعة، ويصبح لقمة صائغة في يد المستوطن[5].

إذا كان القرار المشيخي «السيناتوس-كونسلت»، قد مهد ومكن من تفكيك «البنية الاجتماعية» القديمة «لعرش» والتركيبية الاقتصادية المبنية على الاستغلال الجماعي للأرض «الملكية المشاعة»، فإن قانون فارنيي (Warnier) الصادر في 26 يوليو (جويلية) 1873، كان يهدف أساسا إلى القضاء على الملكية الجماعية للقبائل والأعراش[6]، بأن أقر وجوب خلق الملكية الفردية ضمن أراضي العرش، فضلا عن محاولته القضاء على «عقبة» ضلت تعرقل الإستيطان، وهي إعتماد القبائل على «العرف» والعادات والتقاليد المحلية في وراثة الأرض، وما يترتب عن ذلك من «حق الشفعة»، الذي يمنع الأجنبي من الولوج إلى الجماعة «تجماعت» وبالتالي الوصول إلى «الأرض»، التي هي الأساس الذي ينبني عليه «الإستيطان»، فسعى المشرع إلى إخضاع ملكية الأرض للإدارة الإستعمارية بهدف إزالة قواعد الملكية سواء المستمدة من الشريعة الإسلامية أو العادات والتقاليد المحلية، وذلك تسهيلا «للبيع» بعد حصول أصحاب الأرض على عقود ملكية فرنسية.

هذا في الوقت الذي أزال فيه قانون الثاني والعشرين من أبريل عام سبعة وثمانين وثمانمائة وألف (22/ 04/ 1887)، مسألة عدم جواز التصرف في أراضي العرش، وأباح بيع الأراضي المشاعة، ومكن بذلك الأوربيين من إكتساب المزيد من الأراضي عدم السماح بشراء أراضي الملك الجماعية، ومكن الادارة الاستعمارية والمستوطنين من مساحات واسعة من أراضي العروش، بالاستيلاء عليها وإدراجها ضمن ملكيات الدولة أو تسليمها للمستوطنين[7].

إذا كان قانون أبريل 1887، قد سمح للأوروبيين بالحصول على عقرات داخل أراضي العرش وحتى قبل إتمام الإجرات المتعلقة بإنشاء «الملكية الفردية» بها، فإنه أباح أيضا بيع الأراضي «المشاعة» في المزاد العلني، وتحويل الأراضي غير المستغلة «البوار» إلى قطاع الدولة.

انتهجت فرنسا عدة طرق حتى تتمكن من تحقيق النتائج المرجوة من تفكيك العروش، وتفتيتها، منها التجاهل الكلي للاسم الأصلي للعرش في التقسيم الجديد، وهو ما حدث مثلا مع عرش عمراوه في القبائل الكبرى الذي قسم إلى ستة دواوير، دون أن نعثر على إسم العرش ضمن الدواوير وهي: دوار مقلع، دوار تقوباعين، دوار سيخ أومدور، دوار سيدي نعمان ودوار ذراع بن خدة، وهو شأن آث منصور، آث وغليس، آث ورتيلان، آث يعلى في القبائل الصغرى.

وقلصت أو أقتصرت في أحيان أخرى على منح إسم العرش لدوار واحد، وهو شأن عرش آث جناد الذي قسم إلى ثلاثة دواوير: دوار أث جناد، دوار إزرازن ودوار تامقوت، أضف إلى

5-رغم تجنب القبائل بيع الأرض، وعند الضرورة يبيعون للأقارب ونادرا ما يبيعون للأوروبيين، لكن مع ذلك تحايل القوانين مكن المعمرين من أراضي واسعة، حول هذا الموضوع أنظر :
- مصطفى، الأشرف (1983)، ص. 20.

6-Girault, A. (1875). p.362.
-Robe, E. (1873), pp 45-119.

7-بن داهة، عدة (2008). ج 1، ص، 379.

ذلك أن الدوار الأول، أصبح تابعا من الناحية الإدارية لبلدية سباو العليا، بينما كان دوار إزرازن وتامقوت تابعين لبلدية أزفون.

كان الهدف من كل ذلك، هو القضاء على أواصر القرابة والإحساس بالروابط بين هذه الدواوير في مرحلة أولى، ثم إثارة القلاقل فيما بينها فيما بعد بخصوص الأراضي والحدود «تيليسا»[8].

وهكذا مكنت هذه القوانين فرنسا من الاستحواذ على أراضي العروش، وتفتيت الملكيات الجماعية غير القابلة للتنازل في مرحلة أولى وتحويلها إلى ملكيات فردية، قابلة للتنازل «بالبيع» في مرحلة ثانية، وهو ما مكنها من الحصول عما لا يقل عن ربع مساحات العروش، مكنت منها المستوطنين.

لم تكن هذه الوسيلة القانونية وحدها وراء تفكيك عروش منطقة القبائل، فكانت للسياسة المنتهجة على إثر كل انتفاضة آثارا عميقة بدورها. لما يترتب عنها من نقل عروش من مناطق إلى أخرى، أو اللجوء إلى الأبعاد أو حتى النفي إلى الخارج، وهو ما حدث بشكل واضح على إثر ثورة الحاج محمد المقراني، التي تم على إثرها إبعاد، ونفي كثير من أبناء المنطقة حتى إلى كاليدونيا التي ما زالت تحتفظ بآثارهم إلى الآن، فضلا عن مصادرة أراضي الكثيرين الذين اضطروا إلى الهجرة إلى تونس ودمشق بالخصوص، إذ أصدرت فرنسا أثناء هذه الثورة مرسوم 31 مارس 1871، القاضي بمصادرة جميع أملاك الثائرين ضد الاحتلال، مهما كانت صفة هذه الأملاك[9].

وأتخذت فرنسا من قيام الثورة في منطقة القبائل ذريعة لحجز أراضي العديد من الدواوير في منطقة يسر وسباو ومناطق مختلفة لتوزيعها على المستوطنين الجدد القادمين من الألزاس واللورين[10].

اضطر بعض الذين صودرت أراضيهم للعمل في مزارع المعمرين، وهنا إكتشفوا «الاختلاف مع الآخر» الاختلاف في العادات والتقاليد والدين واللغة، ولتحصين «نقاط الاختلاف هذه» وصونها، قاطعوا التعامل مع الجهاز الإداري الخاص-إن صحت العبارة- الذي وضعته الإدارة الاستعمارية، المتمثل في : الناطور، القايد، الباشاغا، إلا عند الضرورة القصوى، وأصبح من الضروري بالتالي لتسيير شؤونهم العادية من جهاز يتولى ذلك، وهنا غاصوا في أعماق تقاليدهم، ليكتشفوا نظاما ديموقراطيا طبقه أسلافهم قبل أن تعرف أوروبا الجمهوريات الديموقراطية بمئات السنين، إن لم نقل بألفي سنة، وهو ما تعارف المؤرخون على تسميته «الجمهوريات القروية».[11]

8-بن الشيخ ، على(2002)، ص71-94.

9-لم تكتف فرنسا بتغريم الثائرين ب 11 مليون فرنك ذهبي، بل أقدمت إدارة الاحتلال على مصادرة أراضي المناصرين لهم، اذ بلغت مساحة الأراضي التي تم الاستيلاء عليها على اثر هذه الثورة 446000هكتار، فضلا عن الأراضي التي تم شراؤها من أصحابها الذين عجزوا عن تسديد الغرامات. أنظر حول هذا الموضوع: ش.ر.أجيرون، ص87، للإطلاع على قوائم الأشخاص والعائلات التي إحتجزت أملاكهم عقب ثورة المقراني أنظر:

- Bulltin officiel de l'Algérie (1871), pp.253- 254 et 257- 258
- Chentouf , Tayeb (1983) p.123.
- Idem, pp. 298- 332.

10-Bulltin officiel de l'Algérie (1871), pp. 298-332 .

11-Gsell, S. (1927), p.63.

هذه الجمهوريات القروية التي تبدو في وقت لاحق في «ثجماعت»، وثجماعت في قرى القبائل لا تمثل العرش وإنما تمثل القرية بمختلف العائلات الكبرى فيها «إذرمة» جمع أذروم، وأذروم أيضا لا يمثل العرش.

أما بخصوص ظروف تشكل هذه الجمهوريات، فيبدو من مصادرنا أن ظاهرة البداوة «الرحل» هي التي دفعت المستقرين (المزارعين) إلى التجمع في القرى[12]، التي شكلت ما يشبه «جمهوريات» مكونة من عدد من العائلات الأقنية «إذرمة»، التي تحتفظ بتماسكها وتضامنها، وحق تسوية مشاكلها بنفسها، وفيما يخص المصالح المشتركة، فهي تناقش، وتقرر في مجلس الجماعة «ثجماعت» الذي يتشكل في الأصل من رؤساء المجموعات التي تشكل الجمهورية، أي رؤوساء العائلات الأقنية «أذروم»، أو ممثلوا هذه العائلات أو أشراف منتخبون، بينما نجد في القرى الصغيرة كل البالغين يحضرون هذا المجلس[13]، ونجد في النقوش اللاتينية، إشارات إلى مجالس الكبار (الشيوخ) التي تسير قرى نوميدية، مما يدل على قدمها وعمقها التاريخي[14].

ويستشف من المصادر المتوفرة أن هذه المجالس «ثجماعت» تناقش مسائل مختلفة: صيانة الطرق، قنوات المياه، المقابر، توزيع مياه الري، توزيع الأراضي الزراعية، حيث توجد الملكية العائلية، العلاقات مع الجيران...ومن أجل فرض النظام، كانت الجماعة، تتدخل، وتضرب على أيدي المذنبين[15].

كان المجلس يملي الغرامات على الأضرار: سرقة، ضرب، جرح...، وكونوا بذلك قانونا عرفيا – أنزار– للعقوبات، وقد تكون هذه القوانين العرفية، قد بدأت تتشكل منذ ميلاد هذه الجمهوريات، التي لا تستطيع الاستمرار دون نظام يقر العقاب[16].

هذا المجلس الذي يتشكل من الشيوخ أو الذي يوجهه هؤلاء الشيوخ «العقال»، يمكن أن يكون السلطة الوحيدة في القرية، فالنصوص اللاتينية التي «تحدثت عن الشيوخ «Senior»، لا تتحدث أبدا عن حكام محليين معهم –هذا خارج المجالس البلدية– لكن يبدو أن السهر على تنفيذ أوامر المجلس، والحفاظ على النظام، كانت تسند إلى ما يشبه عمدة في أيامنا «رئيس»، وهو ما يظهر ربما في نقش لاتيني في نوميديا، تحت اسم القاضي أو الحاكم (Magistratus) إلى جانب الشيخ، كان المجلس ينتخبه لمدة سنة بناء على النقش نفسه أو دون تحديد المدة، لكن مع إمكانية عزله، وهو يختار ضمن الأشراف ويتمتع بالثروة والشجاعة والذكاء[17].

هذه هي «ثجماعت» في خطوطها العريضة، وهي الوحدة السياسية، حيث تجتمع المجموعات

12-Gsell, S. (1927), pp.61-63.

13–حول هذه القرى ونظمها أنظر :

- Hanoteau, Letournoux (1893).
- Masquaray, (1886).

14-Corpus des inscriptions latines (1881). VIII, 15 666, 15 667, 15 669, 15 721.

15- Gsell, S. (1927), p.64.

16- Gsell, S. (1927), p.65.

17- Corpus des inscriptions latines (1881). VIII, 17 327.

الاجتماعية التي هي «إذرمة»، والتي تضحي بشيء من مصالحها من أجل المصلحة المشتركة، وفوق هذه العائلات الاقنية والجمهوريات القروية، توجد القبيلة التي تشكل خطا سياسيا وعسكريا ضد الأجنبي[18].

وتتشكل القبيلة بالضرورة من مجموعات متجاورة، تجتمع من أجل حماية أراضيها، وتصبح بذلك متضامنة للدفاع على منطقة واسعة.

هذا التضامن للدفاع وحماية أراضيها، هو الذي دفع ساسة فرنسا إلى العمل على تفكيك هذه الوحدات الاجتماعية، لتسهيل عملية الاستحواذ على أراضيها لاحقا.

فإذا كانت العوامل الثلاثة السالفة الذكر (السياسة الاستعمارية الفرنسية، الهجرة، الحركة الوطنية التحررية) قد تمكنت من تفكيك الوحدات الاجتماعية والاقتصادية التقليدية، أدركنا أن الجيل الحالي من أبناء منطقة القبائل، لا يفكر بمفهوم «العرش»، ولا يعرف «العروشية» وأقصى ما يعرفه هو «أذروم»، ومستوى التفكير في المنطقة تجاوز مستوى «أذروم»، وأصبح فعلا في مستوى «الوطن» و«المواطنة».

المراجع باللغة العربية:

1. أجيرون، شارل روبير(1982). تاريخ الجزائر المعاصر1830-1976. ترجمة عيسى عصفور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
2. بن أشنهو، عبد اللطيف (د.ت). تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية في الجزائر بين1830-1962.ترجمة نخبة من الأساتذة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
3. بن داهة، عدة (2008). الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر1830-1962. منشورات وزارة المجاهدين، الجزائر.
4. بن خرف الله، الطاهر(1995). التحول الاقتصادي والاجتماعي والسياسي للريف الجزائري 1830-1962.الذاكرة، العدد 02.
5. بن شيخ، على (2002). تطبيق السيناتوس-كونسلت 22 أبريل 1863 في قبائل جرجرة، مذكرة ماجستير، جامعة تيزي وزو.
6. الرجيمي، نور الدين (2001). الحياة العقارية في الجزائر1871-1830الموثق، العدد3.
7. عدي، (1983). الهواري الاستعمار الفرنسي في الجزائر، سياسة التفكك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960،ترجمة جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت.

المراجع باللغة الأجنبية:

8. Bulletin officiel de l'Algérie(1863). N.S, Disposition du 22/04/1863 relatif à la constitution de la propriété en Algérie dans les territoires occupés par les arabes.
9. Bulletin officiel de l'Algérie(1871). N.S, decret de sequestre 17-18/03/1871.

18- Gsell, S. (1927), pp.66-67.

10. Chentouf, Tayeb (1983). le monde contemporain, éd. O.P.U., Alger.
11. Collot, Claude (1987). Les institution de l'Algérie durant l'époque col - niale 1830-1962, O.P.U., Alger.
12. Duval, Jules (1866). Réflexion sur la politique de l'empereur en Algérie , éd. A. Jordan, Paris.
13. Estoublon, Robert et Lefebure, Adolph (1869). Code de l'Algérie annoté 1830-1895, éd. A. Jordan, Paris.
14. Gsell(S), Histoire ancienne de l'Afrique du nord (8 vol), éd. Hachette P - ris1913-1928.
15. Hanoteau, et Letournoux, (1893). La Kabylie et les Coutumes kabyles, 2ème éd. Challamel, Paris.
16. Girault, Arthur (1924). Principe de colonisation, et de législation col - niale, éd. A. Jordan, Paris.
17. Magherbi, Abdelghani (1979). La paysannerie Algérienne face à la col - nisation, éd. E.N.A.L, Alger.
18. Masquaray, E. (1886). Formation des cites chez les populations sédenta - res de l'Algérie, Paris.
19. Menerville, M.P de (1877). Dictionnaire de législation Algérienne. 3vol÷:1830-1860, 1860-1866, 1866-1872, éd. A. Jordan, Paris.
20. Mesli, M.E (1979). Les origines de la crise agricole en Algérie du conte - tement de 1864 à la nationalisation, éd. ENAL Alger.
21. Robe, E (1875). La propriété immobilière en Algérie commentaire de la loi du 26-07-1873, imprimerie générale Algérienne, Alger.
22. Sari, Djilali (1977). La dépossession des fellahs, éd. S.N.E.D, Alger.
23. Sautayra, E. (1878). Législation de l'Algérie, 2 éd. Maisonneur, Paris.

من أدب الرحلة المقربة وصف البحر (دراسة أسلوبية)

د. محمد السعيد بن سعد
المركز الجامعي – غرداية

ملخص:

يقدم الموضوع قراءة في نص الرحلة البحرية لأبي العباس المقّري، أحد أعلام الأدب الجزائري، وذلك من منطلقات أسلوبية بحسب المستويات اللغوية، لنلج الموروث الفكري عند المقّري من حيث الصياغة والأسلوب. وقفنا على: الصوت ودلالاته كالراء واللام الانحرافيتين، وعلى البناء النحوي بخاصة الروابط والقصر، وعلى المستوى البلاغي في عدوله وانزياحه. كان أبو العباس في كل هذا يتوكأ على ثنائيات لا تفارقه: ماء وطين، مغرب ومشرق، حل وترحال، خوف وطموح، بر وبحر... ثنائيات شكلت شخصية المقّري وحياته وفكره.

الكلمات الدالة : الرحلة البحرية، الأدب الجزائري، الصوت، البناء النحوي.

توطئة:

الرحلة جمع رِحل ورَحلات الانتقال من مكان آخر[1]، وهي ملازمة للإنسان في كل عصر، وقد ذكرت في القرآن الكريم.

يقول تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ}[2].

كان لأهل مكة رحلتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، من أجل التجارة[3].

وهي من أوجه السير في الأرض لجلب منافع جمة، وكثيرا ما يدل الارتحال على شيء من الاطمئنان، ومنها سمي البعير الذي يسافر عليه راحلة.

والرُحَّال: العرب الرحال الذين لا يستقرون بمكان ويحلون بماشيتهم حيث يسقط الغيث وينبت المرعى.

ويقال العرب الرُحَّل: والرُحَّال، والرحلة؛ كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى[4].

وهكذا كان الجاهلي يمر على الديار والأثافي والأطلال ومكان الأحبة فيصفها ويصف

1- المعجم الأساسي العربي، مجموعة من الأساتذة، ص: 512.

2- سورة قريش، الآية : 02.

3- صفوة التفاسير، الصابوني، ص: 606/3، شركة الشهاب الجزائر. وينظر تفسير التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، ص: 559/3، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

4- المعجم الوجيز، المجمع العربي، مادة رح. ل.ص: 261.

الطريق والناقة اللاغبة، إلى أن أصبحت الرحلة أدبا مستقلا من فنون النثر العربي التصقت بمعاناة الكاتب، والإنسان يصف الأوضاع ويحمل الهموم ويعبر عن قضاياه .

كان للأديب المغاربي حظه من هذا الفن (أدب الرحلة)، بخاصة الكاتب الجزائري. بحيث اتخذت الرحلة وجهتين:

وجهة خارجية: في اتجاه الوطن العربي والإسلامي. والرحلة الداخلية التي شملت كل مناطق الوطن: شرقا وغربا، جنوبا شمالا[5].

وكانت لهذه الرحلات دواعيها ودوافعها التي أدت بالمغاربة إلى الانسياح في البراري والبحار، والحق أن الدافع الديني كان أقوى العوامل التي جعلتهم يتوجهون شطر المشرق بحيث تتجمع كل الخيوط التي تشد أفئدتهم، وعلى رأسها البقاع المقدسة، حيث المسجد الحرام (الكعبة الشريفة)، والمسجد النبوي الشريف[6].

وعلى كل فقد تعددت الأشكال في الرحلة الواحدة، كما اختلفت صور الإنسان والمكان في انطباعات الرحالين الذين انعكست في رحلاتهم جوانب مختلفة من الأماكن والمدن التي رأوها. والأوطان التي حلوا بها. وللافت للأنظار في هذه الرحلات، هو بروز العمق الإسلامي والعربي؛ برؤية مثالية لأمة إسلامية موحدة لاتحول بين أقطارها الحواجز الجغرافية ولا السياسية وولا حتى اللغوية .

كما أن الرحلة بدت وسيلة تثقيف وتوعية، وإشباع رغبة الرحالة في الاطلاع، عبرت عن كثير من القضايا، كما نقلت لنا كثيرا من المواقف والمشاعر والآراء والانطباعات لكتاب لهم اعتبارهم الكبير من أمثال أبي عباس أحمد المقّري، والذي أجمل لنا رحلاته في ثلاث مراحل اجتماعية، بين ثلاث أقطار عربية إسلامية :

- مسقط رأسه تلمسان حيث قضى فترة طفولته وشطرا من شبابه بين أحضان أسرته التي كانت تتمتع هناك بالعلم والمعرفة وتحظى بالسمعة والجاه.
- ثم رحل إلى المغرب الأقصى أين قضى فترة كهولته، في المجتمع يتمتع بالمعارف والتجارب الناجحة بحيث أسندت إليه مهام الإمامة والخطابة والفتوى القضاء.
- رحل بعد ذلك إلى المشرق العربي: بين مصر والشام والحجاز وبيت المقدس، تراوحت بين الانعزال والعطاء والاطمئنان، جاء في مجلة دراسات: «وهكذا كانت بيئة المقّري هادئة الطائر في تلمسان، مضطربة الجناح في المغرب الأقصى، مطوقة بالخمول والانعزال بمصر، محاطة بسياج السعادة وأهداب الآداب وبحر المعارف في دمشق والشام, وقد أثرت هذه البيئة بمراحلها الثلاث ومختلف مؤثراتها في شخصية المقّري الثقافية، وجعلت منه رجلا ذا إرادة جبارة وصبر جميل، وعزم صارم، وعلم متين، وأدب رقيق»7.

المقّري بهذا يعد من الأدباء الذين مثلوا الأدب الجزائري والمغربي عامة وفي عصر

5- أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، د. عمر بن قينة،ص: 200، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد: 2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.

6- أدب الرحلة عند المغاربة والأندلسيين (ق 8 هـ)، عبد العزيز بومهرة، ص: 158، مجلة دراسات، العدد: 02 جوان 2005، جامعة الأغواط.

7- ينظر المقّري وكتاب نفخ الطيب،محمد بن عبد الكريم،الدكتور،ص:258، دار مكتبة الحياة،بيروت.

الضعف بخاصة، طوحت به طوائح الاغتراب[8]، وقد تنقل في كثير من البلدان التي يقصدها مثله من العلماء.

وما يشدنا في كل هذا رحلته من المغرب إلى المشرق (مصر) بالذات بحرا، يقول الدكتور أبو القاسم سعدا لله: «ويبدو أن طموحه والخوف من العودة إلى المغرب هما اللذان كانا وراء بقائه في المشرق فقد سافر من الجزائر إلى تونس بالبر أيضا، ولعله قد مر في طريقه بقسنطينة والتقى بعلمائها كما يفعل معظم الحجاج، ونال في تونس من حسن الاستقبال ما شهد له مرافقه عالم تونس عندئذ؛ محمد تاج العارفين العثماني، فقد ركب مع المقّري السفينة (أي سافرا بحرا) ونزلا في مصر»، فما كان من المقّري إلا أن وصف الرحلة بل وصف أهوال البحر وصفا دقيقا مجسما لتقريب الفكرة من ذهن المتلقي متكئا على الانزياح وغير ذلك من الوسائل الأسلوبية التي تستوجب منا تحليل ظواهرها الدلالية.

من هذا المنطلق ارتأينا أن تقارب هذا النص من منطلقات أسلوبية، بحسب الشبكات والمستويات والكلمات المفاتيح، لنلج المورث الفكري عند أبي العباس من حيث الصياغة والأسلوب، وقبل المعالجة للنص الرحلاتي، نقول: من هو المقّري؟.

المقّري متنقلا:

أبو العباس أحمد بن محمد المقّري التلمساني مولدا ونشأة، «حافظ بلاد المغرب وأديبها ولسانها المتحدث بفضلها، ومؤرخها الناشر لمحاسنها»[9] نزيل فاس ثم القاهرة.

المقّري بفتح الميم وتشديد القاف مفتوحة وآخره راء مهملة،ويذكر بعضهم أنه بفتح الميم وسكون القاف،لغتان أشهر هما الأولى نسبة إلى قرية من قرى تلمسان، وقال ياقوت الحموي[10]: مقْره بفتح ثم السكون وتخفيف الراء: مدينة بالمغرب في بر البربر، قريبة من قلعة بني حماد، وبينها وبين طبنة ثمانية فراسخ.

تلقى علومه على يد بعض علماء تلمسان، ظل وفيا لهذا التكوين الأصلي حتى وهو يتمتع بالجاه والحظوة في القاهرة ودمشق، وكان يذكر محاسن تلمسان وجمالها وهو في المغرب والمشرق، ويقارنها بفاس ودمشق, وعندما كان في المغرب موفور الكرامة لم يصبر على زيارتها، ولاغرو في ذلك، إذ بالإضافة إلى أصوله العائلية حيث أجداده ووالده. وجمال تلمسان الطبيعي، يوجد هناك عمه سعيد المقّري أحد الذين أسهموا في تكوينه تكوينا أدبيا موسوعيا[11].

يقول في الحنين إلى مسقط رأسه (تلمسان)[12]:

8- نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري أحمد، ص: 04/1، (المقدمة)، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

9- نفسه، ص: أ - (المقدمة).

10- نفس المرجع السابق، ص 08..

11- تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الدكتور، ص: 221/2-222.

12- البيت من بحر الطويل.

كساها الحيا بردَ الشباب بلادٌ بها عق الشباب تمائمي
فإنها ذكرتُ بها عهدَ الصِبا فكأنما قد حث بنا الشوقُ بين الحيازم

ويقول أيضا[13] :

وأربع أحباب إذا ما ذكرتَـــها بكين وقد يبكيك ما أنت ذاكر
بطاح وأدوح يروقُك حسنها بكل خليج تمنته الأزاهر
فما هو إلا فضة في زبرجد تساقط فيـه اللؤلؤ المتناثر

إلى أن يقول :

بلادي التي أهلي بها وأحبتي وروحي وقلبي والمنى والخواطر
ليالي كانت للشبيبة دولة بهـا مَلك للذات ناه وآمر
سلام على ذلك العهود فإنها مـوارد أفراح تلتها مصادر

ويقول أيضـا :

بلد الجـدار مـا أمرَّ نواها كلف الفـؤادُ بحبها وهواها
يا عاذلي في حبها كن عاذري يكفيك منها ماؤها وهواها

سافر المقّري إلى فاس بالمغرب الأقصى محطته الثانية، وقضى فيها فترة من حياته[14]، قصد هذه الديار حبا في العلم والعلماء، وهياما بالآداب والأدب، أخذ عن بعضهم كما أخذوا عنه، ولكن المغرب لم يكن في حالة استقرار سياسي، مما جعل المقّري يفكر في الارتحال بعد أن مكث بالمغرب حوالي ربع قرن.[15]

ويسجل صديقه ومعاصره عبد الكريم الفكون سبب هجراته قائلا: بعد فساد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها، حتى تداعت للخراب ارتحل المقّري، بل ويلمح أبو العباس نفسه إلى هذه الرحلة: «لما قضى الله برحلتي من بلادي ونقلتي عن محل طار في وتلادي بقطر المغرب الأقصى».[16]

على أن المقّري كان ينوي العودة إلى المغرب لأنه ترك فيه أهله وابنته ومكتبة فاستقر بالجزائر سنة 1027م بعد أن مر بتلمسان، وهناك في الجزائر اتصل أيضا بالعلماء وشرع في التدريس، يقول الفكون: «إن المقّري نزل دار الجزائر على فقهائها وعلمائها وتصدى للتدريس بها، وقرأ بها التفسير وكانت رحلات أبي العباس الثلاثية إلى المشرق بداء بمصر

13- ينظر، الأدب العربي الجزائري (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، محمد بن رمضان شاوس والقوفي بن حمدان، ص: 45 وما بعدها، 2001/1422، داود بركسي، حي الكيفان، تلمسان.

14- مصادر الأدب في المكتبة العربية، عبد الطيف صوفي، ص: 266، دار الهدى (ط.ن.ت) عين ميلة الجزائر.

15- تاريخ الجزائر الثقافي، سابق،ص: 223/2.

16- ينظر، نفسه، ص: 223/2 وما بعدها.

التي سافر إليها عن طريق البحر، حيث قاسى في هذه الرحلة الشيء الكثير، هذه الرحلة موضوعنا الرئيس.

ثم توجه إلى الحجاز، ومن مصر أيضا توالت أسفاره إلى الديار المقدسة خمس مرات, كانت حافلة باللقاءات العلمية: إعطاء الدروس، وإملاء الحديث الشريف بجوارروضة الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم سافر إلى دمشق وفيها أيضا اجتمع بعدد من علماء الأندلس وأدبائها بصورة خاصة، وطاب له المقام بدمشق، وكان يحاضر عن تاريخ الأندلس وأدبائها يقول في دمشق؛ محاسنها بخاصة[17]:

÷أما دمشق فجنة ÷لعبت بألباب الخلائق
÷هي بهجة الدنيا التي ÷منها بديع الحسن فـائق
÷لله منها الصالحية ÷فاخرت بذوي الحقائق

عاد في أواخر حياته إلى مصر وراح يدرس في الأزهر حتى وافته المينه سنة 1041م ودفن بها، مخلفا عددا من المؤلفات، وهي أصدق دليلا على نبوغه.

الرحلة البحرية:

نلج هذا العنصر من خلال شخصية المقّري العلمية وبخاصة الأدبية إذ إن هذه الشخصية برزت في ستة فنون رئيسة من العلوم الإنسانية:

- **التفسير:** ولا أدل على ذلك من كتابه إعراب القرآن الذي جاء فيه بما يبرهن على طول باعة في فن التفسير، قوله في الآية الكريمة:

{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس}[18] يقول: عطف على الوسواس، أي من شر الوسواس والناس «ولا يجوز عطفه على الجنة؛ لأن الناس لا يوسوسون في صدور الناس إنما يوسوس الجن، فلما استحال المعنى حملته على العطف على الوسواس»، ويعلق الدكتور محمد عبد الكريم قائلا : «فهذه الدقائق المفيدة لا ينتبه إليها إلا من ضرب بسهم وافر في ميدان هذا الفن»[19].

ووصف المحبي المقّري، يقول: «كان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث،ومعجزا باهرا في الأدب والمحاضرات»[20].

- **أما الحديث:** فكان أبو العباس حجة بالغة في حفظ الحديث الشريف وضبط طرق رواياته ومعرفة رجال الأسانيد وشيوخه في ذلك كثر، منهم عمه سعيد المقّري.

- **وفي الفقه:** كان متضلعا في أصول الفقه وفروعه، شغل منصب الإفتاء بفاس بجامع القرويين، ومن يطالع مؤلفة يجد فيها تحقيقاته التي تدل على رسوخ قدمه في هذا الفن،

17- البيت من مجزوء الكامل.

18- سورة الناس، الآية: 05.

19- نفخ الطيب،سابق، ص: 231.

20- نفس المرجع السابق ، ص: 670.

وكان كثير الاعتزاز بانتمائه إلى مذهب الإمام مالك, شديد الفخر باعتناقه عقيدة الإمام الأشعري في التوحيد، نراه في جل كتبه ويفتتحها بعبرات الانتساب إلى هذين المذهبين: «يقول أحمد الفقير المقّري المغربي المالكي الأشعري»[21].

- **أما التوحيد:** فكانت له قدم راسخة فيه؛ درسه وصنف فيه، كان يلقي درسه في جامع الأمويين بدمشق.

من مؤلفات المقّري في التوحيد: إضاءة الدُّجنّة في عقائد أهل السنة، وحاشية أم البراهين.

- وفي التصوف: ينظر إلى المقّري على أنه علم وعمل، والتصوف الحق عنده هو عالم عامل بعلمه، تحدث في كتبه عن رجال التصوف، طريقة العالمين كأبي مدين شعيب، وأبي العباس أحمد بن عاشور غيرهما، وطريقته في التصوف طريقة أبي الحسن الشاذلي»الطريقة الشاذلية».

- وفي التاريخ: إن المقّري أمين في النقل، نزيه صادق النية, مخلص في عمله، صريح في القول، صاحب شجاعة أدبية وصبر على البحث، مثابر على استخراج الحقائق، مدمن على المطالعة، وهذه كلها لعمري من صفات المؤرخ الحذق.

من جملة ما كتب في ذلك كتاب: أنواء نيسان من أنباء تلمسان، قيل إنه لم يتمه[22]، وكتاب أزهار الرياض؛ به أخبار نادرة عن المغرب الأقصى والأندلس وكذا ترجمة القاضي عياض وما يتصل بشخصيته وأخبار زمانه, وكتاب: «روضة الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس، به جميع ما يتصل برحلته الأولى إلى المغرب الأقصى، ومن هذه المؤلفات التاريخية أيضا كتاب عرف النشق في أخبار دمشق.

إن أهم كتب أحمد المقّري المطبوعة على الإطلاق[23]، موسوعته «نفخ الطيب»، والذي ألفه بوحي وبإلحاح من أعيان الشام وعلمائها، إلا أنه يبدو أن أبا العباس كان قد شرع فيه أثناء وجوده بالمغرب، بحيث إن موضوعة الرئيس: لسان الدين بن الخطيب والأندلس، يتضح من خلال هذا إعجاب المقّري بلسان الدين بن الخطيب متأثرا به في أسلوبه الأدبي : تحرير العبارة وانتقاء الألفاظ والسجع الجميل وتوشح النثر بالشعر، رغبة منه أن يكون كتابه مرجعا للشعراء والأدباء وطلاب الموعظة .

يقول : «اعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر، ولمن يعاني الإنشاء والنثر من بيان وسحر، وكفاه أنه لم يرمثله في فنه فيما علمت، ولا أقولها تزكيه له»[24].

وقيل في هذا الكتاب «نفخ الطيب» لا يفوقه في بابه إلا عمل ابن خلدون في تاريخه، وإذا كان ابن خلدون قد وضع في المقدمة نظرية علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والعمران، فإن المقّري قد وضع في «نفخ الطيب» مقدمة لا غنى عنها في حياة الأندلس، وعلمائها وشعرائها، إلى درجة أن وصفة شكيب أرسلان : بأنه حقيبة أنباء، وقمطر حوادث، وخزانة

21- نفسه، ص: 295، ينظر إضاءة الدجنة، المقّري أحمد، ص: 265.

22- تاريخ الجزائر الثقافي، سابق، ص: 221.

23- نفس المرجع السابق، ص: 228/2.

24- ينظر، نفخ الطيب، سابق، ص: 363/01.

آداب، وكشكول لطائف، وديوان أشعار، ويقول: من لم يقرأ «نفخ الطيب» ليس بأديب[25].

في هذه الخزانة الأدبية استوقفتنا الرحلة البحرية التي عدها بعضهم من نماذج أسجاع المقّري المعسولة[26]، ذلك أن هذه الرحلة البحرية تدخل ضمن نثر المقّري الذي ينقسم إلى نوعين:

- النثر العلمي ويتصف بسلاسة التركيب، والسلامة من التعقيد، وقرابة المعنى، أي يتصف بالمباشرة ومطابقة للفظ للمعنى، ومن نماذج ذلك قوله: «من الراحلين إلى المشرق من أهل الأندلس: أبو مروان عبد الملك أبن أبي بكر محمد بن روان بن زهر، الإيادي الأندلسي ... إلخ[27].

- النثر الفني ومنه:

أ- **نثره المرسل:** كثيرا ما يستعمله في وصف الأشياء وتراجم الأشخاص وسرد الأخبار والروايات، من نماذجه: القصد المشهور من أخبار الرميكية[28]، يقول: «ولا يوم الطين، وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي في الطين فأمر المعتمد، فسحقت أشياء من الطيب وذرت في ساحة القصر حتى عمته، ثم نصبت الغرابيل، وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها, وغاضبها أي المعتمد في بعض الأيام فأقسمت أنها لم ترمنه خير قط، فقال: «ولا يوم الطين ؟» فاستحيت واعتذرت، وهذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا : بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (بِكُفْرِهِنَّ) قِيلَ : يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ، قَالَ: (يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) رواه البخاري[29].

إنك لتلاحظ في هذه السطور وصفا بجزالة اللفظ، وقصر الجمل، وبساطة التركيب، هذا أسلوبه في نثره المرسل.

ب- **النثر المسجع:** وهذا بيت القصيد الذي نحاول مقاربته أسلوبيا باعتماد المفاتيح والشبكات ومن نماذجه نص«وصف البحر وأهواله»، والتي عكس بصدق مهارته الأدبية في صفاء العبارة، ونقاء الديباجة، وإشراق المعنى ووضوحه، واعتماده الاختيار الدقيق والعدول المعبر، إذ تزدحم التشبيهات على ذهنه فتنساب على أثلات قلمه لا يستطيع لها دفعا ولايقوى على رد جامحها، وإنه ليخبل إليه أنه قد قصرحين يحبس قلمه أو يقف به دون بلوغ الغاية.

وهاهو يبدأ هذه الرحلة بالانتقال من وسط إلى وسط آخر تصحبه في كل هذا لوعه الفراق

25- ينظر، تاريخ الجزائر الثقافي، سابق، ص: 231/2، وينظر الحلل السندسية «شكيب أرسلان» ص: 153/2.

26- ينظر، نفخ الطيب،سابق، ص:306 -307،وينظر نفخ الطيب «سابق»ص: 44/1-45.

27- ينظر، نفخ الطيب،ص: 13/3-14.

28- الزميكية، زوجة المعتمد بن عباد.

29- ينظر، نفخ الطيب،سابق، ص: 09/2.

والبعد عن الوطن، ولا عجب إذ هو القائل:[30]

÷وقفنا بريح الحبِّ والحبُّ راحل ÷نحاول رَجْعاه لنا ويحاول
وألقت دموعَ العين فيه مسائلا ÷لها عن عبارات الغرام دلائل

الوسط الأول هو البر متوجها إلى مصر, ليمتطي الوسط الثاني وهو البحر، يقول: «ثم جد بنا السير في البر أياما، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حبا لها، وهياما، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما، إلى أن ركبنا البحر»[31].

ثم شرع يطلعنا على أحوال الرحلة وأهولها، واصفا وصفا دقيقا الأمواج المكشرة على أنيابها وقد أيقظتها الرياح من سباتها، وأثرها في المجال التي تتخللها فلم يبق في الوجود إلا صوت تلك الرياح والأمواج، ولم يبق من منج إلا الله، لأنهم أصبحوا جميعا كدود على عود، فالسماء من فوقهم والماء من تحتهم يغور بالسفينة الفنية ويعلو بها أخرى.

كل هذا ألفيناه في فقرات أدبية المذاق، فلسفية الفكر، دينية النزعة، ساقها أبو العباس في أسلوب انزياحي متين في تركيبه، سلس في مخارجه ولن نجانب الصواب إن قلنا: إنه من السهل الممتنع.

والنص غني بسمات أسلوبية جديرة بالمباحثة والمقاربة، ذلك ما يجعلنا ندع الرحلة ووقائعها لننزلق إلى هذه السمات المميزة لنص الرحلة.

الخصائص الأسلوبية للنص: نقارب عنصر السمات والخصائص وفق الخطوات التحليل الأسلوبي المستوياتي: المستوى الإفرادي والذي يضم: البناء المعجمي والبناء الصرفي، والمستوى التركيبي ويمثل: التركيب المعياري السطحي النحوي، والتركيب العميق البلاغي، أما البناء الدلالي فنعتقد أنه يطال كل المستويات إلا ما كان من حقول دلالية التي تستدعي التعامل كبناء مستقبل.

بداية نشير إلى أن نص الرحلة قيل في وسط بين وسطين: وسط اليابسة في بلاد المغرب وسط اليابسة في بلاد المشرق (القاهرة)، وقد شمل هذا الوسط الأخير أيضا وصفا من المقّري يدل على أنه عانى معانتين في البحر فزعا من أهواله، ومعاناة أخرى في البر خوفا من كثرة الطرق وتعرجاتها والفيافي وقفرها وما بها من وحشة مطبقة وغيرها.

وفي الرحلة البحرية نفسها نلفي كلمات مفاتيح أوعبارات تدل على البحر وأهواله تباعا بها نصل إلى دلالة جوهرية هي أن المقّري من المطبوعين والمغرمين بوصف الرحلة وتتبع دقائقها، ناهيك عما يتخلل هذه المفاتيح من اختيار وعدول في جميع المسويات والتي تعد من محددات التحليل الأسلوبي.

فعلى مستوى البناء الصوتي، نجد حرف الهاء قد شكل تكراره ظاهرة أسلوبية ذات بال، توحي بما يقتضيه الموقف من فزع، مشيرا إلى مصدر الخطر والمعاناة الذي هو الثلاثي: الأمواج والرياح والسفينة.

30- البيت من بحر الطويل.

31- ينظر نفخ الطيب، سابق، ص: 44/1.

يقول: «... قد أزعجتها ألف الريح وكرها، كم نبهت اللجج من سكرها, فلم يبق شيئا من قوتها ومكرها»[32] ويقول على لسان الآية الكريمة: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}[33]، يواصل قائلا : أيسنا من الحياة لَصوت تلك العواطَف والمياه، فلاحيا الله ذلكَ الهول المزعج ولامياه[34]، ويواصل «... فتخال الجو يأخذ بنواصيها، وتجذبها أيديه من نواصيها, حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها وعنان السحب يخطف في استقلالها، وقد شرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها»[35].

ولكنه بعد ذلك ينوع في مبنى الصوت، من الراء الانحرافية، والألف الهوائية، والباء الشفوية والمطبقة والقاف الاستعلائية والتي تشترك مع الباء في القلقة، والنون الغنية والجيم التسريبية، ودلالة هذا التنوع في الأصوات إنما هو القلق والحال المتغيرة والمتقبلة تلقب الأهوال والأخطار المحيطة بالسفينة والاضطراب الذي يصيبها، في كل وقت وحين وهو ما يعكس كذلك مدى تحكم الكاتب في زمام اللغة.

الهاء حرف مهموس رخو، للتلاشي، من صفاته: الشدة والفعالية والاهتزاز، يوحي بالاضطرابات النفسية، ويدل على حالة الإنسان المنفعل الذي يدخل في حالة يأس أو بؤس أو حزن أو ضياع، ولو لعارض مفاجئ، لابد أن تنقبض معها نفسه فينعكس ذلك على جملته العصبية، والراء مجهور متوسط الشدة والرخاوة، من صفاته الملكة وشيوع الوصف، فيه التمفصل، يعطي مرونة للغة العربية، يأتي أحيانا للتعبيري عن مصاهر الخوف والاضطراب والتكرار، استعمل في القران الكريم في المعارك التي خاضها المسلمون مع الكفار، كما في سورة القمر، والألف فيها خاصية الامتداد في الزمان والمكان، والباء بها شدة، والجيم حرف شجري مجهور انفجاري احتكاكي، يدل على الشدة والفعالية المادية والفعالية النفسية، والدال حرف مجهور شديد يستعمل في التصلب والتغير والتنوع، وهكذا فتنوع هذه الأصوات من حيت الصفات يجرنا على مستوى النص إلى تنوع آخر حسي وشعوري، بحيث نجد أن التاء والدال لمسيتان، والراء ذوقي، والهاء شعوري، والقاف سمعي، والألف بصري، مما يدل على أن الوقع كان شديدا على الكاتب، فاستسلم بكل جوارح، وتفاعل مع الحدث بكل حواسه.

أما على مستوى البناء المعجمي فقد غلبت على النص ألفاظ الهول والخوف واليأس: بواسر، صفير، زفير، الهول، يضطرب، تلطم، يأخذ بنواصيها، ساءت. . .إلخ.

أما البنية الصرفية: فقد غلبت على النص الأفعال الدلالة على التحول، وتزاوجت بين الماضي الذي يدل على الاسترجاع والتذكر، والمضارع للتقرير والتأكيد.

وعلى المستوى التركيبي: البناء النحوي، نلفي كثرة الروابط: حروف الجر، وحروف العطف كمن التي للتبعيض، والواو من حروف العطف لمطلق الاشتراك، وجدنا انزياحا على مستوى البنية السطحية تقديم شبة الجملة للاهتمام بالمقدم، يقول: فسمعنا للجبال صغيرا،

32- نفس المرجع السابق، ص: 46/3.

33- سورة الإسراء، الآية: 67.

34- ينظر نفخ الطيب،سابق،ص: 46/3.

35- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة..

وللرياح دويا.

ونجد تركيب القصر والذي يدل على أن الأمور لم تعد ني يد الإنسان إذ لم يبق من منج غير الله تعالى، لما في أسلوب القصر من نفي الاحتمال يقول على لسان الآية: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله[36].

وأما المستوى البلاغي: فتطالعنا الانزياحات المتمثلة في الاستعارات، وهي صورة تقرب المعنى للقارئ وتوضحه تشخيصا وتجسيما يقول: والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب[37]، وتمعن ما في هذه الصورة من تجسيم «ونحن قعود كدود على عود»[38].

وللإيقاع حظه من النص حتى كاد يكون نصا شعريا، لكثرة السجع، المتباين الفواصل ليعطي النص نغما موسيقيا داخليا وخارجيا، ويبعد السأم والملل عن القارئ، زيادة على الطباق المتناثر في النص هنا وهناك، وهذا الإيقاع يدل على مدى توافق اختياري الحروف في أصواتها، ومدى توافق اللفظ والمعنى كل هذا مع الحدث المعبر عنه، تلك إذاهم السمات الأسلوبية للنص.

الخاتمة:

لاشك أن النثر الفني قد تقدم على يدي المقّري في الوقت كادت لاكتتب الأقلام غير الشروح والمنامات فليس سهلا أن يوفق أي كاتب إلى نسج أمثال هذه الأسجاع «التي بلغت أوج البيان» وأصبحت مضرب الأمثال في البلاغة عصر ذلك.

ناهيك عن التناص القرآني الذي يدل على ثقافة أبي العباس المتشبعة بالروح الإسلامية: «يسر» من قوله تعالى: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}[39]. وللريح دويا عظيما وزفيرا، من قوله تعالى: {إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا}[40]. بل كدنا نجزم أن النص مبني على فكرة آية كريمة من الذكر الحكيم، {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا}[41].

إن الخطاب يستحضر مشهدا عظيما من مشاهد أهوال البحر، والمستقري لهذا النص يلفيه يعج بمجموعة من المعطيات الدلالية تعكسها شبكة العلاقات المتجانسة بين الدوال تشاكلا وتقابلا، فأثمر ذلك نسيجا إيقاعيا فريدا ينطق بحشد من المعاني.

إن المتبع للنص يجد المقّري كان مهيئا نفسيا لهذه الأهوال من خلال عنصر الربط والرجوع إلى الأصل: ثنائية الماء والإنسان (الطين).

36- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

37- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

38- نفس المرجع السابق، نفس الصفحة

39- سورة المدثر، الآية: 22.

40- سورة الفرقان، الآية: 12.

41- سورة الإسراء، الآية: 67.

صاغها في معادلة: ماء ← إنسان
ماء ← طين
ماء ← طين = خسارة

ومن الثنائيات التي يقف عليها الدارس للنص:

المغر ← المشرق
الحل ← الترحال
الطموح ← الخوف
البر ← البحر
الشعر ← النثر
المقَّري ← ابن الخطيب

ثنائيات شكلت شخصية المقَّري ووجهت حياته فكرا وسلوكا، فوظفها في إنشائه، فأصبحت خصيصة من خصائص أسلوبه.

إن الكاتب يطبق مبدأ ما كان، فعلى اعتبار ما كان, وعلى اعتبار الواقع المشاهد: عادة الماء عدو الطين، والإنسان طين، فعن طريق التعدية يصبح الماء عدو الإنسان.

هذه المعادلة خيمت على عقل الكاتب ودخل بها البحر، فكان الماء في نظر الإنسان عدوا.

والحاصل أن أبا العباس قد أجال فني: الشعر والنشر وحاز قصب السبق في مضمارهما، وقد مكنه من الأخذ بناصيتها كثرة حفظه لأشعار العرب واستيعابه لأخبارهم، فأصبح شخصية أدبية معبرة، واستحق قول الخفاجي فيه: «... أما الشعر فهو أصمعي باديته, وسلمان بيته، وحسان فصاحته، فما مس قصب الأقلام إلا سجدت شكرا ...».

ولذلك كان طموحه لا حدود له، لا يشبهه بين الشعراء، والأدباء إلا طموح المتنبي، يقول عن نفسه.

ولي عزمٌ كحد السَّيف ماض ولكنَّ الليالِيَ من خصومي

ومصنفاته كلها ممتع وكلها مفيد, فكان بحق من مثل الأدب الجزائري خاصة والمغربي عامة في عصر الضعف بخاصة في أدب الرحلة، ولا أحسب إلا أنه يريد أن يبث رسالة إيمانية هي الاعتماد على الله سبحانه.

المراجع باللغة العربية:

1. أدب الرحلة عند المغاربة والأندلسيين (ق 8 هـ)، عبد العزيز بومهرة، مجلة دراسات، العدد: 02 جوان 2005، جامعة الأغواط.
2. أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث، د. عمر بن قينة، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد: 2، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.
3. أدب العربي الجزائري (إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر)، محمد بن رمضان

شاوس والقوفي بن حمدان، 1422/2001، داود بركسي حي الكيفان،تلمسان .
4. إضاءة الدجنة، المقّري أحمد، دار الفكر للنشر والتوزيع.
5. تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، الدكتور. دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط: 01، 1998م
6. تفسير التحرير والتنوير، الشيخ الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
7. الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، شكيب أرسلان، طبعة مصر، 1936.
8. صفوة التفاسير، الصابوني، شركة الشهاب الجزائر
9. مصادر الأدب في المكتبة العربية، عبد الطيف صوفي، دار الهدى (ط.ن.ت) عين ميلة الجزائر.
10. المعجم الأساسي العربي، مجموعة من الأساتذة.
11. المعجم الوجيز، المجمع العربي.
12. المقّري وكتاب نفخ الطيب، محمد بن عبد الكريم، الدكتور، دار مكتبة الحياة، بيروت.
13. نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقّري أحمد، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

المساواة والاختلاف بين الذكورة والأنوثة في فلسفة الوجود وفلسفة السياسة عند ابن رشد

د. محمد مصباحي
جامعة محمد الخامس الرباط- المغرب

ملخص:

بالرغم من أن موضوع المرأة لم يَرْقَ، لدى ابن رشد، إلى مرتبة الموضوع الفلسفي بعُدّته المنهجية والإشكالية، أي بالرغم من أنه لم يتطرق إليه مباشرةً وبالذات، ولكن عَرَضا أثناء تناوله لقضايا قريبة أو بعيدة عن قضية المرأة، فقد وجدنا في متنه الفلسفي والفقهي والطبي من العناصر الفلسفية والسياسية والفقهية ما يكفي لصياغة إشكالية متكاملة لهذا الموضوع. واجه أبو الوليد ثلاثة تصورات متقابلة حول المرأة: تصور فلسفي أفلاطوني-أرسطي، وتصور طبي-بيولوجي، وتصور فقهي-إسلامي. لهذا سنجد موقف ابن رشد من «الأنوثية» يتأرجح بين موقف مساواتي يُعطي المرأة كل حقوقها، وذلك عندما نظر إليها من جهة الوجود والماهية في كتبه الفلسفية والسياسية؛ وبين موقف لامساواتي سلَبَها تلك الحقوق حينما نظر إليها من زاوية العقل العملي في أعماله الطبية والفقهية. سنقتصر في هذا المقال على تحليل الأسس الفلسفية والأخلاقية للموقف المساواتي. ويمكننا أن نستخلص بأن الاختلاف بين الرجل والمرأة لا يصبح مشكلا إلا إذا انتقل من مستوى الفلسفة إلى مستوى الثقافة.

الكلمات الدالة: المرأة، المساواة، الاختلاف، الفلسفة، الحقوق.

مقدمة:

من الصعب استخلاص موقف منسجم واضح لابن رشد من الموضوع النسوي لأنه، أولا، لم يكتب في هذا الموضوع رسالة أو مقالة خاصة، شأنه في ذلك شأن جل الفلاسفة السابقين واللاحقين عليه. وهذا يدل على أن موضوع المرأة، أو الأنوثية، لم يَرْقَ إلى مرتبة الموضوع الفلسفي بعُدّته المنهجية والمفهومية والإشكالية. وهذا التقليد، تقليد إهمال موضوع المرأة بوصفه موضوعا فلسفيا، استمر حتى لدى الفلاسفة المعاصرين الذين سكتوا عن المرأة بالرغم من الثورات الجذرية التي قاموا بها والتي بوأت الإنسان مكان الصدارة في الكون.

وتعود صعوبة فرز موقف صريح لابنِ رشد من قضية المرأة من ناحية ثانية، إلى كونه لم يتطرق إليها بالقصد الأول، أي مباشرةً وبالذات، ولكن بالقصد الثاني، أي عرَضا أثناء تناوله لقضايا قريبة أو بعيدة عن قضية المرأة، يمكن تصنيفها في أربع قضايا تنتمي إلى مجالات أربعة :

1. قضية تعريف الإنسان بعامة، التي تنتمي إلى سياق ميتافيزيقي-منطقي.
2. قضية تخيل بناء دولة عادلة فاضلة تَحظَى فيها المرأة بأهمية خاصة، وهي قضية تنتمي كما هو واضح إلى سياق الفلسفة السياسية.
3. مسألة الإنجاب، وهو سياق بيولوجي واجتماعي.
4. وأخيرا مسائل الحقوق والواجبات الدينية المتعلقة بالجوانب الدينية والاجتماعية

والاقتصادية والسياسية (العقود والرق والتجارة والشهادة والإرث الخ)، وهي مسائل تنتمي إلى المجال الفقهي.

معنى ما سبق، بعبارة أخرى، أن صعوبة استخلاص موقف رشدي متكامل من القضية النسوية ترجع إلى كونه وجد نفسه بصدد هذه القضية أمام ثلاثة تصورات متقابلة : تصور فلسفي أفلاطوني-أرسطي، وتصور علمي-بيولوجي، وتصور ديني-إسلامي. لهذه الأسباب لا نستغرب إن وجدنا موقف ابن رشد من المرأة ملتبسا يتأرجح بين إيلاء المرأة حقوقَها الكاملة، وبين سلبها تلك الحقوق تحت هذه الحيثية أو تلك.

قصدنا من هذه التوطئة أن ننبه إلى أن قراءتنا لموقف ابن رشد من المرأة لن تكون قراءة إسقاطية ترى في نصوصه ما نود أن نراه فيها، مفترضة مثلا على نحو مسبق أنه كان صاحب «نزعة مساواتية» إزاء النساء، وإنما هي قراءة لابن رشد كما هو، لا كما نريده أن يكون قبل أوان الأفكار النسوية المنتشرة اليوم.

وعند الإنصات إلى ابن رشد كما هو، نفاجَأ بأن ليس هناك ابن رشد واحد، وإنما هناك اثنان متعارضان يتخذ كل واحد منهما من المرأة موقفا مضادا لموقف الآخر:

1. الموقف المساواتي الذي ظهر في أعماله المتصلة بفلسفة الوجود وفلسفة السياسة، أي عندما كان يفحص موضوع الإنسان فحصاً عاماً سواء من الناحية الوجودية أو السياسية.

2. الموقف اللامساواتي الذي ظهر في أعماله الطبية والفقهية، أي عندما كان ينظر إلى علاقة الرجل بالمرأة من زوايا عملية تجريبية، أي من زاوية العقل العملي وما يترتب عليها من حقوق وواجبات.

سيقتصر كلامنا على استعراض الأسس الفلسفية للموقف الأول، أي للموقف المساواتي. ومن شأن هذا الاقتصار أن يعفينا من الإجابة على السؤال المحرج: لماذا لم يشأ ابن رشد أن يربط موقفه النظري المساواتي من المرأة بموقفه العملي (الفقهي والطبي) اللامساواتي؟ هل السبب يعود إلى أنه لم يكن يتكلم عن نفس المرأة بل عن نوعين من المرأة، المرأة ذات الحقيقة الميتافيزيقية العامة، والمرأة الواقعية ذات الحقيقة الاجتماعية-السياسية-الحقوقية الملموسة؟ أم أن السبب يعود إلى الوضع التاريخي والمعرفي والعقَدي هو الذي لم يسمح له بإدراك تناقضه، أي بربط الحقيقة العملية بالحقيقة النظرية، حقيقة الشريعة بحقيقة الفلسفة؟ وعندئذ أين نحن من المبدإ الذي أعلنه جهارا في كتابه فصل المقال «بأن الحق لا يضاد الحق»؟

سأعرض للموقف المساواتي في محورين:

المحور الأول يتكون من لحظتين، لحظة أولى سأقدم فيها المبدأ أو المبادئ النظرية التي تؤسس للوحدة في الطبيعة بين الرجل والمرأة، ولحظة ثانية نعالج فيها كيف أن هذه الوحدة تقتضي شيئا من الاختلاف، إن لم يكن من التضاد، أي كيف أن هذا الاختلاف الضدي لا يهدد الوحدة النوعية بين الرجل والمرأة، وسأعتمد في استعراض هذا المحور على المتن الفلسفي أي على الشروح التي كتبها ابن رشد على كتاب ما بعد الطبيعة.

المحور الثاني سيكون مستندنا فيه المتن السياسي لابن رشد، الذي سيسمح لنا بتقديم المقتضيات التي جعلت المرأة في مجال الفلسفة السياسية تصبح على قدم المساواة مع الرجل.

أولا: خطاب المساواة بين الذكورة والأنوثة في فلسفة الوجود

1. الوحدة النوعية بين الرجل والمرأة:

تُعرِّف الرشدية نفسَها على مستوى الوجود والمعرفة والشريعة بأنها فلسفة وحدوية. فبالنسبة إليها، إذا كان هناك إله واحد ووجود واحد وحق واحد، وعقل واحد، فلماذا لا يكون هناك إنسان واحد؟ وبوسعنا أن نختصر الطريق بالقول بأنه لمّا كانت الفلسفة الرشدية تؤمن بوحدة العقل، فسيكون عليها حتما أن تؤمن كذلك بوحدة الإنسان، أي بالمساواة بين «النوعين» : الرجل والمرأة.

وهذا ما فعله ابن رشد في تفسيره لكتاب ما بعد الطبيعة، حيث رفع «الوحدة النوعية» بين الذكر والأنثى إلى مستوى البديهة قائلا: «الذكر والأنثى... هما من نوع واحد هو» ومعنى هذا أن إنسانية الإنسان لا تقبل الزيادة والنقصان، ولا التفاوت والتفاضل «فالصورة الجوهرية [التي هي العقل]، ليس تقبل الأقل والأكثر. فإنه لا يكون إنسانٌ أكثر إنسانية من إنسان». لذلك، عندما ينظر ابن رشد إلى الإنسان، فهو ينظر إليه بما هو إنسان، لا بما هو رجل أو امرأة.

ويمكن تعزيز هذه الوحدة النوعية، أي الوجودية، بين الذكورة والأنوثة، بالوحدة الدلالية عن طريق اسم الإنسان. فاسم الإنسان (وبخاصة في اللغة العربية التي تنفرد بكون اسم الإنسان فيها غير مشتق من الرجل، بل هو اسم «جامد» قائم بذاته؛ بل المدهش في الأمر أن اسم المرء، وهو اسم مرادف لاسم الإنسان، مشتق من المرأة) اسم محايد إزاء الرجل والمرأة، غير منحاز لأحدهما دون الآخر، بل هما ينتسبان إليه على حد سواء. ويضفي هذا الحياد على اسم الإنسان صفة السِّلْم، ففي رحابه لا وجود للصراع بين الرجل والمرأة. لكن يبدأ الصراع متى تخلّينا عن حياد اسم الإنسان وأشرنا إلى إنسان ما بأنه رجل أو امرأة، وهنا نكون قد فتحنا الباب أمام انحياز اسم الإنسان.

غير أن هذه الوحدة في الحقيقة البشرية لا تستطيع أن تُلغِي الاختلاف بين الرجل والمرأة. هنا نتساءل ما هي طبيعة هذا الاختلاف؟ هل هو اختلاف ذاتي، أم عرضي، أم إنه بالأحرى اختلاف تقابلي ضدي؟ وإذا سلمنا بأن الاختلاف بين الرجل والمرأة يصل فعلاً إلى مرتبة التقابل الضدي، فهل هذا التضاد هو من النوع الاستبعادي أم هو تضاد من النوع التكاملي؟

2. الاختلاف العَرَضِي بين الرجل والمرأة:

يقر ابن رشد أولاً بأن الاختلاف بين الرجل والمرأة هو من نوع الاختلاف العرَضي. لكن هذه العرَضية ليست من النوع الذي لا يُحدِث الانقسام في الموجود، كأن نصف الإنسان بأنه أبيض أو أسود، موسيقي أو فلاح، بل إنها من نوع العرَض الذاتي الذي يحدث انقساما في الإنسان ذي طابع تقابلي، كالانقسام بين الرجل والمرأة، أي لا بد للإنسان أن يكون إما رجلا أو امرأة. ومما يدل على ذاتية الانقسام التقابلي لنوع الإنسان أنه يؤدي إلى إطلاق اسمين مختلفين على المتقابلين (وهما الرجل والمرأة، أو الذكر والأنثى)، بخلاف الإنسان الأبيض أو الإنسان الموسيقي الذي لا يمكن أن يكون لهما اسم جامع، وإنما اسم مشتق. ويُشبه انقسام الإنسانية إلى ذكر وأنثى انقسامَ الواحد، من حيث هو مبدأ العدد، إلى فرد وزوج، فَالواحد في نظر ابن رشد يوجد خارج الفردية والزوجية. وهنا تجدر الإشارة إلى

كيفية استعمال ابن عربي هذا التشبيه الرياضي لفهم مكانة المرأة بالنسبة للرجل، فالشيخ الأكبر على خلاف الشارح الأكبر اعتبر في كتاب الألف «آدم فرداً، وحواء واحداً»، مما يعني في نظره بأن «الواحد [موجود] في الفرد»، مبطون فيه، أي أن المرأة مشتقة من الرجل، كاشتقاق الواحد من الفرد! أما بالنسبة لابن رشد فعلاقة الرجل بالمرأة ليست شبيهة بعلاقة الواحد بالكثير، أي علاقة الكائل بالمكيل، أو العلة بالمعلول، وإنما هي شبيهة بعلاقة الواحد المحايد إزاء الفردية والزوجية، بحكم تعاليه عن الدخول في جنس العدد، ومن حيث هو مبدأ الزوجية والفردية، شأنه في ذلك شأن الإنسان الذي لا يمكن أن يكون رجلا ولا امرأة، لأنه هو أصلهما معا على جهة التساوي.

فإذا اعترفنا بأن الانقسام الضدي للإنسان إلى ذكر وأنثى هو انقسام ذاتي، فهل يرقى إلى أن يكون انقساما جوهريا، فيكون جوهر المرأة مختلفا عن جوهر الرجل؟ أو بعبارة ابن رشد، إذا كان انقسام جنس الإنسان إلى ذكر وأنثى انقساما بالذات لا بالعرَض، فلماذا لا «يكون الذكر نوعا، والأنثى نوعا آخر؟»، أي «لِمَ لا يكون الذَّكر مخالفا للأنثى بالنوعية، إذ كان الذكر ضد الأنثى، والخلاف بالضدية هو خلاف بالصورة؟»، أي بالنوع؟

كان جواب ابن رشد في تفسيره لكتاب ما بعد الطبيعة مباشرا وواضحا وهو أن انقسام الإنسان إلى ذكر وأنثى، وإن كان انقساما ذاتيا، لا يؤدي إلى انقسام نوعي، لأنه «ليس كل ضد يفعل نوعية». لكن، «لِمَ كان بعض الأضداد يفعل نوعية، وبعضها ليس يفعل؟». اتخذت الإجابة على هذا السؤال عدة صيغ أحصيناها في سبع حجج تلونت حسب المجالات الوجودية والمعرفية والمنطقية التي اقتبست منها مفاهيمها وعناصر حلها.

لن نذكر كل هذه الحجج، وإنما سنكتفي بأهمها. من بينها أن الانقسام الذي تحدثه الذكورة والأنوثة في نوع الإنسان لا يكون في الجزء العقلي، أي الماهوي من الإنسان، وإنما في جزئه الجسمي أو الحيواني. بعبارة ابن رشد نفسه «ليس يوجد غيرية للإنسان من جهة العنصر [أي الجسم]»، وإنما «الغيرية [...] توجد إذا كان تضاد في الصورة [العقل]». هذه الغيرية، التي يسميها ابن رشد بالغيرية التامة وهي التي تتباعد فيها الصورتان المتضادتان غاية التباعد في الوجود، لا توجد بين الرجل والمرأة، إذن هما نفس الصورة الواحدة.

وعند الاستئناس بمبدإ استحالة التضاد داخل الماهية بالنسبة للموجود الذي لا تضاد فيه، تنشأ حجة أخرى : بما أن الإنسان واحد لا تضاد فيه، فلا يمكن أن تدخل ضدية الذكورة والأنوثة في تعريف ماهيته، مما يعني أن ماهية الرجل والمرأة واحدة لا تضاد بينهما : ذلك أن «السبب في أن الإنسان واحد في صورته أنه ليس يؤخذ في حده فصول متضادة». وإذا أخذنا بعين الاعتبار بأن «الواحد بالصورة، هو النوع الأخير الذي لا ينقسم إلى نوع آخر، بل إلى الأشخاص»، لأنه هو النوع الأخير في الجنس، أمكن صياغة حجة أخرى تقضي بأن النوع الإنساني لا يقبل الانقسام إلى أنواع، وإنما إلى أشخاص.

من جهة أخرى، نعثر في المتن الرشدي على حجة طريفة تنتمي إلى حقل البيولوجيا. تنسب هذه الحجة هذه المرة وحدة النوع البشري إلى وحدة المادة التي يتكون منها الذكر والأنثى لا إلى الصورة، في حين تُرجِع الاختلاف بينهما إلى تباين الانفعالَيْن اللذين يؤثران في المادة، فالذكر يكون نتيجة انفعال الحرارة، بينما الأنثى تكون وليدة البرودة : «ولهذه العلة كانت مادة الذكر والأنثى بالجملة واحدة، مثل المنيّ، فإن المنيّ الواحد بعينه إذا انفعل انفعالا ما كان منه ذكر، وإذا انفعل انفعالا مضادا لذلك كان عنه أنثى... ويحتمل أن يريد

بالانفعال ما يعرض له من الحرارة والبرودة».

ونستخلص من هذا أنه بالرغم من أن الذكورية والأنوثية انفعالان ذاتيان للحيوان، فهما لا يرقيانِ إلى مستوى الفصلين الذاتيين اللذين يتجوهر بهما الحيوان، بل يظلان في مستوى العرَضَين الذاتيين وحسب. وهذا ما يعبر عنه بقوله: «الذكورية والأنوثية، وإن كانا انفعالين ذاتيين للحيوان وخاصّين به، فليس من نوع الفصول الذاتية الجوهرية، أي ليس هذان الفصلان مما يتجوهر به الحيوان، بل هي أعراض ذاتية لعنصر الحيوان، والحيوان المأخوذ في حدهما، لا أنهما في حد الحيوان على ما شأن فصول الأنواع الجوهرية أن يؤخذ في حدودها أعمها».

إجمالاً، تلتئم هذه الحجج، كل من جهتها الخاصة، لإثبات أن لا فرق بين الرجل والمرأة في الماهية، بالرغم من الاختلاف العرضي الذاتي بينهما. معنى هذا أن الرجل والمرأة لهما نفس العقل، أو أن المرأة هي المرء نفسه، ولا فرق بينهما بالرغم من تضاد «الجنس» الذي ينتمي كل واحد منهما إليه. الاختلاف والتقابل بين الرجل والمرأة، إذن، ليس اختلافا جوهريا، ولكنه أيضا ليس اختلافا عرضيا، وإنما هو اختلاف عرضي ذاتي. فالإنسان ذكر وأنثى بالعرَض، لكن لا بالكيفية التي نصف بها زيد أو عمرو بأنه أبيض أو أسود، أو موسيقِي أو محارب، لأن هذه الأعراض غير ذاتية تعرضِ للإنسان دون أن تكون قادرة على تقسيمه، بل بالكيفية التي تجعل الذكورة والأنوثة عرضيْن ذاتيين تقتسمان الإنسان قسمة تقابلية. ومما يعزز ما ذكرناه أن الذكورة والأنوثة لا تدخلان في تعريف الإنسان، فلا نعرّف الإنسان بأنه ذكر أو أنثى، وإنما نعرّفه بأن «حيوان عاقل» أو «مدني بالطبع». باختصار، الاختلاف بين الرجل والمرأة يكون داخل المساواة، داخل الوحدة النوعية لا خارجها. فهل يسمح هذا الاختلاف «الجنسي» داخل النوع البشري بالزيادة والنقصان، فيكون الرجل مثلا أكثر إنسانية من المرأة، والمرأة أقل إنسانية من الرجل، مما يحرمها من الاضطلاع بالمهمات الجليلة في تأسيس الدولة العادلة والحفاظ عليها؟ هذا ما سنختبره أولا في الخطاب الفلسفي السياسي حول المرأة.

ثانيا: خطاب المساواة بين الرجل والمرأة على مستوى الفلسفة السياسية:

هل سنجد للأفكار الفلسفية بشأن وحدة الحقيقة الإنسانية بين الرجل والمرأة صدى في جوامع سياسة أفلاطون لابن رشد، أم أن الأفكار المساواتية التي وردت في هذا الكتاب كانت لها أصول مختلفة عن تلك التي وردت في كتب الفلسفة النظرية؟

نعتقد أن هذا الكتاب كان بجهة ما محاولة لتطبيق الأفكار النظرية التي وردت بشأن الإنسان على محك الممارسة. إن فكرة الوحدة النوعية بين الرجل والمرأة ستتحول إلى فكرة المساواة السياسية بينهما. بهذا النحو يمكن القول بأن هذا الكتاب كان هو المناسبة المواتية للارتقاء بمسألة المرأة لأن تصبح مسألة فلسفية، لاسيما وأن موضوعه هو العدالة السياسية القائمة على الحكمة الفلسفية. وحتى إن لم يحدث ذلك، أي إن لم تتحول مسألة المرأة إلى مسألة فلسفية في هذا الكتاب، فإنها ستصير على الأقل موضوعا سياسيا بامتياز، أو بالأحرى موضوعا للفلسفة السياسية. باختصار، حققت مسألة المرأة في هذا الكتاب نقلة نوعية من المستوى العملي الثقافي إلى المستوى الفلسفي السياسي.

ويعود هذا التحول إلى أن موضوع كتاب جوامع السياسة لابن رشد هو البحث في شروط

تشييد الدولة الفاضلة. ويمكن اختصار هذه الشروط في ثلاثة، الشرط الأول عملي يتمثل في القيام بثورة تربوية، والشرط الثاني عملي أيضا وهو ربط السياسة بالأخلاق من أجل إقامة نظام حكم عادل وفاضل، والشرط الثالث نظري وهو ضمان الوحدة للدولة. وبالرغم من الطابع النظري للوحدة، فإنها تلعب في هذه المعادلة السياسية دور أداة العدالة، فلا وجود لعدالة سياسية بدون وحدة الدولة. لكن هل الأمر يتعلق بوحدة واحدة، أو أكثر من وحدة؟

من فحصنا لبناء الدولة العادلة الفاضلة لدى ابن رشد سواء في كتاب جوامع سياسة أفلاطون أو في إشاراته المتفرقة في كتبه الفلسفية والمنطقية، بدا لنا أن ذلك البناء يقوم على نوعين من الوحدة: الوحدة التناسبية والوحدة النوعية. كانت الوحدة التناسبية هي أداة تنظيم هرم الدولة الطبقي والوظيفي، والوحدة النوعية أداة فصل القول في العلاقة بين الرجل والمرأة. ومن مقارنة سريعة وبسيطة بين الوحدتين، يظهر أنهما متضادتين، لأن الأولى تقوم على «مساواة تناسبية»، أي على تفاوت وتبعية بين الطبقات الاجتماعية، بينما الوحدة الثانية تقوم على «مساواة جوهرية» بين الرجل والمرأة. ومعنى ذلك أن الوحدة، أو المساواة المطلقة بين الفئات، لا تصلح في نظر ابن رشد لبناء مدينة فاضلة، لأن الخدمة المتبادلة بين تلك الطبقات المتفاضلة هي التي تضمن كمال المدينة الفاضلة. ومع ذلك، أي بالرغم من التضاد بين الوحدتين، فقد ظهرت الوحدة النوعية بالضبط في فضاء الوحدة التناسبية. بعبارة أوضح، في ظل «الوحدة التناسبية» القائمة على مبدإ التفاوت بين الفئات والأفراد ظهرت المساواة بين الرجل والمرأة، لكن فقط في طبقة حماة المدينة، لا بين كل الفئات. فكيف يمكن تفعيل هذه المساواة بين الرجل والمرأة؟

من المعلوم أن الإيمان بالمساواة على الصعيد النظري، أي الجوهري، لا يكفي، بل لا بد من تفعيل هذه المساواة على المستوى العملي. هنا تدخل مقولة التربية باعتبارها أداة تفعيل هذه الوحدة أو المساواة بين «الجنسين» على مستوى فئة حُماة الدولة. ومن البيّن بنفسه أنه لا يمكن أن تكون التربية وسيلة فعالة لتحقيق المساواة الجنسية بين الرجل والمرأة إلا إذا تم اعتبار الاختلاف بينهما عرَضيا، والوحدة ذاتية.

تنطلق عملية التربية، إذن، من «الوحدة النوعية»، أي الوحدة في الطبيعة أو الغاية. ويمكن ترجمة هذه الوحدة ترجمتين مختلفتين من حيث الشكل، وإن كانتا تؤمان نفس الغاية الواحدة، وهما الترجمة المعرفية والترجمة السياسية. فالترجمة المعرفية للوحدة في الغاية تعني أن للرجل والمرأة عقلا واحدا، والترجمة السياسية للوحدة في الغاية تعني أن الإنسان، أي الرجل والمرأة، مدني أو سياسي بالطبع. هكذا تكون الغاية من التربية هي تأهيل المرأة لتحقيق كمالين: كمال سياسي يمكنها من أن تصبح حافظة وحامية للدولة، وكمال معرفي وجودي يؤهلها أن تكون حاكمة، أي فيلسوفة. بهذا النحو ستضمن التربية للمرأة أن تكون حافظة بالمعنيين البيولوجي والسياسي. بالحفظ البيولوجي تحقق المرأة استمرار الحياة، وبالحفظ السياسي تؤَمّن استمرار الدولة العادلة. ولمّا كان الحفظ خلقا جديدا، فإن المرأة بهذا النحو تكون أداة الخلق البيولوجي والسياسي معاً.

نفهم مما سبق أن القول بالوحدة النوعية فتح الطريق واسعا أمام تربية المرأة بنفس الروح والمنهج الذي يُربَّى به الرجل بدون فرق أو تمييز، «لأن الأنثى تفعل هي أيضا نفس ما يفعله الذكر»، كالإقدام والشجاعة والهمة والحميّة والحكمة، ولا تنتظر هذه الاستعدادات سوى تحويلها إلى ملكات وكفاءات عبر التربية والتدريب. نعم، لا يمكن لعاقل أن ينكر

وجود تفاوت بين الرجل والمرأة، لكنه يبقى تفاوتا عرَضيا، ويمكن استثماره بتوجيهه نحو الأفضل. فحتى على المستوى البيولوجي، للرجل مثلا ثدي كالمرأة، غير أنها -أي الثدي- لا تقوم بنفس الوظائف البيولوجية التي تقوم بها عند المرأة، وبالمِثْل «العادات التي تليق بالمرأة ليست تليق بالرجل». ومن ثم، إذا كانت المرأة أحذق من الرجل في بعض الصناعات، والرجل أكثر كدّا من المرأة في صناعات أخرى، فيمكن توجيه الطاقات التي تميز كل منهما نحو ما يناسبه من أفعال ومهمات.

وللثورة التربوية الجديدة مظهر آخر يتصل بالمرأة يمكن اعتباره بجهة ما مظهرا سلبيا لأنه يذهب في اتجاه حرمانها من حقها في امتلاك أسرة خاصة بها. فبما أن «المِلْكية الفردية» هي السبب في انتشار أنواع من الحقد والضغينة والصراع وكل الشرور في الدولة، وبما أن الثورة التربوية الجديدة تهم خاصة الجيش الذي يتطلب الالتحام المطلق بين صفوفه، فقد قامت تلك «الثورة التربوية» بتفعيل الوحدة في اتجاه الاشتراك أو الشيوعية في النساء والأطفال والثروة. ومن الواضح أن الغاية من ذلك لم تكن اجتماعية أو اقتصادية، وإنما كانت سياسية بالأساس لضمان الولاء المطلق للدولة وحدها. بهذا النحو يصبح الاشتراك هو «الخير الأعظم في المدينة» في نظر ابن رشد، لأنه بفضله سينحصر موضوع الحب عند حماة الدولة. بعبارة أخرى، يقوم مبدأ الاشتراك في النساء والأطفال والثروة على تحرير حماة الدولة من أي تعلّق آخر غير التعلق بالدولة، وكأن الدولة في هذا النظام العادل تغار من أن يقاسمها غيرها المحبة والولاء لها. ووحدة التعلق بالدولة يؤكد من جديد المبدأ القائل بأن وحدة الدولة هي أفضل خير، والتعدد هو أكبر الشرور.

قصارى القول، أرسى ابن رشد مكانة المرأة سياسيا، في المدينة العادلة دون غيرها، على كمالين سياسي ومعرفي. الكمال السياسي متصل بالحماية العسكرية، التي تقتضي أعلى درجات الأُهْبة والتصميم الذهني والإقدام النفسي، وأقصى مراتب الانضباط والكفاءة العقلية والأخلاقية لحماية الدولة. ولا شك أن أهمية فكرة إثبات كون النساء قادرات على تحمّل مسؤوليات التربية العسكرية والمذهبية لا تعود إلى قابلية تلك الفكرة أو عدم قابليتها للتطبيق، وإنما تعود إلى كونها تَدحض جملة من الأحكام المُسبَقة التي تصور النساء وكأنهن كائنات رخوة لا يملكن جسداً قويا، ولا نفْسا أبيّة، ولا قلْباً ثابتاً، ولا ذكاءً وقاداً، ولا أخلاقاً عالية، ولا قدَرة على الانضباط. إن الغاية من البرنامج التربوي الجديد هو خلق صورة أخرى للمرأة بموجبها تكون ندّا للرجل في كل شيء، وبخاصة تحمّل المسؤوليات الجليلة. إنه حل رؤيوي حالم قد يكون غير قابل للتطبيق، ولكنه مع ذلك ضروري لتغذية الأمل في تحرير المجتمع لنفسه عن طريق المرأة.

أما الكمال الثاني، الكمال المعرفي المتمثل في الحكم بالحكمة، والذي لا يقتضي فقط كفاءات نظرية عالية وتفرّغا للعلم وزُهدا في الحياة الاجتماعية، ولكنه يتطلب أيضا ضربا خاصا من البصيرة وبعد النظر ومنهجا في التفكير الكلي المطلق، فقد أثبت ابن رشد قدرة المرأة على تحصيله ولو بشيء من التحفظ. بهذا النحو صار بإمكان المرأة أن تكون حاكمة ومحبة للحكمة، أي أنها صارت في المدينة العادلة متمتعة كالرجل بالقابلية لتحقيق الكمال الوجودي المتمثل في بلوغ الغاية في العقل والحكمة؛ والكمال السياسي الذي هو بلوغ الغاية في العدل والفضيلة.

لكن إذا كانت المرأة تحظَى، على المستوى النظري، بنفس القدر من الاعتبار الذي للرجل عبر الوفاء لمبدإ الوحدة النوعية، فلماذا يشهد الواقع على عكس ذلك؟ لماذا نرى المرأة

على المستوى العملي لا ترقى إلى مرتبة الرجل في تحمل كل المسئوليات وحيازة كل الحقوق؟ أو بكيفية أدق، لماذا لم يتأثر الخطاب العلمي البيولوجي والخطاب الحقوقي الفقهي لابن رشد بالمبادئ المساواتية لفلسفته السياسية والوجودية؟ نترك الإجابة على هذه الأسئلة إلى مناسبة أخرى.

خاتمة:

نعتقد بأن إثبات الاختلاف بين الذكورة والأنوثة على المستوى الفلسفي لا يثير أي قلق بشأن إمكانية تحوله إلى تمييز نوعي بينها، لأن الاختلاف أو التقابل بينهما كان داخل نطاق المساواة في الإنسانية. لكن المشكل يبدأ متى انتقل الاختلاف من المستوى الفلسفي، الذي يتميز بالشمولية والإطلاق، إلى المستوى الثقافي، الذي يرتبط بأوضاع وصراعات المجتمع الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية حول السلطة والنفوذ. عندئذ، يتحول الاختلاف إلى تمييز، فتغدو المرأة أدنى عقلا، وأحط أخلاقا، وأبعد عن الاهتمام بشئون السياسة والرئاسة من الرجل. فتكون الثقافة هي الثغرة التي يتسرب منها الاختلاف الثقافي لنسف المساواة الأونطولوجية. وقد سقط في فخ هذا التناقض جل المفكرين القدامى والمحدثين.

وهذا معناه أن الحقيقة التي تقول بها الفلسفة، غير الحقيقة التي تؤمن بها الثقافة. فحقيقة الفلسفة واحدة وشاملة، أو على الأقل تسعى لأن تكون كذلك، لأنها تنظر إلى الشيء كما هو، لا كما ينبغي أن يكون. أما حقيقة الثقافة فهي حقيقة متعددة متحيزة ومتعلقة بشعوب وقبائل محددة في الزمان والمكان، وتقوم على الأخبار والأساطير والقصص والأمثلة والاستعارات بدل البراهين والحقائق. هكذا تكون الثقافة هي سبب نزول المساواة من سماء الماهية إلى أرض اللامساواة الواقعية، فتنشر تصورا دونيا عن المرأة بالقياس إلى الرجل. وقد كانت الثقافة من القوة إلى حد أنها أقنعت المرأة نفسها بوضعيتها المنحطة إزاء الرجل، حيث تحولت إلى داعية لنشر وتكريس التمييز ضدها. هكذا تكون المرأة نفسها قد أسهمت في نشر جو من العداوة ضدها والمتمثلة في الثقافة الذكورية التي روجت لدونية المرأة الأخلاقية والاجتماعية والشرعية وحتى العلمية. ولم تتمكن الإنسانية من تجاوز هذه الوضعية الشاذة إلا بعدما دخلت في زمن الحداثة، هذه الحداثة التي عملت شيئا فشيئا على إعادة الاعتبار للمرأة على المستويين النظري والعملي.

أما بالنسبة لابن رشد، فقد كان موقفه من المرأة مزدوجا. ففي فضاء الفلسفة، ومن زاوية العقل النظري، وجدناه ينظر إلى المرأة ضمنيا من خلال نظرته العامة إلى الإنسان، هذه النظرة التي أقرّت بالمساواة الأونطولوجية بينها وبين الرجل. وتعزّزت هذه النظرة على مستوى العقل العملي، أقصد مستوى «المدينة الفاضلة» التي كانت فيها السياسة تساوي الفلسفة، حيث ذهب بعيدا في تكريس وتفعيل المساواة بين الرجل والمرأة. فسمح لها بالحق في تلقي نفس التربية التي يتلقاها الرجل، الأمر الذي جعلها، نظريا، قادرة على استثمار كل طاقاتها، وتأهيلها لتقلد كل المناصب العليا في الدولة، كالرئاسة العسكرية والسياسية والفلسفية. نعم، لم تكن مساواة المرأة جزءً من استراتيجية عامة تتبناها «المدينة الفاضلة» بالنسبة للجميع، لأن السياسة في هذه المدينة كانت قائمة على عدالة «تناسبية»، أي على عدالة «لا مساواتية». ومع ذلك دخلت المساواة بين الذكر والأنثى في إستراتيجية خاصة تهم الجانب التربوي من المدينة، هذه التربية التي تهم خاصة فئتي المحاربين والقادة السياسيين. وضمن هذا الفضاء الفلسفي بشقيه الأونطولوجي والسياسي، حرص

ابن رشد على أن لا يوجد فرق جوهري بين الرجل والمرأة، طالما أنهما ينتميان معا إلى ماهية واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان، علماً بأن هذه الوحدة لا تنفي وجود الاختلاف، الذي، وإن وصل إلى درجة التقابل الذاتي الذي يترتب عنه وجود اسمين مختلفين للمتقابلين (الرجل والمرأة، الأنثى والذكر)، فإنه لا يحدث تميزاً نوعيا، أي في الماهية بين الرجل والمرأة.

ولكنه في فضاء البيولوجيا والشريعة نجده يتخلى عن هذا التراث الفلسفي السياسي المساواتي لصالح تراث مضاد ينطلق من رؤية لامساواتية تعتبر المرأة إما أنها نصف الرجل، أو أنها موجودة من أجله.

ويبقى السؤال المحيّر هو لماذا لم يشأ ابن رشد أن يقرن خطابه الفلسفي السياسي بخطابه الفقهي، عِلما بأنهما ينتميان إلى مجال واحد، هو العقل العملي؟ لماذا لم يحاول استثمار المادة الحقوقية الخام التي بسطها في كتاب بداية المجتهد ليحوّلها إلى مفاهيم وآليات ورؤى حقوقية وسياسية جديدة بشأن المرأة في إطار المدينة بصفة عامة؟ وإلا فما قيمة الأفكار الطريفة والمدهشة التي تبناها حول مساواة الرجل بالمرأة في جوامعه لسياسة أفلاطون إذا لم تؤثر في آرائه الفقهية التي تتصل بتدبير المجتمع في بنياته التحتية، بل ما قيمة مقولته الشهيرة بأن «الحق لا يضاد الحق» إذا لم يتم تفعليها فقهيا خصوصا فيما يتصل بالحق الشرعي والحق الماهوي للمرأة؟ لماذا لم يرى المرأة في «وجودها» على غرار ما رآها في «ماهيتها»، هل بسبب فصل الماهية عن الوجود أم بسبب أسبقية الوجود على الماهية؟ لكن من جهة أخرى، هل يمكن اعتبار الأفكار التي دافع عنها في كتابه السياسي بشأن المساواة السياسية والأونطولوجية للمرأة بالرجل خارطة طريق لتحرير المرأة (أي وجود بالقوة)، ومن خلالها تحرير المجتمع والرفع من مستواه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والمعرفي، أم أنها مجرد رؤية حالمة مستحيلة التطبيق، ولو أنها محفِّزة للتفكير في واقع آخر لعلاقة الذكورة بالأنوثة؟ بل أكثر من ذلك، من حقنا أن نتساءل فيما إذا كانت المرأة التي كان يتكلم عنها أبو الوليد على المستوى السياسي-الفلسفي هي نفس المرأة التي يتكلم عنها على المستوى الفقهي؟ هل المعنى الأونطولوجي للمرأة الذي استخلصناه من ماهية الإنسانية، والذي تدخل فيه الأنوثة على حد سواء مع الذكورة، ولو على جهة التقابل، هو نفس المعنى الفلسفي السياسي ذي الطبيعة الاستشرافية التي لا يحدها لا زمانٍ ولا مكان، والذي بمقتضاه تصبح المرأة ندًّا للرجل في القيام بكل الأفعال التي كانت محتكَرَة من قِبَل هذا الأخير، كالحماية والحكم والتفكير الفلسفي، وذلك بحكم امتلاكهما لنفس الطبيعة، وهل المعنيان السابقان هما نفس المعنى الفقهي للمرأة الذي يخضعها لسلاسل لانهائية من الأحكام الشرعية والأحكام المسبقة والأخبار والاجتهادات التي تقيد حريتها إلى درجة تجعل وضعيتها أقرب ما يكون من وضعية الصبيان والعبيد والمعتوهين؟

لم نكن ننوي في هذا البحث التمهيدي أن نجيب على مثل هذه الأسئلة التي تتطلب بحثا آخر يتجاوز الحدود التي رسمناها لأنفسنا في هذه المناسبة. وحسبنا هنا أن نشير إلى إن هذه الفجوة التي تركها لنا ابن رشد بين وضعية المرأة في الفلسفة ووضعيتها في الفقه هي منبه لنا من أجل أن نملأها لا فقط بالبحث الحقوقي والسياسي والفقهي والكلامي والصوفي والفلسفي المعمق، ولكن أيضا بالنضال المدني والحوار الديمقراطي وبثقافة الاعتراف بالآخر حتى وإن رفض المساواة بين الذكورة والأنوثة. ولا يمكن أن يُكتَب النجاح لهذا الشرط المزدوج لملء الثغرة بين الفلسفي والفقهي، أو بين الوجودي والشرعي، إذا لم

تحرِّكه الرغبة المشتركة بين المتحاورين في الوصول إلى حلول وسطى تأخذ بعين الاعتبار كل الحساسيات والظروف، على أن يتفق الجميع على أن المرأة تبقى هي راعية الحياة وضامنة المستقبل وحاضنة للحداثة.

إننا نعتقد أن إنصاف المرأة والاعتراف بكرامتها يجب أن يأتي من الداخل، من ذات المرأة، لا من خارجها، أي من القوانين والدساتير والأعراف والتقاليد. فكما أن الصحة، كما يقول ابن رشد، تأتي أولا من الذات لا من الأدوية، فكذلك إنصاف المرأة. لكن ليس معنى هذا أن إنصاف المرأة ليس بحاجة إلى القوانين والدساتير والمساطر التي تتولد عبر حوار ديمقراطي يشترك فيها الجميع ويؤخذ برأي الجميع دون استثناء، ولكن ما أعنيه أن المرأة إذا لم تكن مؤمنة بحريتها، فإنه مهما تضمنت القوانين من مبادئ وقواعد وإجراءات عملية تقرّ بمساواتها مع الرجل وتضمن إمكانية إنصافها وتفسح المجال أمام حريتها، فإنها ستبقى حبرا على ورق ما لم تؤمن المرأة بقضيتها وتكف عن التمتع والإشادة بقيودها! يجب أن تكون المرأة حرة في ذاتها، مساوية لذاتها بذاتها، لكي تكون حرة في مجتمعها، مساوية للرجل ندها وشريكها في الحياة. كما أن على المرأة أن تظل في كامل يقظتها حتى لا تصبح مجرد موضوع أنتروبولوجي، أو موضوع للاستخدام السياسي أو الثقافي، بأن تثبت أنها ذاتا مستقلة، لكن لا ذلك الاستقلال السلبي الرافض لكل التراكمات الإيجابية البطيئة، وإنما ذلك الاستقلال الذاتي الذي يقود إلى حرية إيجابية مسئولة وبناءة.

منتهى القول، يتطلب إصلاح وضعية المرأة ثورة ثقافية وتربوية جذرية ذات نفَس طويل، لأن الثقافة التقليدية راكمت منذ آلاف السنين أحكاما مسبقة تمييزية لا يمكن محوها بسهولة بين ليلة وضحاها.

إن سلب المرأة حقوقها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية هو مؤشر على أن زمن السياسة بمعناها القوي، أي بالمعنى الذي يعترف فيه المجتمع بالمواطنة للجميع من أجل المشاركة سواسية في العملية السياسية، لم يحِنْ بعد. ومن ثم نعتقد بأن دخول المرأة، باعتبارها ذاتا واعية ومستقلة، معترك السياسة هو شهادة ميلاد عالَم السياسة، وإلا فإن السياسة بدون المرأة هو أشبه بالنظام العشائري أو ما في معناه.

مدى توافر مناخ نفسي اجتماعي في الأسرة لتنمية الموهبة لدى الأبناء : دراسة ميدانية على تلاميذ التعليم الثانوي

أ. د. بشير معمرية
جامعة باتنة – الجزائر

د. عبد الحميد خزار
جامعة باتنة – الجزائر

ملخص:

هدفت الدراسة إلى البحث عن مدى توفر مناخ أسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء. تكونت العينة الكلية من 389 تلميذا وتلميذة من التعليم الثانوي بولاية باتنة؛ منهم 164 ذكرا، 225 أنثى. تراوحت أعمارهم بين 15 ـ 20 سنة. وتم اختيارهم من شعب علوم وتكنولوجيا وعلوم تجريبية وأدب وفلسفة وتسيير واقتصاد. ومن السنوات الدراسية الثلاثة. طُبّق استبيان يتكون من 40 بندا لقياس المناخ الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء. تبين أن الإناث أكثر من الذكور إدراكا لوجود مناخ أسري لتنمية الموهبة. ولا وجود للفرق بين النسبتين المئويتين للجنسين في إدراكهم للمناخ الأسري. وكان أهم أساليب المناخ الأسري تتعلق بالتشجيع على التفوق في الدراسة وفي كل الأعمال. والتشجيع على الثقة في النفس والاعتماد عليها. والتشجيع على مقاومة الفشل. وتوفير الأمن. والتشجيع على التعبير عن الأفكار الجديدة. وإقامة علاقات طيبة في الأسرة. وتوفير جو مرح في البيت. والتشجيع على إبراز المواهب. والتشجيع على عدم التردد في التعبير عن الأفكار. والتشجيع على مناقشة الأفكار في الأسرة.

الكلمات الدالة: الموهبة، الأسرة، التلاميذ، التعليم الثانوي، الذكاء.

مقدمة:

يعتبر التفوق البشري من أعظم ثروات الأمم، وهو أفضل استثمار على المدى البعيد، إذا ما أحسن استغلاله. فالمجتمعات تعلو أسهمها بموهوبيها ومبدعيها، وتتقدم وتزدهر بعقول متفوقيها، فالموهوبون هم الثروة الحقيقية لمجتمعاتهم. والمجتمعات التي تملك ثروات مادية وطبيعية فقط، لن يكون لها جدوى ما لم تستعمل عائداتها في الكشف عن الموهوبين ورعايتهم.

وهناك مجتمعات لا تملك ثروات مادية وطبيعية، مثل سويسرا واليابان وتايوان وكوريا وماليزيا، ومع ذلك حققت تطورا علميا واقتصاديا، وأصبحت ضمن الدول المكتفية ذاتيا اقتصاديا، لما تبذله من جهود في مجال اكتشاف ورعاية الموهوبين.

وتظهر الموهبة بشكل واضح على الأطفال في مرحلة مبكرة من حياتهم، حيث يحققون تقدما في جميع جوانب نموهم يفوق أقرانهم، يمكن ملاحظتها بسهولة. ومن ثم يكون الاهتمام بهم ورعايتهم نفسيا وتربويا واجتماعيا من المراحل المبكرة من حياتهم.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، لا يوجد خلاف بين علماء العلوم الاجتماعية حول أهمية التفاعل بين الآباء والأبناء، في سنواتهم الأولى خاصة، وتأثيره في ارتقاء شخصية الطفل في سنوات عمره التالية.

وتعد البيئة الأسرية، فيما يرى علماء النفس وعلماء الاجتماع، ذات أهمية كبيرة في تشكيل شخصية الفرد. فالطفل البشري لا يستطيع أن يحيا حياة بشرية سوية، إذا لم ينشأ في مثل هذه البيئة. فهي التي تمنحه صفاته البشرية، وأساس شعوره بذاته، وفرديته، ونمو أناه، بل هي مصدر كل رضا يشعر به، أو يسعى إليه، أو حتى يحلم به، (مصطفى أحمد تركي،1973).

ويشير علماء النفس إلى أن الفرد بما يرثه من استعدادات وإمكانات لكي يكون قادرا على التعلم، وعلاقته بوالديه، والبيئة الاجتماعية المحيطة به، وإدراكه لهذه العلاقة وهذه البيئة، هي العوامل الهامة في تشكيل شخصيته. ويرى المحلل النفسي الألماني إريك فروم E. Fromm أن كل صفات الطفل النفسية تصوغها الأسرة، حيث تقوم عادة بدور الوكيل النفسي Psychological Agent للمجتمع، (مصطفى أحمد تركي، 1973).

وتأتي أهمية الأسرة في حياة الأبناء على أساس أنها تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية، وهي الأقرب إلى الأبناء من أية جماعة بشرية أخرى. وقد تسودها العلاقات الطيبة ذات التأثير الإيجابي على الأبناء أو العكس، (أكرم مصباح عثمان، 2002).

والأسرة هي المحضن الأول والطبيعي الذي يبدأ فيه تَشَكُّل شخصية الفرد، وتَكَوُّن اتجاهاته وسلوكه بشكل أساسي. فهي تعد أهم مؤسسة اجتماعية تؤثر في شخصية الفرد. ذلك لأنها تستقبل الوليد أولا، ثم تحافظ عليه خلال أهم فترات حياته، وهي فترة الطفولة. لأنها فترة بناء وتأسيس، (عبد الله بن ناصر السدحان، 2003). وبما أن الأسرة هي البيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الطفل في سنوات حياته الأولى، تستطيع اكتشاف بوادر موهبته وتفوقه مبكرا، فتقوم برعايتها بتوفير مناخ نفسي اجتماعي يشجع على نموها وظهورها بشكل واضح.

أهداف الدراسة:

من هنا فإن هذه الدراسة تسعى إلى تحقيق الأهداف التالية :

1. التعرف بين مدى الفرق بين الجنسين في إدراك توافر هذا المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.
2. الكشف على مدى توافر مناخ نفسي اجتماعي أسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.
3. التعرف على أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد العينة.

أهمية الدراسة:

تنبع أهمية هذه الدراسة من الجوانب التالية :

1. أنها تتناول موضوعا على جانب كبير من الأهمية، وهو الموهبة والموهوبين ومدى رعاية الأسرة لهم.
2. أنها تتناول مدى توافر المناخ النفسي الاجتماعي في الأسرة الذي يشجع على نمو الموهبة لدى الأبناء.
3. أنها مهمة من حيث النتائج التي سوف تسفر عنها في مجال توافر المناخ الأسري لتنمية الموهبة، وتلفت انتباه الآباء إلى دورهم في هذا المجال.

الإطار النظري للدراسة

أولا : الدراسة السيكولوجية للموهبة

1 . تعريف الموهبة:

الموهبة لدى اللغويين، اسم مشتق من فعل : وَهَبَ، وجمعها مواهب، وهي كل ما وهبه الله للفرد، (كمال إبراهيم مرسي، 1992). ويشير فعل « وَهَبَ» في معاجم اللغة العربية إلى أنه : أعطى شيئا بلا مقابل، (ضيف الله الثبيتي، 2003). والطفل الموهوب هو شخص ذكي نابغ متفوق ذو مستوى مرتفع في الأداء عن الأطفال الآخرين، (وليد محمد العوزة، 1993).

أما لدى علماء النفس فإنه لا يوجد للموهبة تعريف محدد بدقة، بسبب تداخلها مع مصطلحات أخرى مثل العبقرية والنبوغ والإبداع والتفوق، وبسبب تعدد محكات قياسها، (ضيف الله الثبيتي، 2003). وكذلك بسبب تعدد مجالاتها. وهناك من يعتقد أنها استعدادات للنبوغ في المجالات غير الأكاديمية مثل الموسيقى والرسم والشعر والرقص وغيرها، (كمال إبراهيم مرسي، 1992).

ويرى بعض الباحثين أن مفهوم الموهبة يشير إلى القدرة المتميزة المرتفعة غير المقتصرة على الذكاء الذهني، بل قد ترتبط بالذكاء الموسيقي أو الفني أو العلمي، فيعد الموهوب موهوبا حتى لو اقتصرت موهبته على ناحية واحدة أو أكثر.

أما هيئة التفوق العقلي والموهبة بالكونجرس الأمريكي، فتعرف الموهبة كما يلي : «الموهوبون والمتفوقون هم الذين يتم التعرف عليهم في مرحلة ما قبل المدرسة أو المرحلة الابتدائية أو الثانوية، بأن لديهم قدرات خاصة، سواء كانت ظاهرة أم كامنة، والتي تشير إلى أداء عال في مجالات القدرة العقلية والإبداعية، والقيادة والفنون البصرية والأدائية، والذين يحتاجون إلى خدمات خاصة لا توفرها لهم المدارس العادية»، (محمد عبد الهادي حسين، 2006).

وأقرت هذه الهيئة مجالات الموهبة فيما يلي :

1. القدرة العقلية العامة.
2. الاستعداد الأكاديمي الخاص.
3. التفكير الإبداعي أو الإنتاجي.
4. القدرة على القيادة.
5. الفنون البصرية أو المرئية أو الأدائية.
6. القدرات النفسية الحركية، (محمد عبد الهادي حسين، 2003).

ويحدد روبرت سترنبرج R. J. Sternberg 1997 الموهبة في ثلاث عمليات وهي :

1. الموهبة التحليلية وهي القدرة على تحليل الصعوبات وربط الأفكار ببعضها البعض.
2. الموهبة التركيبية وتشمل البصيرة والبديهة والقدرة على التأقلم مع المعلومات الجديدة والتميز في العلوم والفنون.
3. الموهبة العملية وتتضمن القدرات التحليلية لحل صعوبات الحياة اليومية، (خولة أحمد يحي، 2006).

أما رنزولي Renzulli J. S.1979 فيقدم مفهومه عن الموهبة، بإضافة عنصر هام هو الدافعية. ويفضل استعمال لفظ «السلوك الموهوب» بدلا من الطالب الموهوب. ويعتمد مفهومه عن الموهبة على ثلاثة عناصر : الأول هو القدرة الابداعية. الثاني هو القدرة العقلية العامة فوق المتوسط. الثالث هو القدرة على إنجاز المهام. وتقع الموهبة، وفق رنزولي، عند نقطة الالتقاء بين هذه العناصر الثلاثة. ويقول إن التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة، تحدثه فرص تعليمية خاصة لا تتوفر عادة في المناهج التعليمية التقليدية، (محمد عبد الهادي حسين، 2006).

ويربط روبرت جانيي R. Gagne الموهبة بالقدرات التي تنمو بشكل طبيعي غير مقصود، يطلق عليها الاستعدادات. وعرف الموهبة بأنها : «قدرة فوق المتوسط في مجال أو أكثر من مجالات الاستعدادات الإنسانية، وحددها في الاستعداد العقلي، الأكاديمي، الانفعالي، الاجتماعي، الحسي/ الحركي، الإبداعي وغيرها»، (زينب محمود شقير، 1999).

ويعرف فرنسيس جالتون F. Galton الموهبة عام 1892 بأنها : «قدرة الفرد على الوصول إلى مركز مرموق بين العاملين في مجاله، سواء كان هذا المركز في مجال فني أو علمي أو سياسي، أو في مجال القيادة الاجتماعية أو العسكرية وغيرها»، (لطفي بركات أحمد، 1981).

2 . محكات الكشف عن الموهوبين:

محك الذكاء : كان تيرمان أكثر من غيره اعتزازاً بهذا المحك، باستخدام اختبار ستانفورد بيني للذكاء. ورأى أن الموهوب والمتفوق عقلياً هو من يحصل على درجات على هذا المقياس فتضعه أفضل 1% من المجموعة التي ينتمي إليها وفقا لمستوى الذكاء.÷

محك التحصيل المدرسي: وحسب هذا المحك تشمل الموهبة المتفوقين الذين يصلون في تحصيلهم الأكاديمي إلى مستوى مرتفع.

محك التفكير الإبداعي: ويعتمد هذا المحك، يظهر الموهوبون درجة عالية من الطلاقة والمرونة والأصالة في أفكارهم. بحيث يتم من خلال هذا المحك الكشف عن الفرد المميز والفريد وغير المألوف.

محك الموهبة الخاصة: اتسع مفهوم التفوق العقلي، فلم يعد قاصراً على مجرد التحصيل في المجال الأكاديمي فقط، بل نجده في مجالات خاصة، تعبر عن مواهب معينة لدى الأفراد، تؤهلهم كي يصلوا إلى مستويات أداء مرتفعة في هذه المجالات.

محك الأداء والإنتاج: يتوقع من الموهوبين، وفق هذا المحك، أن يقوموا بأفضل أداء وأتقن إنتاج في مجال معين، ويتفوقون على من هم في مستوى عمرهم.

3. مميزات الموهوبين:

يذكر ماريان شيفل مجموعة من المميزات التي تميز الموهوب عن غيره، منها :

1. يكون متفوقا في قدرته على القراءة، من حيث السرعة والفهم، ويستمتع بالقراءة، مع اختلاف أنواع الميادين التي يقرأ فيها وعنها.
2. له ميول متعددة، ويتعلم بسهولة وبسرعة.

3. يكون عادة أطول وأثقل وزنا وأكثر قوة وحركة، وأصح جسما، ويتم نضجه مبكرا بالنسبة لأقرانه.
4. يكون حسن الخلق متعاونا، قادرا على نقد ذاته وغير مغرور. كما يميل إلى ألعاب من هم أكبر سنا، ولديه نزعة للقيادة والمبادرة في النشاطات المختلفة.
5. يكون متفوقا في الأداء، قادرا على الإبداع في إنجاز العمل وإتمامه.
6. يميل إلى اللعب الانفرادي، ويفضل أنواع اللعب التي تتطلب مهارات.
7. يتفوق في التحصيل الدراسي.
8. يكون أقل عيوبا في النطق وفي الحواس،(وليد محمد العوزة، 1993).

4 . الموهبة والذكاء:

يعتبر كثير من السيكولوجيين أن الذكاء أهم مدخل لدراسة الموهبة والتفوق العقلي. ويعد السيكولوجي الأمريكي لويس ترمان L. Terman أول من بحث في مجال الموهبة والعبقرية والتفوق العقلي ابتداء من عام 1921 على عينة من تلاميذ التعليم الابتدائي وصلت معدلات ذكائهم إلى 140 فأكثر باستخدام اختبار ستانفورد ـ بيني. كما تضمنت العينة تلاميذ من المرحلة الثانوية ممن وصلت معدلات ذكائهم إلى 135 فأكثر باستخدام نفس الاختبار. واعتبر ترمان أن الموهوب والمتفوق عقليا هو الذي يحصل على درجات مرتفعة على اختبار ستانفورد ـ بيني، بحيث تضعه هذه الدرجات ضمن أفضل 1% من المجموعة التي ينتمي إليها. إن ترمان يعتبر الذكاء هو أساس الموهبة والتفوق العقلي. (عطوف محمود يسين، 1981).

وتعد ليتا هولنجورث L. S. Hollingworth من أوائل من بحث في مجال الموهبة عام 1931 بعد ترمان. وتعرّف الطفل الموهوب بأنه : «ذلك الطفل الذي يتعلم بسرعة تفُوقٌ بقية أقرانه. وقد يعبر عن هذه القدرة الفائقة على التعلم في مجال الفنون كالموسيقى أو الرسم، أو قد تكون في مجال المجردات والتحصيل الأكاديمي»، (لطفي بركات أحمد، 1981).

ويفسر تشارلز سبيرمان C. Spearman أيضا الموهبة بالتفوق في القدرة العقلية العامة.

ويعتبر بعض الباحثين الذين يفضلون استخدام الذكاء كمدخل لدراسة الموهبة، أن نسبة الذكاء 130 فأكثر، هي الحد الفاصل بين الموهوبين والعاديين، (سناء محمد سليمان، 1993).

إلا أن اختلافات ظهرت فيما يتعلق بنسبة الذكاء التي تمثل الحد الفاصل بين الموهوبين والعاديين. وبلغ هذا الحد 140 فأكثر أو 135 فأكثر لدى ترمان عام 1921. و130 فأكثر لدى هولنجورث عام 1931. وانخفض إلى 120 لدى تراكسلر Trachsler عام 1940، (لطفي بركات أحمد، 1981).

ويستعمل معاملات الذكاء السابقة أولئك الذين يقيسون الذكاء باختبار ستانفورد ـ بيني للذكاء. فكيف الحال بالنسبة للذين يقيسون الذكاء باختبارات أخرى لا تستعمل معامل الذكاء كمقدار كمي لدرجة ذكاء الفرد؟ في هذه الحالة يعرف مكتب التفوق العقلي والموهبة Office of gifted and talented بالكونجرس الأمريكي، التفوق العقلي والموهبة بارتفاع درجة الفرد على اختبارات الذكاء المقننة بانحرافين معياريين (+ع2) فأكثر فوق المتوسط،

سواء كانت اختبارات الذكاء المطبقة فردية أم جماعية، (محمد عبد الوهاب حسين، 2003). وهو المعيار الذي اعتمده الباحثان لاكتشاف الموهوبين في هذه الدراسة.

وتعرض الذكاء كقدرة عقلية واحدة لانتقادات عديدة، فقد بين التحليل العاملي أن اختبارات الذكاء لا تقيس سوى عدد قليل من القدرات العقلية. مما يوضح قصور اختبارات الذكاء التقليدية في إعطاء صورة شاملة وواضحة عن قدرات الفرد المتعددة.

واعترف أحد أقطاب القياس النفسي وهو جلفورد J. P. Guilford في كتابه الشهير «ما بعد طريق معامل الذكاء Way Beyond the I. Q» عام 1977 بأن ثمة أبعادا غير مرئية لا يستطيع القياس بكل أدواته الوصول إليها في شخصية الإنسان، (عطوف محمود يسين، 1981).

ويستدعي ما سبق مناقشة علاقة الموهبة بالذكاء. لقد أشارت الدراسات النفسية إلى أن الموهبة تختلف عن الذكاء المرتفع، وهذا ما يقال أيضا عن علاقة الإبداع بالذكاء. فليس كل الموهوبين أذكياء، ولا كل الأذكياء أصحاب مواهب. ففي دراسة فوكس L. H. Fox 1976 على الأطفال الموهوبين في الرياضيات واللغات والعلوم، وجد أن بعضهم أذكياء، والبعض الآخر ليسوا على درجة عالية من الذكاء. مما جعله يقول أن الذكاء المرتفع لا يكفي للتنبؤ بالتفوق في الرياضيات والعلوم واللغات، لأن التفوق في هذه المجالات يعتمد على وجود المواهب الخاصة بها، (كمال إبراهيم مرسي، 1992).

وفي هذا الصدد يفرق بعض الباحثين بين الموهبة العامة The Giftedness الموهبة الخاصة The Talented التي هي مستوى عال من الاستعداد أو القدرة (الخاصة) على الأداء في مجال معين أو أكثر من مجالات النشاط الإنساني، (زينب محمود شقير، 1999).

ويتميز بها شخص بعينه دون غيره بالتفوق في الأداء المهاري الخاص، كالأداء المهاري الموسيقي أو البدني أو الميكانيكي أو الفني أو اللغوي أو الحسابي أو القيادي وغيره. والموهبة لا ترتبط بالذكاء، حتى أن بعضها قد يوجد لدى المتخلفين عقليا. (لطفي بركات أحمد، 1981).

ففي دراسة تردجولد وآخرون R. E. Tredgold & al 1963 على المتخلفين عقليا وجد أن بعضهم موهوبون في التذكر والرسم والموسيقى. أطلق عليهم العلماء المعتوهين Idiot Savantsأو الموهوبين المعتوهين Idiot Gifteds. وفي الكويت وُجِد طفل نسبة ذكائه 45 لديه ذاكرة رقمية تمكنه من حفظ عشرة أرقام بعد سماعها مرة واحدة. وشاب نسبة ذكائه 65 لديه قدرة على الرسم تفوق مستوى الشخص العادي، (كمال إبراهيم مرسي، 1992).

فالمواهب تعتمد على استعدادات تنمو مستقلة عن الذكاء. فالمواهب في الموسيقى والرسم والرقص والتآزر العضلي والمهارات اليدوية وغيرها ليست مظاهر عقلية، وارتباطها بالذكاء كقدرة عامة ضعيف.

لكن لا يعني هذا أن الذكاء ليس ضروريا لأصحاب المواهب. فقد تبين من بعض الدراسات أن نسبة الموهوبين في المستويات العقلية العليا، أعلى بكثير من نسبتهم في المستويات العقلية الدنيا. وأن الموهوبين محدودي الذكاء غير نابغين، وليست لهم أعمال أصيلة (إبداعية)، في حين كانت نسبة ذكاء الموهوبين النابغين أعلى من المتوسط. ففي دراسة ترمان وجد أن الموهوبين في الموسيقى الذين لهم أعمال أصيلة من الأذكياء. وفي دراسة

كاترين كوكس C. M. Cox 1976 على 301 موهوبا في الموسيقى والأدب والسياسة والقيادة العسكرية، وجدت أنهم من الأذكياء. وفي دراسة مكتب التعليم بإحدى الولايات الأمريكية كانت نسبة ذكاء الأطفال الموهوبين في الفنون 112 فأكثر. ووجد ماك جن 1976 P. V. Mc Ginn أن متوسط نسبة ذكاء الأطفال الموهوبين في الرياضيات أعلى من متوسط نسب ذكاء الأطفال غير الموهوبين. وتوصل إ. س. ستانلي 1976 I. C. Stanley إلى نفس النتيجة من دراسته على 40 طفلا موهوبا في الرياضيات واللغات والعلوم. (كمال إبراهيم مرسي، 1992، 121).

إن نتائج الدراسات السابقة تبين أن الذكاء المرتفع ضروري لظهور الموهبة وتنميتها وإظهار النبوغ في مجالاتها. أما إذا كان الفرد موهوبا فقط، دون ذكاء مرتفع، فلا يظهر النبوغ في مجال موهبته.

ثانيا: مناخ الأسرة والموهبة:

بما أن الأسرة هي الجماعة البشرية الأولى التي تستقبل الطفل بعد ولادته، فإن لها السبق في التعرف على جوانب نموه وخصائصه التي يتميز بها عن غيره. فقد لوحظ من دراسات عديدة، أن ملاحظة الآباء وتقديرهم لأبنائهم المتفوقين، يعد مصدرا أكثر صدقا وثباتا في الكشف عن الموهوبين في وسط أبنائهم. وَوُجد أنه في حضرة الآباء، يكون الأبناء أكثر أمنا وحرية وانطلاقا، عقليا ووجدانيا وسلوكيا. فتظهر لديهم الخصائص التي تميزهم على طبيعتها، دون أن يشوبها أي نوع من الكف الاستجابي. وهذا يتطلب أسلوب معاملة والدية قائمة على التسامح والتقبل والتشجيع على الاستقلال. (فتيحة نصير، 1994). كما يتضمن مستوى اقتصادي وتعليمي وثقافي للأسرة، يوفر للطفل الموهوب تنمية موهبته، حيث تبين أن انخفاض هذه المستويات، يكون عائقا دون انطلاق المواهب. (محمد عبد المقصود، 1989).

وفي هذا المجال أوضحت دراسة لويس ترمان L. Terman الشهيرة، أن الملامح الأولى للتفوق، لوحظت من قبل الوالدين والأتراب عن طريق ملاحظاتهم لعدد من السمات التي تتوافر لديهم. وعليه يمكن أن يساعدوا في اكتشاف الموهوبين. وتبين من دراسة (مها زحلوق، 1997) أن البيئة العائلية لها دور فعال سواء في الاكتشاف أو الرعاية والتنمية للموهبة، (زينب محمود شقير، 1999).

وتوصي هذه البحوث بأن يسعى الآباء إلى التعرف على أبنائهم معرفة حقيقية موضوعية، بعيدا عن التحيز والمبالغة. وأن يتقبلوا مواهبهم ويعاملونهم باتزان وعدل في تقدير ما لديهم من مواهب، ويقدرون ميولهم وهواياتهم. ويتجنبوا الممارسات غير المشجعة لأبنائهم الموهوبين، كالاستهزاء بما يقومون به من أنشطة، مثل كتابة القصة أو الشعر أو العزف أو التجريب أو الاختراع وغيرها. بل على الآباء أن يتعرفوا على خصائص أبنائهم الموهوبين، وأن يتعرفوا على الممارسات الوالدية السوية التي تساعد على تنمية الموهبة والعقل المبدع، ومعرفة الطرق الملائمة لتشجيع الأطفال الموهوبين.

وتبين الكثير من الدراسات أن الاتجاهات الوالدية في تربية الأبناء، من العوامل المحددة للمناخ المشجع لنمو الموهبة والابتكارية. وهناك الكثير من الدراسات التي بينت وجود علاقة بين أساليب تنشئة الأبناء وموهبة هؤلاء الأبناء وابتكاريتهم. ومن هذه الدراسات،

دراسات كل من بالاغاس Balagas 1968، هيلبرين Heilbrin 1971، إيزمان، جروسمان Eisman & Grosman 1971، بنج Bing 1973، ويسبرغ، سبرنجر Weisberg 1961 & Springer، جو Joe 1976، هاري Hare 1972، براون Brown 1980، شيفر1969 Scheafer التي بينت أن الموهوبين والمبتكرين كانت اتجاهات آبائهم في تربيتهم تتسم بالديمقراطية والمساواة والتسامح والحرية وتجنب التسلط والتشجيع على الاكتشاف والتجريب والتخيل والاستقلالية، (ممدوح الكناني، 1990).

وفي دراسة ماكنون Mc Keenoun 1972 على المهندسين المعماريين المبدعين، تبين منها أن أكثر ما يميز آباءهم هو احترامهم للأبناء وثقتهم في قدرتهم على عمل ما هو مناسب، ومنح أطفالهم الحرية الكاملة في اكتشاف عالمهم واتخاذ قراراتهم بأنفسهم دون تدخل الآباء. ولم يذكر أحد من هؤلاء المبدعين أنه لقي ضغطا من والديه أو أحدهما، حيث كانت هناك ثقة دائمة في أن الطفل سيختار وينمو حرا دون ضغط أو قيد، (ممدوح الكناني، 1990).

وفي دراسة نيكولز Nichols 1974 وجدت ارتباطات سالبة بين تسلط الأم وكل من المرونة المعرفية والميل للبحث والنجاح المتوقع والاستقلال في الحكم والميل إلى الأصالة لدى الأبناء. ووجود ارتباطات سالبة كذلك بين الابتكارية والبيئة الاجتماعية، وخاصة المنزلية، التي تتسم بالصلابة وضيق حرية الحركة المسموح بها، وبممارسة أنواع من الضبط والعدوان والإحباط، (ممدوح الكناني، 1990).

وفي دراسة دريير، ويلز Dreyer & Wels 1966 تبين منها أن أمهات المبتكرين تميّزن بالسماح لأبنائهن، في سن مبكر، بالاستقلال والسلوك الاستكشافي وحرية اتخاذ القرارات في تصرفاتهم داخل المنزل وخارجه. كما وجد أيضا أن هؤلاء الأمهات يوفّرن عاطفة الأمن. وفي ظل هذه العاطفة، تنمو القدرة والثقة على العمل بطريقة استقلالية، (عبد الحليم محمود السيد، 1980).

وتشير دراسة إيزاكس Isaacs 1976 أنه إذا أراد الآباء أن يوفروا لأبنائهم الفرص لنمو الموهبة والابتكارية، أن يمنعوا تعرضهم للإحباط. وأن يرددوا على مسامعهم كلمات المدح، بدلا من كلمات التأنيب واللوم.

وبينت كذلك دراسات كل من شتاين Stein 1968، نوتال Nottal 1970، رتشاردسون Richardson 1965 أن الشخصية الموهوبة والمبتكرة، وجدت لدى الأسرة أو أحد أفرادها القدوة والتقبل والتشجيع والاحترام والتدعيم الوجداني، والحث على الاستقلال والتعبير عن الذات، والتوجيه الذي يخلو من ممارسة الضغط والسيطرة، وتشجيع الاهتمامات التي لها طابع خاص، والتي تكمن موجهاتها داخل الفرد نفسه، (عبد الحليم محمود السيد، 1980).

وفي دراسة عربية، توصلت إلى أن الإبداع يرتبط ارتباطا موجبا بتوفير جو من المعاملة تتسم بالتقبل من الوالدين والشعور بالأمان إزاءهما، كما تتسم بعدم الإكراه والشعور بالاستقلال. وتتوقع أن تؤدي هذه المعاملة إلى تدعيم عادات التجديد والاستقصاء والاستطلاع دون خوف من الإقدام على المخاطرة، كما تُكْسِبُ الشجاعة على المغايرة، (عبد الحليم محمود السيد، 1980).

يلاحظ من نتائج الدراسات السابقة، أن أساليب التنشئة الأسرية لها دور فعال في تنمية الطفل المتفوق، وعلى الوالدين أن يسلكا مع أبنائهما سلوك التسامح في التنشئة. أي اعتماد أسلوب الإقناع والحوار الفكري والحرية، وعدم فرض القيود والبعد عن الأذى والعقاب. وذلك لأنه لوحظ أن أكثر ما يعوق الإبداع والموهبة، وجود الطفل وسط جماعة تسلطية، تكثر من النقد ولا تتسامح مع الخطأ، وتنبذ من يخرج عن المألوف، (زينب محمود شقير، 1999).

وفي هذا الصدد، تبين من نتائج دراسة السمادوني 1990 وجود ارتباط دال إحصائيا بين المناخ الاجتماعي الأسري لعائلة المتفوق وإدراكه الضغوط وآثارها السلبية على مظاهر التوافق. وأن المتفوق عندما يعيش في مناخ أسري هادئ، يسوده التقبل والشعور بالأمن، والعلاقات الاجتماعية السليمة، يستطيع أن يحقق نموا سليما، مستعملا كل قدراته وإمكاناته إلى أقصى حد، (السيد إبراهيم السمادوني، 1990).

وتبيَّن كذلك من العديد من الدراسات، (عبد السلام عبد الغفار، 1975) أنه إذا كانت البيئة التي يعيش فيها الفرد سمحة مرنة، تحترم حرية الفرد في التفكير والتعبير، ولا تتسرع في إصدار أحكام على من يفكر ويعبر عن فكره. وإذا كانت لا تقسو على من يحيد عن الصواب، بل وإن كانت هذه البيئة تعطي فرصة التجريب حتى وإن بدا على الفكرة خروج عن المألوف أو الشائع. وقلّت بالتالي عوامل الكف والضغط على من يفكر. فإذا توافرت السمات السابقة فإن ذلك من شأنه أن يساهم في نمو شخصيات موهوبة.

وتبيَّن من هذه الدراسات كذلك (فيوليت إبراهيم، 1997)، أن أساليب المعاملة الوالدية والتنشئة الأسرية غير السوية، وافتقار البيئة الأسرية إلى المثيرات والمحفزات والوسائل التي تعمل على تنمية استعدادات الأطفال الموهوبين الوراثية، وإبراز موهبتهم، يؤدي إلى انطفاء هذه الموهبة.

وتبيَّن من هذه الدراسات كذلك (ميادة الباسل، 1993)، أن معظم الآباء في مصر، يربون أطفالهم على الطاعة والمسايرة، ولا يشجعونهم على النقد البناء، بل يعاقبونهم كلما أظهروا جرأة وشجاعة في التعبير.

وتشير هذه الدراسات كذلك (جابر طلبة، 1997)، إلى أن معظم الأطفال الموهوبين في البلاد العربية بوجه عام، لا يجدون الاهتمام الكافي بهم. حيث هناك إهمال مستمر في رعايتهم، وضغوط متواصلة من جانب معظم الآباء والأمهات. فيفرضون عليهم ما يقولونه، ويرفضون ما يقوله هؤلاء الأطفال. أي هناك تسلط واستبداد في اتخاذ القرارات، وصولا إلى الطاعة العمياء من جانب الأبناء، دون أدنى تقدير لأعمال الأطفال وإبداعاتهم. فبدلا من تشجيعهم على مواهبهم، ومنحهم التقدير والحب والود، فإن اللامبالاة، وربما التهكم، هو أسلوب المعاملة السائد إزاء هؤلاء الموهوبين، بل قد يتعدى ذلك إلى إساءة التعامل معهم، وتفسير مواهبهم في إطار عشوائي وخرافي، الأمر الذي يقلل من مواهبهم منذ السنوات المبكرة من طفولتهم، (زينب محمود شقير، 1999).

وتبيَّن كذلك من دراسة (سيد صبحي، 1975)، أن الاتجاهات الوالدية الخاطئة تربويا ونفسيا (التسلط والحماية الزائدة والإهمال وإثارة الألم النفسي والتذبذب والتفرقة في معاملة الأبناء) تؤثر سلبا على قدرات التفكير الابتكاري لدى الأبناء، (زينب محمود شقير، 1999).

ولأن الأسرة من أهم المؤسسات الاجتماعية التي تترك أثرا كبيرا على نمو التفوق والموهبة لدى أطفالها، ومساعدتهم للتعبير عنها، لذا فإن البيئة الأسرية للطفل الغنية بالمثيرات اللغوية والفكرية والثقافية والاجتماعية، وخاصة في السنين الأولى من حياته، تنمي لديه القدرة على التعلم والتفوق.

ولكي تستطيع الأسرة اكتشاف الموهوبين من أبنائها وتنميها، تقوم بما يلي :

1. ملاحظة أطفالها بدقة وبشكل منتظم.
2. تقويم سلوك الأطفال أثناء اللعب والنشاط الحر بطريقة موضوعية.
3. الاهتمام بجميع جوانب نمو الطفل.
4. النظر إلى كل طفل على أنه موهوب، ومن الواجب اكتشاف موهبته مبكرا لتصبح رعايته أسهل.
5. اكتشاف موهبة الطفل ليست هدفا في حد ذاتها، بل يتبعه إجراء عملي يتمثل فيما يلي :

1. توفير البيئة المحفزة والمثيرة للمجال الذي يحبه الطفل. فتوفر الإمكانات وتنتقي الألعاب التي تهمه، وتنمي التفكير وتشجعه على البحث والإبداع.
2. توفر مصادر التعلم الذاتي في المنزل مثل المكتبة والكمبيوتر والإنترنت والمجلات والقصص وممارسة الرسم وغيرها.
3. النظرة الموضوعية للأبناء وأنشطتهم.
4. عدم الضغط على الطفل في عمله الدراسي.
5. التشجيع على المبادرة وطرح الأسئلة والمناقشة معه وتدريبه على استعمال أدوات الاستفهام المناسبة، مثل : لماذا؟ كيف؟ متى؟
6. التشجيع على البحث والتقصي وحل المشكلات بطرق عديدة.
7. تنمية الاستقلال الذاتي للطفل وتدريبه على الاعتماد على النفس.
8. تنظيم زيارات ورحلات إلى الطبيعة لمشاهدة ما بها من مناظر جميلة وحدائق وطيور التي تثير انتباه الطفل وتدفعه إلى التأمل والتفكير والتساؤل.
9. تنظيم زيارات للمعارض والمتاحف التعليمية.
10. عدم السخرية من تصرفات الأطفال، وتشجيعهم على ممارسة هواياتهم وألعابهم المفضلة، (محمد كمال يوسف، 2007).

الإطار التطبيقي للدراسة

مشكلة البحث:

يتبين من نتائج الدراسات السابقة، أن الأساليب التربوية التي تمارسها الأسرة على أبنائها والتي تساعد على ظهور الموهبة، هي تلك الأساليب تتسم بالتقبل والتشجيع والتسامح والأمن والحوار والمناقشة الحرة والحرية في التفكير والتعبير عن الذات. فهل تتوفر هذه الأساليب عند آباء وأمهات عينة البحث؟ والجدير بالذكر، أن الباحثين اتبعا المنهج الوصفي بأسلوب المقارنة بين الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ الأسري في تنمية الموهبة.

سؤال البحث:

ما أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد العينة ؟

فرضيتا البحث:

الفرضية الأولى : يوجد فرق بين الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

الفرضية الثانية : يوجد فرق بين نسبتي الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

تعريف متغير البحث إجرائيا:

المناخ النفسي الاجتماعي الأسري : هو مجموعة المواقف والخبرات النفسية والتربوية والاجتماعية التي توفرها أساليب التربية الأسرية لأبنائها. ويقاس بالاستبيان المستعمل في هذا البحث.

العينة: تكونت العينة الكلية من 389 تلميذا وتلميذة من التعليم الثانوي بولاية باتنة؛ منهم 164 ذكرا، 225 أنثى. تراوحت أعمار الذكور بين 15-20 سنة. بموسط حسابي قدره 17.79 سنة وانحراف معياري قدره 1.31 سنة. وتراوحت أعمار الإناث بين15 - 20 سنة. بمتوسط حسابي قدره 17.76 سنة وانحراف معياري قدره 1.33 سنة. وتم اختيار أفراد العينة من شعب علوم وتكنولوجيا وعلوم تجريبية وأدب وفلسفة وتسيير واقتصاد. ومن المستويات الدراسية الثلاثة (السنوات الأولى والثانية والثالثة).

أداة البحث: استعمل الباحثان استبيانا لقياس المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء. يتكون من 40 بندا. يجاب عنها ضمن ثلاث بدائل هي : لا، قليلا، كثيرا. وتصحح في اتجاه واحد من صفر إلى 2.

الشروط السيكومترية للاستبيان:

الصدق: تم حساب صدق الاستبيان بطريقة واحدة هي الصدق التمييزي من خلال إجراء مقارنة بين المرتفعين والمنخفضين في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

عينة الذكور:

الجدول رقم(1) يبين قيمة «ت» لدلالة الفرق بين المتوسطين الحسابيين للعينتين المتطرفتين (العليا والدنيا).

الجدول رقم(1)

العينة	الفئة العليا ن = 44		الفئة الدنيا ن = 44		قيمة «ت»
المتغير	م	ع	م	ع	
	64.05	5.06	28.59	10.20	20.38**

** دالة إحصائيا عند مستوى 0.01

يتبين من قيمة «ت» أن الاستبيان له القدرة على التمييز بين العينتين المتطرفتين، مما يشير إلى صدقه.

عينة الإناث:

الجدول رقم(2) يبين قيمة «ت» لدلالة الفرق بين المتوسطين الحسابيين للعينتين المتطرفتين (العليا والدنيا)

الجدول رقم(2)

العينة	الفئة العليا ن = 60		الفئة الدنيا ن = 60		قيمة «ت»
المتغير	م	ع	م	ع	
	67.33	3.98	33.77	11.85	23.47**

** دالة إحصائيا عند مستوى 0.01

يتبين من قيمة «ت» أن الاستبيان له القدرة على التمييز بين العينتين المتطرفتين، مما يشير إلى صدقه.

الثبات : تم حساب الثبات بطريقة واحدة كذلك، هي طريقة تطبيق وإعادة تطبيق الاستبيان على عينة من الذكور تتكون من 31 تلميذا بعد مرور 15 يوما، فكان معامل الثبات الذي تم حسابه بمعادلة كارل بيرسون من الدرجات الخام يساوي : 0.632 وهو دال إحصائيا عند مستوى 0.01 وبنفس الطريقة تم حساب معامل الثبات على عينة الإناث التي بلغت 38 تلميذة فجاء معامل الثبات يساوي : 0.651 وهو دال إحصائيا عند مستوى 0.01.

عرض نتائج البحث ومناقشتها:

الفرضية الأولى: يوجد فرق بين الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

ولاختبار هذه الفرضية، يبين الجدول رقم(3) قيمة «ت» لدلالة الفرق بين المتوسطين الحسابيين لعينتي الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

الجدول رقم(3)

العينة	عينة الذكور ن = 164		عينة الإناث ن = 225		قيمة «ت»
	م	ع	م	ع	
المناخ الأسري	47.81	14.64	52.76	14.36	**3.41

** دالة إحصائيا عند مستوى 0.01

يتبين من النتيجة المسجلة في الجدول رقم(3) أن قيمة «ت» لدلالة الفرق بين الذكور والإناث دال إحصائيا عند مستوى 0.01 لصالح عينة الإناث، مما يشير إلى أنهن أكثر إدراكا للمناخ النفسي الاجتماعي في أسرهن، والذي ينمي الموهبة لديهن. ويشير هذا إلى أن الأنثى أكثر انتباها وتأثرا بالمعاملات داخل الأسرة، وخاصة من والديها. فهي تريد أن تعرف آراءهما وتوجيهاتهما لها في دراستها خاصة، وفي حياتها عامة. فهي أكثر مكوثا في البيت وتلازم والديها أكثر من الذكر الذي يقضي وقتا أكثر خراج البيت مع الرفاق والأصحاب.

الفرضية الثانية: يوجد فرق بين نسبتي الذكور والإناث في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء.

ولاختبار هذه الفرضية، تم حساب الفروق بين النسبتين المئويتين لكل من الذكور والإناث الذين يقعون في فئة المرتفعين في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء. حسب محك الدرجات الفاصلة المستعمل. وهو المتوسط الحسابي +انحراف معيار واحد فأكثر. فكانت بالنسبة لعينة الذكور كما يلي : 47.81 + 14.64= 62. فكان عدد أفراد العينة الذين تفوق درجاتهم 62 فأكثر 28 تلميذا. وكانت بالنسبة لعينة الإناث كما يلي : 52.76 + 14.36 = 67. فكان عدد أفراد العينة اللاتي تفوق درجاتهن 67 فأكثر 31 تلميذة. وكانت قيمة (Z) كما يبينها الجدول رقم(4) الآتي :

الجدول رقم(4)

العينة	حجم العينة	النسبة المئوية	قيمة «Z»	مستوى الدلالة
الذكور	28	0.17	0.33	غير دالة إحصائيا
الإناث	31	0.14		

يتبين من النتيجة المسجلة في الجدول رقم (4) أن قيمة «Z» لدلالة الفرق بين النسبتين المئويتين للذكور والإناث، في إدراكهم للمناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء بلغت 0.11 وهي غير دالا إحصائيا. مما يشير إلى عدم الإختلاف بين الجنسين فيما يخص إدراك المناخ النفسي الاجتماعي الأسري الذي يؤثر في نمو الموهبة والتفوق. ولا غرابة في ذلك فكل من عينتي الذكور والإناث، يعيشون في بيئة اجتماعية وثقافية واحدة. ويتلقون أسلوبا تربويا واحدا ضمن إطار اجتماعي ثقافي واحد.

السؤال: ما أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد العينة؟

عينة الذكور:

يبين الجدول رقم(5) أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء مرتبة ترتيبا تنازليا وفق تكرارات الإجابة بـ (كثيرا) ونسبها المئوية.

يتبين من الجدول رقم(5) أن عشرة أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد عينة الذكور، تتعلق بالتشجيع على التفوق في الدراسة وفي كل الأعمال. والتشجيع على الثقة في النفس والاعتماد عليها. وتوفير جو من الأمن والأمان. والتشجيع على مقاومة الفشل. والتشجيع على التعبير عن الأفكار الجديدة. وإقامة علاقات طيبة في الأسرة. وتوفير جو مرح في البيت. والتشجيع على إبراز المواهب. والتشجيع على عدم التردد في التعبير عن الأفكار. والتشجيع على مناقشة الأفكار في الأسرة.

عينة الإناث:

يبين الجدول رقم(6) أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء مرتبة ترتيبا تنازليا وفق تكرارات الإجابة بـ (كثيرا) ونسبها المئوية.

يتبين من الجدول رقم(6) أن عشرة أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد عينة الإناث، تتعلق بالتشجيع على التفوق في الدراسة وفي كل الأعمال. والتشجيع على الثقة في النفس والاعتماد عليها. والتشجيع على مقاومة الفشل. توفير جو من الأمن والأمان. إقامة علاقات طيبة في الأسرة. والتشجيع على التعبير عن الأفكار. والتشجيع على التعرف على النقص في معلوماتنا. والتشجيع على عدم التردد في التعبير عن أفكارنا. توفير جو مرح في البيت. التعبير على تقبل التغيرات الجديدة حولنا.

يتبين من الجدولين رقمي (5) و(6) أن عشرة أساليب المناخ النفسي الاجتماعي الأسري لتنمية الموهبة لدى الأبناء الأكثر تكرارا في أسر أفراد عينة البحث من الذكور والإناث، تتعلق بالتشجيع على التفوق في الدراسة وفي كل الأعمال. والتشجيع على الثقة في النفس والاعتماد عليها. وتوفير جو من الأمن والأمان. والتشجيع على مقاومة الفشل. والتشجيع على التعبير عن الأفكار الجديدة. وإقامة علاقات طيبة في الأسرة. وتوفير جو مرح في البيت. والتشجيع على إبراز المواهب. والتشجيع على التعرف على النقص في معلوماتنا. والتشجيع على عدم التردد في التعبير عن الأفكار. والتشجيع على مناقشة الأفكار في الأسرة. التشجيع على التعبير على تقبل التغيرات الجديدة حولنا. وهذه الأساليب في المعاملة الأبوية مهمة، ولكنها خالية من الأساليب القوية لتنمية الأصالة. مثل : التشجيع على تقديم حلول جديدة للمشكلات. التشجيع على تقبل الجديد من الأفكار. والتشجيع على الإتيان بأفكار جديدة. والتشجيع على المبادرة بأفكار جديدة. والتشجيع على التفكير بطرق مختلفة ومتعددة. والتشجيع على تقديم حلول جديدة للمشكلات. والتشجيع على الاستقلال في التفكير.

الجدول رقم(5)

العبارات	التكرار	%	الرتبة
37. يشجعنا والدانا على أن نتفوق في الدراسة وفي كل ما نقوم به من أعمال.	135	82.32	1
5. يشجعنا والدانا على أن نثق في أنفسنا وأن نعتمد على أنفسنا.	132	80.49	2
36. يوفر الوالدان لنا جوا في البيت يشعرنا بالأمن والأمان.	125	76.22	3
16. يشجعنا والدانا على مقاومة الفشل.	124	75.61	4
40. يشجعنا والدانا على الصراحة والانطلاق في التعبير عن أفكارنا الجديدة.	107	65.24	5
26. يقيم والدانا معنا علاقات طيبة.	106	64.63	6
4. يعمل والدانا على توفير الجو المرح في البيت.	103	62.80	7
10. يشجعنا والدانا على إبراز مواهبنا.	92	56.10	8
20. يشجعنا والدانا على عدم التردد في التعبير عن آرائنا وأفكارنا.	86	52.44	9
3. يشجعنا والدانا على طرح أسئلة تصلح للمناقشة داخل الأسرة.	84	51.22	10
21.يشجعنا والدانا على إدراك النقص والعيب فيما نحصل عليه من معلومات.	84	51.22	11
22. يشجعنا والدانا على اكتشاف أفكار جديدة.	81	49.39	12
29. يشجعنا والدانا على التجديد والابتكار فيما نقوم به من أعمال.	78	47.56	13
28. يشجعنا والدانا على أن نفكر بطرق متعددة ومتنوعة.	74	45.12	14
9 . يشجعنا والدانا على المناقشة الجماعية الحرة في البيت.	73	44.51	15
15. يتسع صَدْرَا والدينا لأسئلتنا مهما كثرت أو تنوعت.	72	43.90	16
34. يشجعنا والدانا على أن تكون قراءاتنا متنوعة.	69	42.07	17
24. يشجعنا والدانا على تقبل التغيرات الجديدة التي تحدث حولنا.	69	42.07	18
23. يشجعنا والدانا على تقديم حلول جديدة للمشكلات.	68	41.46	19
30. يشجعنا والدانا على تقديم اقتراحات متعددة ومتنوعة لحل المشكلات.	63	38.41	20
32. يشجعنا والدانا على أن نكوّن لأنفسنا أفكارا وآراء خاصة بنا.	61	37.19	21
2 .يشجعنا والدانا على تغيير آرائنا وأفكارنا عندما نقتنع بذلك.	58	35.36	22
35. يشجعنا والدانا على التعبير عن أفكارنا ومناقشتها معهم.	56	34.14	23
11. يشجعنا والدانا على توفير جو من الفكاهة والضحك في البيت.	55	33.54	24
18. يشجعنا والدانا على المبادرة بالأفكار والآراء الجديدة.	52	31.71	25
6. يشجعنا والدانا على أن نأتي بأفكار جديدة.	51	31.10	26
38. يشجعنا والدانا على اكتشاف طرق جديدة لحل المشكلات.	50	30.49	27
13. يعلّمنا والدانا على أن الأفكار والأشياء ليست ثابتة بل قابلة للتغيير.	48	29.27	28
39. يشجعنا والدانا على أن نكون مستقلين في أفكارنا وآرائنا.	47	28.66	29
8.يشجعنا والدانا على التمسك بأفكارنا الجديدة مهما لقينا من سخرية بسببها.	43	26.22	30
12. يقدم لنا والدانا أفكارا جديدة ويشجعاننا على مناقشتها.	40	24.39	31
19. يشجعنا والدانا على تقبل النقد من الآخرين عندما نقدم أفكارا جديدة.	40	24.39	32
27. يشجعنا والدانا على أن نفكر بطريقة تختلف عن تفكير الآخرين.	37	22.56	33
7. يتقبل والدانا أسئلتنا مهما كانت غريبة.	36	21.95	34
1 .يشجعنا والدانا على تقبل الجديد من الآراء والأشياء والتخلي عن القديم.	29	17.68	35
33. يمنحنا والدانا الهدايا والمكافآت عندما نقدم أفكارا جديدة.	29	17.68	36
14. يشجعنا والدانا على أن نقرّب بين خيالنا والواقع.	25	15.24	37
25. يشجعنا والدانا على نقد أفكار الآخرين نقدا موضوعيا.	25	15.24	38
17. يشجعنا والدانا على طرح أسئلة تتطلب إجابات كثيرة ومتنوعة.	21	12.80	39
31. يقدم لنا والدانا مشكلات تتطلب أكثر من حل.	21	12.80	40

الجدول رقم(6)

العبارات	التكرار	%	الرتبة
37.يشجعنا والدانا على أن نتفوق في الدراسة وفي كل ما نقوم به من أعمال	208	92.86	1
5 .يشجعنا والدانا على أن نثق في أنفسنا وأن نعتمد على أنفسنا.	193	86.16	2
16. يشجعنا والدانا على مقاومة الفشل.	180	80.36	3
36. يوفر الوالدان لنا جوا في البيت يشعرنا بالأمن والأمان.	175	78.13	4
26. يقيم والدانا معنا علاقات طيبة.	170	75.89	5
40.يشجعنا والدانا على الصراحة والانطلاق في التعبير عن أفكارنا الجديدة	155	69.20	6
21.يشجعنا والدانا على إدراك النقص والعيب فيما نحصل عليه من معلومات	151	67.41	7
20. يشجعنا والدانا على عدم التردد في التعبير عن آرائنا وأفكارنا	145	64.73	8
4 . يعمل والدانا على توفير الجو المرح في البيت.	143	63.84	9
24. يشجعنا والدانا على تقبل التغيرات الجديدة التي تحدث حولنا	129	57.59	10
22. يشجعنا والدانا على اكتشاف أفكار جديدة.	125	55.80	11
3 ـ يشجعنا والدانا على طرح أسئلة تصلح للمناقشة داخل الأسرة.	121	54.02	12
29. يشجعنا والدانا على التجديد والابتكار فيما نقوم به من أعمال	121	54.02	13
10. يشجعنا والدانا على إبراز مواهبنا.	118	52.68	14
32. يشجعنا والدانا على أن نكوّن لأنفسنا أفكارا وآراء خاصة بنا	115	51.34	15
34. يشجعنا والدانا على أن تكون قراءاتنا متنوعة.	114	50.89	16
9 .يشجعنا والدانا على المناقشة الجماعية الحرة في البيت.	114	50.89	17
15. يتسع صَدْرَا والدينا لأسئلتنا مهما كثرت أو تنوعت.	113	50.45	18
19. يشجعنا والدانا على تقبل النقد من الآخرين عندما نقدم أفكارا جديدة	113	50.45	19
23. يشجعنا والدانا على تقديم حلول جديدة للمشكلات	108	48.21	20
28. يشجعنا والدانا على أن نفكر بطرق متعددة ومتنوعة	108	48.21	21
11. يشجعنا والدانا على توفير جو من الفكاهة والضحك في البيت	107	47.77	22
35. يشجعنا والدانا على التعبير عن أفكارنا ومناقشتها معهم	107	47.77	23
6 . يشجعنا والدانا على أن نأتي بأفكار جديدة.	104	46.43	24
18. يشجعنا والدانا على المبادرة بالأفكار والآراء الجديدة.	100	44.64	24
30. يشجعنا والدانا على تقديم اقتراحات متعددة ومتنوعة لحل المشكلات.	93	41.52	26
13. يعلّمنا والدانا على أن الأفكار والأشياء ليست ثابتة بل قابلة للتغيير.	87	38.84	27
38. يشجعنا والدانا على اكتشاف طرق جديدة لحل المشكلات.	86	38.39	28
2 . يشجعنا والدانا على تغيير آرائنا وأفكارنا عندما نقتنع بذلك.	85	37.94	29
39. يشجعنا والدانا على أن نكون مستقلين في أفكارنا وآرائنا.	83	37.05	30
8.يشجعنا والدانا على التمسك بأفكارنا الجديدة مهما لقينا من سخرية بسببها	79	35.27	31
12. يقدم لنا والدانا أفكارا جديدة ويشجعاننا على مناقشتها.	71	31.70	32
25. يشجعنا والدانا على نقد أفكار الآخرين نقدا موضوعيا.	55	24.55	33
7 ـ يتقبل والدانا أسئلتنا مهما كانت غريبة.	53	23.66	34
17. يشجعنا والدانا على طرح أسئلة تتطلب إجابات كثيرة ومتنوعة	53	23.66	35
33. يمنحنا والدانا الهدايا والمكافآت عندما نقدم أفكارا جديدة.	50	22.32	36
1. يشجعنا والدانا على تقبل الجديد من الآراء والأشياء والتخلي عن القديم	46	20.54	37
27. يشجعنا والدانا على أن نفكر بطريقة تختلف عن تفكير الآخرين	46	20.54	38
14. يشجعنا والدانا على أن نقرّب بين خيالنا والواقع.	44	19.64	39
31. يقدم لنا والدانا مشكلات تتطلب أكثر من حل.	35	15.63	40

الخاتمة والتوصيات:

تبين أن الإناث أكثر إدراكا وشعورا بالمناخ الأسري من الذكور. وتبين كذلك أن أساليب المناخ الأسري الأكثر شيوعا، ركزت على جوانب تتعلق بالتفوق الدراسي ومقاومة الفشل والعلاقات الطيبة داخل الأسرة وغيرها، ولكن مكونات المناخ الأسري التي تدفع إلى تنمية الموهبة، جاءت في ذيل الترتيب. ويعني هذا أن أسر عينة البحث، لا تساهم في إرساء مناخ تربوي يتوفر على أساليب تربوية وسلوكية تشجع على نمو الموهبة وتطورها. لأن الموهبة، أو أي سلوك، رغم أنها تتعلق بالفرد الموهوب أو المتفوق، ولكنها لا تنمو في فراغ، بل تتأثر بالعديد من العوامل، وفي مقدمتها الأسرة. وفقا لهذه النتائج، نقدم التوصيات التالية :

أولا : في مجال العناية بالموهوبين.

1. لفت انتباه الآباء إلى الاهتمام بالموهبة والموهوبين في وسط أبنائهم.
2. دعوة المختصين في مجال التفوق العقلي إلى نشر ثقافة نفسية تربوية، سواء بالتأليف أو بالمحاضرات العامة، لتوعية الآباء بأثرهم التربوي والنفسي على تفوق أبنائهم.
3. لفت اهتمام الجهات المعنية، التربوية خاصة، إلى العناية بالموهوبين بالعمل على اكتشافهم والعناية بهم.
4. ضرورة وجود أخصائيين نفسيين وتربويين للكشف عن الموهوبين وتقديم المشورة للآباء للعناية بهم.

ثانيا: في مجال البحث العلمي:

تبين، في حدود اطلاع الباحثيْن، أن الدراسات حول دور الأسرة في تنمية الموهبة والتفوق، نادرة جدا في البيئة الجزائرية والعربية. وبالتالي، فإنه ومن أجل إثراء موضوع هذا البحث والكشف عن جوانبه المختلفة، يقترح الباحثان إجراء بحوث حول ما يلي :

1. أساليب العاملة الوالدية ونمو الموهبة لدى الأبناء. وخاصة بأسلوب المقارنة بين الآباء والأمهات، والتأثير على الذكور والإناث.
2. تأثير أساليب المعاملة الوالدية على نمو الموهبة لدى الأبناء في الأعمار ما قبل المراهقة.
3. المستوى الاجتماعي/ الاقتصادي للأسرة ونمو الموهبة لدى الأبناء.

المراجع:

1. أكرم مصباح عثمان (2002). مستوى الأسرة وعلاقته بسمات الشخصية والتحصيل للأبناء. الطبعة الأولى، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
2. السيد إبراهيم السمادوني (1990). إدراك المتفوقين عقليا للضغوط والاحتراق النفسي في الفصل الدراسي وعلاقته ببعض المتغيرات النفسية والبيئية. بحوث المؤتمر السادس لعلم النفس في مصر. الجزء الثاني، القاهرة، الجمعية المصرية للدراسات النفسية.
3. بدر علي (1993). معاملة الوالدين ودورها في تكوين شخصية الأبناء : دراسة تربوية اجتماعية. مجلة التربية، العدد 105، قطر، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

4. خولة أحمد يحي (2006). البرامج التربوية للأفراد ذوي الاحتياجات الخاصة. الطبعة الأولى، عمان، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة.
5. زكريا الشربيني (1995). الإحصاء وتصميم التجارب في البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
6. زينب محمود شقير (1999). رعاية المتفوقين والموهوبين والمبدعين. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
7. سناء محمد سليمان (1993). رعاية الطلاب المتفوقين بالمدرسة الثانوية بين الواقع والمأمول : دراسة استطلاعية. مجلة علم النفس العدد 28 القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
8. ضيف الله الثبيتي (2003). فاعلية برنامج الإعداد التربوي بجامعة أم القرى في تعريف الطالب المعلم المتخصص في الاجتماعيات بخصائص التلميذ الموهوب في هذا الحقل. مجلة العلوم التربوية، العدد الثالث، جامعة قطر.
9. عبد الحليم محمود السيد (1980). الأسرة وإبداع الأبناء. القاهرة، دار المعارف.
10. عبد الله بن ناصر السدحان (2003). دور توجيه الأسرة في الممارسات الترويحية لدى الأبناء : دراسة ميدانية على طلاب الصف الثالث الثانوي بالرياض. مجلة جامعة أم القرى، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني.
11. عطوف محمود يسين (1981). اختبارات الذكاء والقدرات الخاصة بين التطرف والاعتدال. الطبعة الأولى. بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.
12. فؤاد أبو حطب (1996). القدرات العقلية. الطبعة الخامسة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية.
13. كمال إبراهيم مرسي (1992). رعاية النابغين في الإسلام وعلم النفس. الطبعة الثانية. الكويت، دار القلم للنشر والتوزيع.
14. لطفي بركات أحمد (1981). الفكر التربوي في رعاية الموهوبين. الطبعة الأولى. دار تهامة، جدة، السعودية.
15. محمد عبد الهادي حسين (2006). نظرية الذكاءات المتعددة ونموذج تنمية الموهبة. الطبعة الأولى القاهرة، دار الأفق للنشر والتوزيع.
16. محمد عبد الهادي حسين (2003). تربويات المخ البشري. الطبعة الأولى عمان، دار الفكر.
17. محمد كمال يوسف (2007). تصور مقترح لاكتشاف ورعاية الموهوبين برياض الأطفال. مجلة علم النفس العددان 74-73 القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
18. مصطفى أحمد تركي (1974). الرعاية الوالدية وعلاقتها بشخصية الأبناء. القاهرة، دار النهضة العربية.
19. ممدوح الكناني (1990). دراسات وقراءات في علم النفس التربوي. الجزء الأول. المنصورة، مكتبة ومطبعة النهضة.
20. وليد محمد العوزة (1993). المكتبة ودورها في رعاية الموهوبين. مجلة التربية، العدد 105، قطر، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم.

السياسات الثقافية العربية: أي دور؟

أ.د. مخلوف بوكروح
جامعة الجزائر3

ملخص:

تحتل الثقافة في المجتمعات المعاصرة دورا محوريا في البرامج التنموية، وقد ازداد الاهتمام بالبعد الثقافي في التنمية في العقود الأخيرة وأصبح ركنا أساسيا في الاستراتيجيات التنموية المحلية والوطنية والدولية إلى جانب الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والبيئية.

إن إنعاش الحياة الثقافية والفنية في المجتمعات المعاصرة أضحى جزءا أساسيا من اهتمامات وواجبات الدولة الحديثة، التي أصبحت تولي عناية خاصة للسياسات الثقافية بوصفها أداة توظف لضمان احتياجات ثقافية يساهم فيها مختلف الأطراف الفاعلة في المجتمع عبر حوار شفاف.

تتنوع أشكال السياسات الثقافية من مجتمع إلى آخر ومن حقبة زمنية إلى أخرى، علما أن السياسات الثقافية ترتبط بالسياق التاريخي الاجتماعي الذي تنمو فيه. في هذا الإطار نعالج إشكالية السياسات الثقافية مع التركيز بشكل خاص على الحالة العربية.

الكلمات الدالة: السياسات العمومية، السياسات الثقافية، التنوع الثقافي.

تنصية:

«لو أنك قدّمت لرجل سمكة لوفّرت له وجبة، ولو أنك علّمته صيد السمكة للقّنته حرفة. وإذا أردت أن تدبّر قوتك لعام آت فانثر بذرا، وإذا انفسح خيالك لعشر سنين فاغرس شجرة. أما إذا كنت تعنى بشؤون غيرك فزوّدهم بالمعرفة. ذلك أنك حين تنثر البذر تحصد مرة، وإذا أنت غرست الشجر حصدت مرات عشرا، لكنك حين تبذر المعرفة تتيح حصادا لمائة من الأعوام».

مثل صيني لـ «كزان تزو» القرن الرابع ق.م

1. مفهوم السياسة الثقافية:

يتجاوز الحديث عن الثقافة والبحث في طبيعتها، اليوم، ذلك التساؤل التقليدي الذي ينشد من ورائه القبض على إجابة شافية عن ماهيتها، أو إيجاد تعريف قار لمفهومها؛ علما أن صياغة تعريف محدد للثقافة ـ ولو كان مجرد اجتهاد من أجل تبسيط الفهم وتعميمه ـ ليس أمرا يسيرا؛ ناهيك عن أن يكون محل اتفاق كلي بين الباحثين. فكل اجتهاد في هذا الباب لا يمكن أن يثمر، في رأينا، إجابة شافية ومقنعة للجميع بنفس القدر والدرجة. فبدل الوقوف، إذن، عند محاولة من هذا القبيل نكتفي هنا، في هذه المناسبة، بالإشارة إلى أن مفهوم الثقافة موضوع عام يخص المجتمع برمته؛ أفرادا وجماعات. ذلك أن فاعالية ثنائية الإنسان–المجتمع، في جدليتها التاريخية، دليل على دور الثقافة الفاعل، بل والحاسم في

تطور المجتمع الإنساني عبر مراحله التاريخية؛ فبفضلها تمكن الإنسان من التأقلم مع محيطه الطبيعي وبيئته الاجتماعية. فهو قد بنى، وما زال يبني، مجتمعه وثقافته على طريقته الخاصة المناسبة لزمانه ومكانه المعاشين، واكتسب أيضا، وما زال يكتسب، خصوصيته من بيئته؛ صانعا مكتسبا في الوقت ذاته.

ومفهوم السياسة الثقافية هو أيضا من المفاهيم الممتنعة عن التحديد الجامع المانع بسبب تداخله مع مفهوم الثقافة. بل إن منظمة اليونسكو لم تفرض، حين دعت إلى مناقشة المسألة الثقافية، مفهوما محددا للسياسات الثقافية؛ لأن هذه السياسات تختلف من فضاء ثقافي إلى آخر. ومن هنا ينبغي الحديث، عند مقاربة هذا لموضوع، عن سياسات ثقافية وليس عن سياسة ثقافية واحدة ينفع تعميم تطبيقها في كل مكان.

ولذلك فإن منظمة اليونسكو لم تسع، في هذا المجال، إلا إلى وضع تعريف عام يسمح بتحديد الملامح الرئيسية للسياسة الثقافية. فهي، كما تراها، «مجموع الاستخدامات والعمليات التي تمارس بإرادة ووعي في المجتمع بهدف إشباع بعض الحاجات الثقافية من خلال الاستخدام الأمثل لكل الموارد المادية والبشرية التي يمتلكها هذا المجتمع في مرحلة تاريخية معينة»[1].

هذا يعني نظريا إمكان اعتبار السياسة الثقافية أداة تستخدم من قبل سلطة عمومية من أجل تثمين وحفظ الملامح المميزة للمجتمع؛ أي حقوقه الأساسية، نظمه القيمية، عاداته، معتقداته ...الخ.

فالسياسة الثقافية تندرج، إذن، ضمن السياسة العمومية التي هي مجموع الأفعال المتبعة من قبل سلطة عمومية من أجل حل مشكلات متداخلة. وتهدف كل سياسة ثقافية إلى وضع مجموعة من الوسائل القادرة على تطوير إمكانيات التعبير وضمان حريته. ولذلك فإن السياسة الثقافية تُعدُّ، بالأساس، نسقا من التوجيهات المخططة التي تضعها الدولة بغية تحقيق أهداف، ترتبط باحتياجات ثقافية عبر مشروعات محددة. وهي، أي السياسة الثقافية، بتعبير أدق إستراتيجية دولة.

وقوام السياسة الثقافية هو ذلك التفكير المنظم الذي يوجه العمل الثقافي لبلوغ الأهداف التي يتطلع المجتمع والأفراد إلى بلوغها. تتضمن السياسة الثقافية مجموعة من السياسات القطاعية تمتد إلى مجالات متعددة : اللغة، التربية، التاريخ، حماية التراث...[2].

2. الثقافة والتنمية :

يجمع الدارسون المختصون قي هذا الموضوع أن الثقافة تلعب دورا حيويا في المجتمعات المعاصرة. وبالرغم من ذلك فإن الثقافة لم تحظ بعناية من قبل المفكرين الاقتصاديين. فقد اعتبر ألفريد مارشال التعليم استثمارا في القوى البشرية مبرزا دوره في تحرير القوى الكامنة لدى الفرد والكشف عن مواهبه. واعتبر البعض أن الثقافة تنمو، بوصفها نتيجة للنشاط الاقتصادي، بعد هذا النشاط؛ وذلك استنادا إلى حكمة قديمة مفادها أن على الإنسان أن يملأ معدته قبل أن يتفلسف. وهي الحكمة التي دلت التجربة التاريخية على صحتها؛ إذ أن ازدهار الثقافة ارتبط تاريخيا ـ مصادفة أو ضرورة ـ بالتطور والازدهار الاقتصادي،

1- François Colbert, Les éléments des politiques culturelles, www.managementculturel.com

2- Ibid

وأن الفنون، مثلها في ذلك مثل العلوم، ازدهرت في عهود رخاء الدول المعيشي وبتشجيع الملوك والأمراء أنفسهم، واحتضانها في قصورهم.

أما بخصوص العلاقة بين الثقافة والتنمية الاقتصادية فقد ظلت إلى عهد قريب غائبة؛ إذ ربط البعض الإنفاق في مجال الثقافة والفنون بنشاط أوقات الفراغ، ومن ثم فإن إمكانية إسهامه في تحقيق ثروات ورخاء الأمة تكاد تكون معدومة. فالثقافة وفق هذا المفهوم تصنف ضمن النشاط أو العمل غير المنتج، والذي تتبخر ثماره في اللحظة التي ينتج فيها.

وقد أثبت المختصون أن الإنفاق على التعليم يعد استثمارا في القوى البشرية شأنه شأن الاستثمار في القطاعات الإستراتيجية الأخرى كالزراعة والصناعة وغيرها؛ بل إن البعض منهم ذهب إلى الدعوة إلى تطويع العوامل الثقافية-الاجتماعية، ومن ضمنها المعتقدات الدينية، للاستفادة منها في عملية النمو.[3]

وقد قدم ألفين توفلر صورة عن نمو المؤسسات الثقافية وذلك من خلال تفسيره النموذجي لمؤسسة موسيقية داخل مجتمع صناعي في القرن التاسع عشر، إذ كان الموسيقيون والفنانون يعتمدون على آلية السوق التي أثرت في الإنتاج والتوزيع، يتولى رجال الأعمال تمويل الحفلات والعروض وباعوا التذاكر لجمهور مجهول، والزيادة في التذاكر المباعة تعني ربحا أعلى، ومن ثم ازدياد الحاجة إلى قاعات أكبر للحفلات، والقاعات الكبرى تتطلب بدورها مجموعات متكاملة من الملابس وأجهزة سمعية أقوى، ومن هنا نشأ الأوركسترا السمفوني الحديث.[4]

والتنمية لا تخص الاقتصاد وحده، ولكنها عملية تطوير تنموية شاملة، بل إن الثقافة، ذاتها، أصبحت عنصرا أساسيا في السياسة الاقتصادية. ويمكن القول : إن الثقافة والتنمية توأمان وهما في علاقتهما أشبه بالنظرية والتطبيق في منظومة متكاملة وشاملة روحية، فكرية، تربوية، سلوكية وعلمية. فإذا اعتبرنا التنمية ترجمة عملية لزيادة وتطوير الإنتاج والثروة المادية، فإن الثقافة هي الترجمة الفكرية والفنية والأدبية لتطوير إبداع المجتمع قصد إثراء ثروته البشرية.

وبالرغم من أن المجتمعات البشرية تسعى، دائما، في تطلعها إلى التقدم والرقي التاريخيين إلى تحقيق المزيد من الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن التجربة التاريخية تؤكد لنا أن هذه المكتسبات التاريخية ظلت ـ وستظل أيضا ـ غير مكتملة ما لم يرافقها التقدم الثقافي، الذي يعد هو الآخر ركنا أساسيا من أركان الحياة. وفي هذا المجال نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1946 على : أن «... للإنسان الحق في أن يشترك دون قيد أو شرط في الحياة الثقافية للمجتمع وأن يستمتع بالفنون وأن يكون له نصيب في التقدم العلمي وما يؤتيه من ثمار».

وقد أدرك المجتمع الدولي، منذ ذلك، أهمية البعد الثقافي في التنمية البشرية مؤكدا صحة ما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ إذ بدأت مع مطلع السبعينيات من القرن الماضي أصوات ترتفع منتقدة النزعة الاقتصادوية للنموذج التنموي. فعُقدت سلسلة من المؤتمرات الدولية، تحت إشراف منظمة اليونسكو، نوقشت فيها مسألة التنمية والثقافة : كان ذلك في

3-رزق الله هيلان، التنمية والثقافة في الوطن العربي المعاصر، ملتقى العنصر الثقافي في التنمية، (1991)، ص 20.

4-Alvin, Toffler (1980), p 38.

(مدينة البندقية سنة 1970، و في مدينة مكسيكو عام 1982، ثم في مدينة ستوكهولم بحر 1998). وقد تُوج هذا الاهتمام بإقرار العقد العالمي للتنمية الثقافية (1988 – 1997)، الذي أوصى بضرورة الاعتراف بالبعد الثقافي للتنمية، واحترام الهويات الثقافية، وتوسيع رقعة المشاركة في الحياة الثقافية وإنعاش التعاون الثقافي الدولي. وقد أجمعت هذه المؤتمرات جميعها على أهمية ربط السياسات الثقافية بخطة التنمية الشاملة؛ انطلاقا من أن الثقافة بعد أساسي من أبعاد حياة كل فرد وكل جماعة، وأن التنمية التي تضع الإنسان غاية لها تنطوي على بعد ثقافي أساسي.

والواقع أن الاهتمام بدور الثقافة في التنمية قد ازداد في العقود الأخيرة. ويمكن أن نلحظ هذا الاهتمام في الخطط التنموية للمدن الحديثة. فإذا كانت ثروات المدينة الطبيعية تشكل، فيما سبق، شرطا أساسيا لتطورها الاقتصادي، وتمكنها من تخصيص جزء من ميزانيتها إلى قطاع الثقافة، فإن الاستثمارات التي تخصصها المدينة لقطاع الثقافة، في الوقت الحاضر، هي التي تشجع، بدورها، التطور الاقتصادي في المدينة وتحدده.

لهذا فإن الصناعات الثقافية أضحت اليوم تحتل موقعا أساسيا واستراتيجيا في الاقتصاد المعاصر؛ حيث تسهم بشكل جاد في خلق مناصب الشغل والثروة. والثقافة بمعناها الواسع والتربية والاتصال والمعرفة هي كلها عوامل للتنمية الاقتصادية. إن التراث الثقافي، بمواقعه الأثرية ومناظره الطبيعية والمتاحف المخصصة لحفظ آثاره المنقولة...الخ، هي بطبيعة الحال تعبير عن الهوية الثقافية، وهي في نفس الوقت مصدر سياحي. ومن هنا فإن كل سياسة اقتصادية تتضمن بعدا ثقافيا.[5]

وبنفس القدر من أهمية التكامل بين الثقافة وغيرها من القطاعات لم تعد الثقافة والفنون كيانات مستقلة؛ بل هي فروع لشجرة واحدة. فالصناعة الترفيهية والصناعة الثقافية وصناعة المحتوى والصناعة الإبداعية تعتبر كلها الآن نشاطا ذهنيا إنسانيا واحدا. وقد أصبحت الصناعات الإبداعية في الدول المتقدمة قطاعا هاما من قطاعات النمو الاقتصادي.

إذا كانت البنية الثلاثية للتنمية المستدامة التي تم تطويرها خلال النصف الثاني من الثمانينيات بوصفها عناصر أساسية تقوم على البعد الاقتصادي والاجتماعي والبيئي، فإن التصور الذي صاغه الباحث الأسترالي هاوكيس الذي اعتبر الثقافة ركنا رابعا إلى جانب البعد الاقتصادي، الاجتماعي والبيئي في غاية الأهمية، أصبح الركن الثقافي منذ التسعينيات يستخدم كنموذج للتحليل والتدخلات العمومية في الاستراتيجيات المحلية، الوطنية، والدولية.[6]

3. السياسة الثقافية والدولة:

ولما كانت الثقافة في المجتمعات المعاصرة تعد حقا من الحقوق الأساسية، فإن الدولة مطالبة بتمكين كل فرد من أن ينال حقه من الثقافة والفنون، ويشبع حاجاته الذاتية في هذا المجال، بالوسائل التي تراها محققة لبلوغه هذه الغاية؛ ذلك أن إنعاش الحياة الثقافية والفنية في المجتمعات المعاصرة أصبح جزءا لا يتجزأ من واجبات الدولة الحديثة. إن

5- Jean Pierre Warnier (1999). La mondialisation de la culture, p. 70.

6-Jordi Pascal I Ruiz (2007). La participation citoyenne au développement de la politique culturelle locale pour les villes européennes, in Guide de la participation citoyenne, p. 27.

الرعاية التي كان يقدمها الميسورون للثقافة والفنون لم تعد تلبي الاحتياجات المتزايدة للناس في مجال الثقافة.. ومن هنا كان واجب الدولة بقدراتها وإمكانياتها أن تجعل الثقافة منهلا ينهل منه الجميع وأن تفسح لها السبل لكي تزدهر وتهيئ لها المناخ لكي تنتعش، وهو ما يقتضي أن تولي الدولة عناية للسياسة الثقافية تتفق وحاجات المجتمع بنفس القدر الذي توليه للسياسات الاقتصادية والتعليمية.

والسياسات الثقافية تشكل، اليوم، إحدى اهتمامات الدولة المعاصرة الملحة؛ وهذا ما يتجلى بوضوح في تبني مؤسسات الدول المختصة للتنمية الثقافية؛ سواء بتبنيها للأعمال الفنية في مختلف الأصناف، قصد المحافظة على المصنفات الإبداعية، أو من خلال الدعم عن طريق سياسة الإعانات العمومية، أو من خلال المشاركة في ترقيتها.

يظهر الاهتمام بالسياسة الثقافية في المجتمعات العصرية بشكل واضح في تدخل الدولة في الشؤون الثقافية وتنصيب نفسها المسئول الأول عن القطاع الثقافي. ويمكن ملاحظة بعض أشكال هذا التدخل في مختلف الأدوات والتقنيات المعتمدة في مراقبة الإنتاج الثقافي، كأن تطلب مباشرة من الفنانين إنتاج بعض الأعمال الفنية مقابل تعويض مادي، أو بشكل غير مباشر من خلال وضع إجراءات تحفيزية وقانونية وامتيازات جبائية، أو تقديم إعانات تغطي أكبر جزء من التكاليف، أو المساعدة في ترقية وتوزيع الأعمال الفنية. تكشف هذه الإجراءات عن التدخل القوي للدولة، ويمكن أن تصل إلى حد جعل الفنانين موظفين. وبالرغم من أهمية تدخل الدولة في الشأن الثقافي من حيث الدعم المادي والرعاية المالية، إلا أن التجربة تثبت هشاشة هذه الاختيارات التي تفتقر في أغلب الحالات إلى الوضوح والشفافية وتسبب في ظهور انحرافات، والانزلاق التدريجي نحو هيمنة الثقافة الاستهلاكية. ذلك أن المبالغة في تضخيم دور ومهام الدولة في إدارة الحياة الثقافية أمر قد يؤدي إلى نتائج عكسية. وبدل توجيه الدعم المالي للمساهمة في ترقية النشاطات الثقافية التي تخص المجتمع، تعمد بعض الدول أحيانا إلى الاستثمارات التي تعزز صورتها الخاصة وقوتها، وذلك من خلال التركيز على بعض النشاطات مثل الأعمال الكبرى للمسئول أو «مشاريع الرئيس». وتصبح الثقافة في هذه الحالة رهانا إيديولوجيا لجهاز الدولة.

ولما كانت الثقافة بالمعنى الواسع للكلمة هي مجموع الأعمال المادية وغير المادية التي ينتجها المجتمع، وبالتالي فهي ليست في خدمة دولة ممثلة أو وصية على الفنانين، ولكنها تنتمي إلى الحياة العامة للمجتمع، بوصفها إحدى طرق التعبير الخاصة عن التاريخ وإثراء واقعه المادي والروحي. ذلك أن مهمة الدولة لا تكمن في تحديد مضمون الثقافة أو توجيه الإبداع في اتجاه معين، فالحياة الثقافية تتطلب أولا وقبل كل شئ حرية البحث والنقد والابتكار وإيصال النتاج الثقافي إلى الناس. والسياسة الثقافية لا تعني إقدام الدولة على صنع ثقافة رسمية، بقدر ما تهدف إلى ترقية القيم الثقافية للمجتمع.

وفي هذا المجال نتساءل كيف يمكن أن نتجاوز هذا المأزق وما هي السبل الناجعة لوضع سياسة ثقافية بديلة لتدخل الدولة؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تبدأ بفهم الدور الملقى على عاتق السلطات العمومية والتي تكمن أساسا في إعطاء المواطنين الوسائل الضرورية للتمتع بمختلف أشكال التعبير السابقة والمعاصرة، واحترام حرية وتنوع الأذواق. ومن هنا فإن أحسن وسيلة لتحديد تدخل الدولة في الشأن الثقافي تكمن في التقليل من القرارات غير الملائمة التي يتخذها موظفون إداريون في مكاتبهم، والعمل على إتاحة الفرصة لمشاركة الجمهور في القرارات العمومية تحقيقا للديمقراطية الثقافية من جهة،

ودفع المبدعين إلى تحمل المخاطر بدل الاتكال على مساعدات الدولة من جهة أخرى. إن مساعدات الدولة للثقافة والفن لا يمكن أن تتم قبل تلقي الجمهور لهذه الأشكال الفنية، ذلك أن الثقافة لا معنى لها إلا إذا اعترف بها المجتمع.[7]

4. أشكال السياسات الثقافية:

إن تحليل السياق الاجتماعي الثقافي الذي تحدد فيه السياسات الثقافية تبين أن تدخل الدولة في الحياة الثقافية من خلال سن القوانين التشريعية والدعم المالي والإجراءات التنظيمية وحدها غير كافية لإحداث تغيير جذري في السياسات الثقافية. إن المتمعن في السياسات الثقافية المنتهجة من قبل المؤسسات الثقافية في الكثير من الدول يكشف عن عدم وضوح عملية اتخاذ القرارات التي تحكم هذه السياسات. ذلك أن المؤسسات الثقافية ليست مجرد هيئات مستقلة تنشط في مجال اختصاصها، ولكنها تساهم في تحديد السياسات الثقافية المختلفة أيضا. إن العمل على تحقيق مجال ثقافي يقوم على التنوع والتكامل هو من الضرورات الأساسية التي تنشدها المجتمعات المعاصرة لتحقيق فعالية المنظمات الثقافية. والثقافة ما هي إلا مجال آخر من مجالات النظام الاجتماعي والاقتصادي. وعلى القائمين على القطاع الثقافي أن يقنعوا المحيط العام بأهمية الثقافة ودورها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

تتنوع أشكال السياسات الثقافية من مجتمع إلى آخر ومن فترة زمنية إلى أخرى، علما أن السياسات الثقافية مرهونة بفهم السياق الاجتماعي التاريخي الذي تنمو فيه. وقبل التطرق إلى أشكال السياسات الثقافية نذكر ببعض الأهداف التي يسعى واضعو السياسات الثقافية إلى تحقيقها.

تنطلق بعض السياسات الثقافية من هاجس الانتشار الثقافي، والهدف الرئيس لهذا النموذج هو وضع الشروط المناسبة للإبداع الثقافي ونشره وتواصله بحيث يدعم الهوية الثقافية القومية.

بينما يسعى البعض الآخر إلى التأكيد على الجانب العملي للثقافة وذلك بالسعي إلى توفير الظروف اللازمة لتحقيق المزيد من الديمقراطية في الحياة الثقافية من خلال تمكين الناس من المشاركة في الإنتاج الثقافي.كما يسعى إلى تحسين الفعالية لدى كل الفاعلين في الحياة الثقافية.

أما البعض الآخر فيركز على الجانب التجاري للثقافة وينطلق هذا النموذج مباشرة من التزام بعض المجتمعات بتحقيق مستوى أعلى من التحرر الاقتصادي في قطاع الفنون، وهو نموذج يعكس فكرة أن المنتج الفني لا يختلف عن أي منتج آخر، وأن قيمته تقاس بمدى نجاح المنتج في السوق.[8]

والواقع أن أنه لا يمكن فهم السياسة الثقافية لأي بلد بمعزل عن تاريخه، فالسياسة الثقافية تندرج ضمن التجربة التاريخية للبلد. هذا وتتنوع السياسات الثقافية بتعدد أشكال تدخل الدولة. وفي هذا المجال يمكن الإشارة إلى بعض نماذج تدخل الدولة في الشأن الثقافي.

7- Jean-Jacques Wunenburger (1996). L'Etat entrepreneur ou éducateur culturel? n° 20.

8-ملينا دراجيشيفيتش شسشستش وسانجين دراجوجيفيتش (2007). إدارة الفن في زمن عاصف، ص 30-32.

النموذج الأول أو ما يعرف «بالدولة المهندسة» وتمثله فرنسا التي يعود اهتمام رعايتها للثقافة والفنون إلى عهود سابقة يتجلى ذلك في حرص الأمراء والملوك على تطوير وترقية الفنون وتدخل الدولة في تسيير شؤون المجتمع. ويعود فضل ابتكار «السياسة الثقافية» لفرنسا التي ظلت طوال تاريخها تعمل على توظيف الثقافة في سياستها الخارجية. ومن بين الشخصيات التي لعبت دورا أساسيا في وضع أسس السياسة الثقافية أندريه مالرو مؤسس «بيوت الثقافة» وجاك لانج الذي أدخل آليات جديدة لإدارة العمل الثقافي.

وتعد بريطانيا من بين الدول الراعية للثقافة والفنون، إذ توصف بـ «الدولة الراعية». وإلى جانب اهتمامها التاريخي بالثقافة والفنون تتميز تجربتها بابتكار «مجلس الفنون» الذي يقوم بتقديم الدعم للمنظمات الثقافية في بريطانيا. وقد أنشئ مجلس الفنون مع نهاية الحرب العالمية الثانية برئاسة اللورد كينيس الذي لعب دورا أساسيا في رسم السياسة الثقافية في بريطانيا. ينطلق مجلس الفنون البريطاني من اعتبار أن الفنان لديه شئ محدد يقدمه للمجتمع والذي يتجاوز أي حكم اقتصادي أو سياسي معين. فالفن يضع الناس في صلة مع القيم الكونية، ولذا فإنه يستحق الحماية من قوى السوق وتدخل الدولة، فهو مثل التعليم والصحة والضمان الاجتماعي مكون أساسي في حياة المواطن[9].

أما النموذج الثالث فتمثله الولايات المتحدة الأمريكية التي توصف بـ «الدولة المُيَسّرة». تختلف الولايات المتحدة الأمريكية عن أوروبا في مجال تنظيم شؤون الثقافة والفنون، ويتمثل بشكل خاص في غياب وزارة الثقافة وفي التدخل المحدود للدولة المركزية واعتمادها على المؤسسات والمانحين، فالدستور الأمريكي يحدد صلاحية الدولة في مجال السياسات العمومية، ويستبعد التعليم، الصحة والثقافة. وقد ارتأى مؤسسو الجمهورية ترك القرارات المتعلقة بالمواطن تتم على المستوى المحلي (الجماعات المحلية) فهي التي تقرر السياسة الثقافية والاجتماعية والبحث عن التمويل الضروري. دفعت هذه السياسة المواطنين الميسورين إلى المشاركة القوية في إقليمهم.

وإلى جانب هذه النماذج الثلاثة يمكن الإشارة أيضا إلى تجربة ألمانيا، التي يغيب فيها مفهوم الدولة المركزية أي الولاء لسلطة مركزية، ويحتل الإقليم دورا أساسيا في التنظيم الألماني، وربما هذا ما يفسر اهتمام الألماني بالتنمية الثقافية الإقليمية. وقد لعبت البرجوازية والنبلاء دورا حيويا في رعاية الثقافة والفنون في الأقاليم التي ينتمون إليها.

وتعتبر إيطاليا هي الأخرى من أهم الدول التي ترعى الثقافة والفنون علما أن إيطاليا تعرف بمدنها، ومن ثم فإن التنمية الثقافية من مهام أعيان ومواطني المدن الذين يرغبون في تنشيط الحياة الثقافية لمدنهم. علما أن هذه الرعاية تتجاوز الأعمال الفنية إلى ترميم الهياكل الثقافية.[10]

والواقع أن السياسات المدعمة للنشاطات الثقافية التي تمارس على المستوى الوطني تختلف وفق التصور المقدم للثقافة والوسائل التي تخصص لها. فقد ينظر إلى السياسة الثقافية بوصفها تعمل على تعزيز الهوية الوطنية وترقية النشاطات ذات الأهمية الاقتصادية والاجتماعية الكبيرة وجعلها رهانا سياسيا. أما في حالات أخرى فإن هذا الاهتمام يندرج ضمن تقليد يعتبر المصنفات الفكرية تعبيرا عن الحضارة وعنصرا للإشعاع الثقافي.

9- باز كيرشو (2001). الراديكالية في الأداء المسرحي بين بريخت وبودريلارد، ص 64.

10- François Colbert, opcit.

إن السياسات العمومية تترجم بشكل عام في آليات مختلفة تتراوح بين الدعم المباشر والإجراءات الجبائية الموجهة لتشجيع المبادرات الخاصة قصد رعاية الثقافة والفنون.[11]

أما على الصعيد الدولي فإن موقف الدول حيال المسألة الثقافية فيتخذ عدة أشكال. وفي هذا المجال يمكن أن نميز بين ثلاث مقاربات أو مواقف. الموقف الأول يمكن وصفه بالسلبية أو اللامبالاة تسلكه بعض الدول تنتمي في معظمها إلى الدول النامية التي تعتبر أن الرهانات الثقافية هامشية، فضلا عن عدم توفرها على الإمكانيات الضرورية التي تمكنها من توظيف البعد الثقافي في العلاقات الدولية.÷ويمكن أن نتساءل عن مغزى الدفاع عن السياسات الثقافية الوطنية بالنسبة لبلدان أجبرهم صندوق النقد الدولي والبنك الدولي على تطبيق برامج التعديل الهيكلي إلى جانب ضعف الهياكل الضرورية لقيام صناعة ثقافية تنافسية.

تتمثل المقاربة الثانية في الموقف الدفاعي الذي تسلكه الدول الرافضة للتنميط الثقافي الذي فرضته العولمة الثقافية. وتم التعبير عن هذا الموقف من خلال المطالبة «بالاستثناء الثقافي» الذي يهدف إلى إخراج المنتجات والخدمات الثقافية من الاتفاقية العامة حول التجارة والخدمات (AGCS). وقد عبّر المدافعون عن هذا الموقف ضمن الإطار التنظيمي للاتفاقية العامة حول التجارة والخدمات، مؤكدين على ضرورة اعتبار المنتجات والخدمات الثقافية لاسيما السمعية البصرية بوصفها سلعا تختلف عن السلع الأخرى. وقد بلور هذا المطلب في مرحلة لاحقة في الدعوة إلى «التنوع الثقافي» الذي أفضى إلى صياغة الاتفاقية حول حماية وترقية تنوع التعبيرات الثقافية الذي تبنته منظمة اليونسكو.

وقد شكل هذا الموقف نقطة خلاف بين الدول الموقعة على الاتفاقية العامة حول التجارة والخدمات.

أما الموقف الثالث فيخص الولايات المتحدة الأمريكية التي تراهن على الاستراتيجية الجيوسياسية. تقوم هذه المقاربة على الهيمنة. وتنطلق من اعتبار الثقافة عنصرا رئيسيا في المنافسة يجب توظيفه كاستراتيجيه على الصعيد الدولي. وتجدر الإشارة أن هذا الموقف ليس جديدا، فمنذ دعوة تيودور روزفلت في 1898 إلى أمركة العالم، عملت الولايات المتحدة الأمريكية على ترقية صورتها وقيمها ورؤيتها للعالم، وها هي الآن تجني ثمار هذه السياسة.[12]

تهدف الاستراتيجية الأمريكية على المدى البعيد إلى ضمان سياسة تمكنها من احتلال مكانة مركزية في الشؤون العالمية، وذلك بالعمل على منع ظهور قوة منافسة. وقد ترجمت هذه السياسة في استراتيجية شاملة تقوم على تطوير القوة الاقتصادية للثقافة الأمريكية والتي تحرص وبشكل براجماتي على حماية صناعاتها الناشئة وكذلك حرية التبادل للولوج إلى الأسواق الخارجية.

والواقع أنه مهما كانت الاعتبارات التي تنطلق منها مختلف الأطراف لتبرير مواقفها حيال الدور الذي يمكن أن تلعبه في المجال الجيوثقافي، يجب الأخذ بعين الاعتبار المبررات المقدمة من قبل مختلف الأطراف بدل التساؤل عما يمكن أن تقدمه. ومن هنا فإن ما يمكن

11- Jean Tardif, Joelle Farchy (2006). Les enjeux de la mondialisation culturelle, p 254.

12- Ibid, p. 280.

التشديد عليه هو أن الخضوع أو اللامبالاة لا تشكل إطلاقا سياسة. كما أن سياسة الدفاع وإن كانت تمكّن من المقاومة لكنها لا تحقق بالضرورة الانتصار. أما القوة فيمكن أن تحرز النصر على المدى القريب، لكنها لا تحقق المشاركة ولا تضمن السلم. ذلك أن التاريخ يبين بأنه لا توجد إمبراطورية خالدة. والنتيجة فلا المقاربة الدفاعية ولا الإستراتيجية الأمريكية تسمح بضمان التنوع الثقافي المنشود.[13]

إن التباين في السياسات الثقافية لا يظهر بين الدول كما رأينا آنفا، بل داخل البلد الواحد. وفي هذا السياق فالجدل الدائر بين من يفضلون السياسات الثقافية المتمركزة في المؤسسات القومية مثلما هو الشأن لدى الكثير من الدول العربية، وبين الدول والمنظمات التي تسعى إلى البحث عن سياسات ثقافية قائمة على أبعاد واقعية تراعي الحقائق واحتياجات الناس المتنوعة، داخل حدود البلد الواحد، رافعة شعار الاحتفاء بالتنوع الثقافي إقليميا، وتصبح القضية الرئيسية كيف ترتبط المؤسسات الثقافية بالإقليم، أي التركيز على البعد الإقليمي والمواطنة، فيما تعمد بعض المجتمعات صياغة سياساتها الثقافية انطلاقا من البعد الإثني.

وبالرغم من أن هذا المسعى لا يلقى إجماعا إذ لا تزال الكثير من الدول لا تقبل السياسات الثقافية التي تقوم على البعد الإقليمي وتفضل السياسات الثقافية المتمركزة في المؤسسات القومية.

والواقع أن المسألة لم تعد محصورة في الجدل بين السياسات الثقافية القومية والإقليمية، بل أصبحت تطرح مسألة الشراكة بين مختلف الأطراف (القطاع العمومي والخاص والمجتمع المدني)، فلن تكون هناك تنمية ثقافية حقيقية ومتوازنة ومستدامة، ما لم تكن هذه القطاعات الثلاثة منخرطة في بلورة السياسات الثقافية القائمة على الأهداف المشتركة. وذلك من خلال ربط القطاع الخاص والمجتمع المدني بالقطاع العمومي والمساهمة بشكل مشترك في وضع السياسات العمومية. يجب أن تتبلور هذه الإستراتيجية عبر حوار تفاعلي توافقي شفاف.

تمثل السياسات المشتركة مستقبل التنمية الثقافية في كل بلد. وعلى السياسات الثقافية أن تكون جزءا مندمجا مكملا من المسئولية العامة، أي مسئولية القطاعات الرئيسية للحياة الثقافية.[14]

5. السياسات الثقافية العربية:

تزامن الوعي بأهمية الثقافة في العالم العربي مع نشأة جامعة الدول العربية عام 1945. وقد نصت المادة الرابعة من ميثاق الجامعة على تشكيل لجنة ثقافية. وقدمت مشروع معاهدة ثقافية كانت الأولى من بين الاتفاقات التي تم إبرامها بين دول الجامعة. ونصت هذه الاتفاقية بشكل خاص على أن تنشأ أداة دائمة لتحقيق التعاون بين الدول العربية تتألف من لجنة دائمة، مهمتها بحث مختلف جوانب التعاون الثقافي، والسعي إلى تكون ثقافة عربية موحدة تستمد قوتها من تاريخ الأمة العربية، وتغتني بجميع مكتسبات العلم ومكتسبات الحضارة العالمية.

13- Ibid, p 291.

14-Melina Dragicevic and Sanjin Dragovic (2009). Imagined Divides in Cultural Policies.

وقد توج هذا الاهتمام بإنشاء منظمة التربية والثقافة والعلوم في 1970، وحرصت هذه الهيئة على تنفيذ المشاريع والبرامج الثقافية القومية، ورفع مستوى العمل الثقافي في العالم العربي لمواكبة الحضارة العالمية. أولت هذه المنظمة في برامجها مكانا للسياسة الثقافية فأنشأت لجانا أسندت لها مهمة رسم وتخطيط العمل الثقافي وتنظيم أجهزته.

فقد دعا بيان عمان الثقافي الذي تم في المؤتمر الأول للوزراء المسئولين عن الثقافة في الدول العربية في 1976 إلى ضرورة وضع سياسة ثقافية عربية موحدة واضحة الأهداف والمعالم والوسائل تلتزم بها الدول العربية.

ودعا المؤتمر العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في دورته غير العادية الأولى في الخرطوم سنة 1979 إلى ضرورة القيام بوضع استراتيجيات لكل من قطاعي الثقافة والعلوم، وتقرر أن يكون موضوع «نحو إستراتيجية للثقافة العربية» هو الموضوع الرئيسي للمؤتمر الثاني للوزراء المسئولين عن الشئون الثقافية في العالم العربي.

وقد أصدر المؤتمر الذي عقد في طرابلس في 1979 التوصية الأساسية التالية : «يدعو المؤتمر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى اتخاذ الإجراءات لتنفيذ وضع خطة شاملة لتنمية الثقافة العربية، ولتحقيق هذه الغاية يقوم المدير العام للمنظمة بتأليف لجنة بالتشاور مع المجلس التنفيذي يعرض تقريرها بهذا الشأن على المؤتمر الثالث للوزراء المسئولين عن الشؤون الثقافية في البلاد العربية».

وقد توّج هذا الاهتمام بإقرار عقد مؤتمر دوري لوزراء الثقافة في العالم العربي تكون مهمته مساندة عمل المنظمة في مراحل التخطيط ورسم السياسات الثقافية في إطارها القومي وبعدها الإنساني. وعملت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالتنسيق مع الدول الأعضاء وبالتعاون مع خبراء في العالم العربي على إعداد وثيقة تتضمن خطة ثقافية شاملة تم عرضها عام 1985 على مؤتمر وزراء العرب في دورته الخامسة واعتبروها مساهمة من الدول العربية والمنظمة في العقد العالمي للتنمية الثقافية. وحددت الخطة الشاملة للثقافة العربية الأهداف التالية : تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي، وتنمية وإبراز الهوية الحضارية الإسلامية والمحافظة عليها، والتحرر القومي الشامل، وتكوين شخصية المواطن وإغنائها وتأكيد وعيه بتراثه وانتمائه لأمته وقيمه، والتعاون الحضاري العالمي.[15]

وقد أسهم في اللجنة المكلفة بإعداد الخطة الشاملة للثقافة العربية عدد من المفكرين والخبراء في ميادين الثقافة، وتم وضع برنامج عمل نفذته على امتداد أربع سنوات (1982 ـ 1985) جمعت فيه قرابة 600 خبيرا ثقافيا في 27 ندوة حضر كلا منها ما بين 20 - 25 خبيرا من مختلف الاختصاصات، وقدم فيها 61 بحثا جرت مناقشة مواضيعها، واتخذت منطلقات لبحث ميادين الثقافة، وحرصت على ضرورة القيام بمسح شامل للتعرف على واقع الثقافة العربية.

وناقشت حصيلة الأبحاث والتوصيات التي قدمها الخبراء الثقافيون في مختلف البلدان العربية في الندوات التي عقدت بإشراف اللجنة. والوسائل المتاحة لمتابعة تنفيذ برامج وتوصيات الخطة الثقافية الشاملة من جانب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

15- الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، (1990)، ص.27 - 28 .

وأكدت على ضرورة القيام بجهد إعلامي واسع يسبق الخطة ويرافقها ويعقبها لتقديمها للناس بما يتناسب مع شأنها التنموي الكبير.

إن الاهتمام الذي أبدته الهيئات والمنظمات العربية لموضوع الثقافة رافقه اهتمام آخر على مستوى كل دولة. فقد أنشئت وزارات للثقافة وأصدرت قوانين تشريعية تنظم الحقل الثقافي، ورصدت ميزانيات لتنفيذ البرامج الثقافية المختلفة. أما بخصوص السياسات الثقافية التي تبنتها الدول العربية فهي أيضا متباينة من دولة إلى أخرى. وتجدر الإشارة أن تدخل الدولة في الشؤون الثقافية الذي أشرنا إليه سابقا في بعض الدول الديمقراطية يظهر بصورة أوضح في التجربة العربية. لاسيما وأن معظم الدول العربية التي نالت استقلالها كانت الثقافة فيها تشكل الضمان الوحيد للانسجام الوطني. ذلك أن إدماج الثقافة في المنطق السياسي كان ضرورة لأنها تشكل إحدى المطالب الأساسية للأمة. وقد أدركت الحركات الوطنية بأنه يمكن الانطلاق من الثقافة لجعل السياسة فعلا ثقافيا. فقد وظفت الثقافة سلاحا في مقاومة المحتل، لعبت دورا محوريا في شحذ الوعي الوطني خلال الحقبة الاستعمارية.

أما بعد الاستقلال فكان على الدولة الجديدة أن تظهر في هذا المجال بمثابة منقذ للثقافة من خلال النضال السياسي ضد الاحتلال. ومن هنا فإن الثقافة والسياسات الثقافية هي من اختصاص الدولة وحدها.

إلى جانب هذه الخاصية فإن الدول العربية شأنها شأن معظم دول العالم الثالث كانت تقوم على نظام الحزب الواحد، وقد بدا واضحا هذا التوجه بأن الثقافة يجب أن تعزز وبشكل دائم الحركة السياسية والإيديولوجية.[16]

في ظل هذا السياق الدولة-الحزب يجب أن تظل الدولة حاضرة باستمرار في تحديد مفهوم الثقافة. ويمكن أن نتساءل هل أن الأمر يتعلق باستراتيجية ترمي إلى مراقبة النشاطات الثقافية؟ أم هو مجرد وعي بدور الثقافة في التنمية؟ يمكن الإجابة عن ذلك بالتذكير بأن السلطة السياسية كانت تنظر إلى الثقافة باعتبارها امتدادا للرؤية التقليدية التي تعتبر الثقافة وسيلة فعالة في مقاومة الاستعمار وعنصرا قويا لحفظ الانسجام الوطني. طرحت المسألة الثقافية بعد الاستقلال من منظور سياسي إيديولوجي، واعتبرت عاملا أساسيا لملء الفراغ الذي خلفه الاستعمار.

إن هذا التوجه في الحقيقة قائم على بنية عمودية، فلم يكن في ذلك الوقت ممكنا الحديث عن التعددية لأنه يعتبرها مناقضة للمسألة الوطنية، ويثير إشكالية الصراع بين الثقافة الرسمية والثقافة غير الرسمية. وبين الثقافة البرجوازية والثقافة البروليتارية، أو ثقافة الأقليات في مقابل ثقافة الأغلبية. كما أن التعددية تشكل عاملا أساسيا للبيرالية الاقتصادية. ذلك أن التعددية وفق هذا المفهوم تعد تناقضا لمشروع المجتمع الاشتراكي.[17]

إن القراءة المتفحصة للتجارب العربية يمكن أن يستشف صعوبة تحديد السياسات الثقافية العربية مثلما جاء في الخطة الشاملة للثقافة العربية وكذلك مختلف قرارات وتوصيات

16-Papa Gueye N'Diaye (1980). Le développement culturel en Afrique, évolution, expériences et perspectives. p.24

17-Ridha Tlili (1991). Politique culturelle Carrefour de la contreverse, Actes du colloque : La dimension culturelle du développement, pp 170- 172.

منظمة الثقافة والتربية والعلوم. ولعل هذه الصعوبة تزداد عند السعي إلى محاولة تحديد السياسات الثقافية لكل دولة عربية على حده، بسبب تباين هذه السياسات من بلد إلى آخر.

وقد يلحظ أثر العهد الكولونيالي الأنجلوساكسوني والفرانكفوني على إدارة المرافق الثقافية، سواء في البلدان التي كانت تحت النفوذ البريطاني أو تلك التي كانت تحت الهيمنة الفرنسية. يتجلى بعضه في النموذج الليبرالي القائم على العمل الحر والتوجه نحو المشروعات الهادفة للربح مثل السياحة والإنتاج السينمائي وصناعة الترفية. أو النموذج الاشتراكي الذي ظهر في الستينيات يتسم بنظام قوي للمؤسسات الثقافية العامة وبدور مهيمن للدعم العمومي، وبالتخطيط المركزي للشؤون الثقافية.[18]

بالرغم من الاهتمام الذي توليه الدول العربية للثقافة والعناية التي تبديها مؤسسات جامعة الدول العربية في سعيها للاقتداء بالتجارب الغربية في مجال السياسات الثقافية : العقد العربي للتنمية الثقافية وعواصم الثقافة العربية. وبالرغم أيضا من ثراء وتعدد الثقافة العربية. فإن الواقع يكشف التأخر الملحوظ في المجال الثقافي، بل هناك بون شاسع بين الطموح والإنجاز، وما تحقق لم يرق إلى مستوى يمكّن التنمية الثقافية من مواكبة التنمية الاقتصادية أو الصناعية أو الزراعية. فقد اتسمت هذه الجهود بأنها تفتقر إلى وجود صيغ عملية منتظمة وإهمال البعد الثقافي في عملية التنمية.

يعد الاستغلال الأمثل للموارد المادية والبشرية سواء بسبب الظروف السياسية والأوضاع غير المستقرة التي تمر بها الدول العربية وضيق أطر التشريعات والقوانين المنظمة للعمل الثقافي أحد مظاهر الخلل في بلورة السياسات الثقافية في العالم العربي، فضلا عن ارتباط قطاع الثقافة بقطاعات أخرى واعتباره قطاعا لا يمثل الأولوية، والتركيز على القطاعات المنتجة للحاجات المادية على حساب الثقافة والخلط بين مفهوم الثقافة والتربية. والاهتمام بالمشاريع والبرامج الثقافية المرتبطة بالسياسات الآنية والرسمية للحكومات المتعاقبة وإهمال المبادرات المستقلة. وعدم ملائمة الإنتاج الثقافي للجمهور وقلة الموارد وضعف إدارة المؤسسات الثقافية. ويمكن أن نعزو كل ذلك إلى غياب السياسة الثقافية القائمة على الرؤية البعيدة المدى.

وإلى جانب المشكلات السياسية والاقتصادية التي تواجه قطاع الثقافة في العالم العربي والتي انعكست بصورة سلبية على السياسات الثقافية تأتي أزمة السياسات العامة التي تظهر بصورة أوضح في غياب الإجراءات الإدارية المهنية في قطاع الثقافة، واعتماد نموذج مستورد للسياسات الثقافية لا يتماشى وظروف البلد. فضلا عن غياب التنسيق والتكامل وربط الاتصالات بين القطاعات الثلاثة (العمومي والخاص والمدني) وعدم تكافؤ الفرص بين المنظمات الثقافية.

ويشكل التمويل إحدى المشكلات التي يعاني منها قطاع الثقافة في العالم العربي، فإلى جانب سوء الإدارة وضعف الموارد المالية لدى بعض الدول العربية لاسيما غير النفطية، تعتمد المنظمات الثقافية في نشاطها على ما تقدمه الدولة. وفي هذا السياق يسجل غياب القطاع الخاص في المساهمة في العمل الثقافي.

18-Milena Dragicevic (2010). The Need for integrated cultural policies in the Arab World, i, Cultural policies, European Cultural Fondation, pp 236-237.

ويمكن الإشارة إلى الصعوبات التي تواجهها الدول العربية من جراء الضغوط التي تمارسها الهيئات المالية الدولية الداعية إلى الالتزام ببرامج التعديل الهيكلي وتحرير الاقتصاد والتجارة. وقد ترتب على كل ذلك تراجع دور الدولة عن التدخل في الفضاء الثقافي.

ليست العوامل السياسية والاقتصادية وحدها التي حالت دون بلورة سياسات ثقافية في العالم العربي، ذلك أن معظم النظم الثقافية التي كانت سائدة في ظل النظام الاشتراكي قد تعرّض للاهتزاز وفقد وضعه وأصبح محل شك من قبل القائمين على القطاع الثقافي.[19]

وتشكل الفروق الثقافية التي ترتبط بالتباينات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسلوكية للفئات الاجتماعية إحدى المشكلات التي تحول دون بلورة سياسات ثقافية وطنية متفق عليها من قبل أغلبية المنشغلين بالشأن الثقافي. ويعزو البعض هذه المسألة إلى غياب الحوار بين النخب التي تلقى بعضها تكوينه في الخارج والتي ينظر إليها في بعض الأحيان كمصدر تهديد، وذلك لما تمثله من ثقافة أجنبية متأثرة بالعولمة. فيما تنظر هذه النخب بدورها إلى باقي الفئات الأخرى كمصدر تهديد أيضا لأنها تمنعها من تحقيق أفكارها التنويرية. أما الفئات الاجتماعية التي تشكل الأغلبية الساحقة من السكان فهي مستبعدة من المشاركة في الحياة الثقافية، فضلا عن انقسام النخب بين معرّب ومفرنس في بعض الأقطار العربية مثلما هو الحال في المغرب العربي.

وخلاصة القول إن إصلاح القطاع الثقافي في العالم العربي مرهون بتوفر جملة من الإجراءات والتدابير أهمها وجود سياسة ثقافية تراعي الظروف الداخلية للدول العربية وتواكب في ذات الوقت التغيرات العالمية السريعة حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات المطروحة والحرص على ضرورة أن تكون السياسات الثقافية موازية لسياساتها للتقدم الاقتصادي والمادي، وأن يُعطى البعد الثقافي الأهمية الواجبة حتى تكتمل التنمية الشاملة، وضرورة الاهتمام بوضع التشريعات القانونية الملائمة، وضمان التمويل اللازم ودعوة المؤسسات الاقتصادية العمومية والخاصة للمساهمة في تمويل العمل الثقافي.

لقد ظلت السياسات الثقافية لوقت طويل نشاطا يتم في إطار دوائر ضيقة من الإداريين الثقافيين للقطاع العمومي، تحت رعاية وزارة الثقافة وإيديولوجية الحزب السياسي الذي يمثله هؤلاء الإداريون. وهو أمر يجب استدراكه والعمل على توسيع وإشراك المجتمع المدني في بلورة السياسات الثقافية.

إن هذه الرؤية تساعد في تحديد الأدوار المختلفة للهيئات والمؤسسات القائمة على العمل الثقافي، وتحدد استراتيجيات عملها، والموارد اللازمة لهذا العمل ومعايير نجاحها وأساليب تطويرها. ويمكن تحقيق هذه المهمة بالتعاون بين السلطات والهيئات المنتخبة (الحكومات وإيديولوجيتها الرئيسية) وسلطة الخبراء (المؤسسات الثقافية العمومية والخاصة) والقوى ذات المسئولية الاجتماعية (قطاع المنظمات غير الحكومية) وتقليص السلطة التي ظلت منحسرة في الوزارات والهيئات العمومية وإشراك المواطن في صنع السياسات الثقافية.

19- ملينا دراجيشيفيتش شسشستش وسانجين دراجوجيفيتش، المرجع السابق، ص 38.

المراجع باللغة العربية:

1. باز كيرشو(2001). الراديكالية في الأداء المسرحي بين بريخت وبودريلارد، ترجمة محمد السيد، وزارة الثقافة، القاهرة.
2. الخطة الشاملة للثقافة العربية (1990). المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. الطبعة الثانية، تونس.
3. رزق الله هيلان (1991). التنمية والثقافة في الوطن العربي المعاصر، (أشغال ملتقى العنصر الثقافي في التنمية، تونس 21 - 26نوفمبر 1988) سلسلة العلوم الاجتماعية، عدد 17، تونس.
4. ملينا دراجيشيفيتش، شسشستش وسانجين، دراجوجيفيتش. 2007. إدارة الفن في زمن عاصف. ترجمة نهاد سالم. دار شرقيات، القاهرة.

المراجع باللغة الأجنبية:

5. Colbert, François . Les éléments des politiques culturelles, www.manag - mentculturel.com
6. Dragicevic, Melina and Dragovic, Sanjin (2009). Imagined Divides in Cultural Policies, ed Ulrike H.Meinhof, Palgrone Publisher, London.
7. Dragicevic, Milena (2010). The Need for integrated cultural policies in the Arab World. in Cultural policies. European Cultural Fondation, Boekmanstudies, Amsterdam.
8. N'Diaye, Papa Gueye (1980). Le développement culturel en Afrique, év - lution, expériences et perspectif. UNESCO, Paris.
9. Ruiz, Jordi Pascal I. (2007). La participation citoyenne au développement de la politique culturelle locale pour les villes européennes, in Guide de la participation citoyenne, Fondation Européenne de la culture, Amste - dam.
10. Tardif, Jean et Farchy, Joelle (2006). Les enjeux de la mondialisation culturelle. éditions Hors commerce, Paris.
11. Tlili, Ridha (1991). Politique culturelle Carrefour de la contreverse. actes du colloque÷: La dimension culturelle du développement, Université de Tunis, 21- 26 novembre 1988,Tunis.
12. Toffler, Alvin (1980). The Third wave. Morrow , Dutch, ed, NewYork.
13. Wunenburger, Jean-Jacques (1996). L'état entrepreneur ou éducateur culturel?. Hermès, n° 20, Paris.
14. Warnier, Jean Pierre (1999). La mondialisation de la culture. éditions Casbah, Alger.

قـــــراءات

قراءة نفسية لكتاب الاستعمار الإبادة : تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية[1]

تأليف: **أوليفيي غرانميزون**

ترجمة: **نورة بوزيدة**

قراءة وتعليق: **أ.د. عشوي مصطفى**
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن –السعودية

لا شك، أن ما تعرض له الشعب الجزائري عبر التاريخ من احتلال و«استعمار» واستدمار قد ترك جروحا غائرة في الشخصية الجماعية الجزائرية بأبعادها الذهنية (الذاكرة الجماعية)، والوجدانية (الحزن والإكتئاب والتوتر والغضب والقلق)، والسلوكية (ردود الفعل السريعة والعدوانية) في الجزائر. ولربما أدى ذلك أيضا لظهور خصال إيجابية في هذه الشخصية مثل الصبر وصلابة المقاومة وحب قيم مثل العدل والإنصاف ونجدة المظلوم والمحتاج والدفاع عن الضعيف وكراهية الظلم والظالمين والشجاعة.

وعليه، فإن فهم أعماق الشخصية الجزائرية وأبعادها السلوكية يتطلب منا فهم تاريخ الجزائر بكل مراحله، وفهم جغرافية البلد من حيث التضاريس كالجبال والصحاري، ومن حيث الظواهر الطبيعية المرتبطة بالجغرافيا كالزلازل والفياضانات، وتركيبة المياه والأطعمة، بالإضافة إلى فهم الجوانب البيولوجية والفسيولوجية (الوراثة، الهرمونات واختلالها) والاجتماعية–الثقافية (العرف والعادات والتقاليد واللغة) والروحية (العقيدة والإيمان والعبادة).

ولنتصور أن باحثا نفسانيا يريد دراسة الملمح العام لشخصية الجزائري دون أخذه بعين الاعتبار التاريخ والجغرافيا والانثروبولوجيا الثقافية والعقيدة الدينية فإنه سيصل بدون شك إلى نتيجة خاطئة وتعميم مختل عن هذه الشخصية.

وإذا اعتبرنا الإستعمار (الاحتلال) أخطر صدمة نفسية قد يتعرض لها إنسان أو شعب ما؛ فإنني أوضح ذلك بناءا على الحقائق التالية :

- الإستعمار معناه التعدي على حقوق الآخرين من حيث احتلال البلاد والعباد.
- الإستعمار معناه القهر والاستعباد للآخر الذي يختلف عن المستعمر في لونه ودينه ولغته وتاريخه وثقافته.
- الإستعمار معناه الإبادة للزرع والحرث والنسل
- الإستعمار معناه الإرهاب بكل وسائله
- الإستعمار معناه التعذيب بكل أشكاله وألوانه

1– أوليفيي غرانميزون، ترجمة نورة بوزيدة (2007). الإستعمار الإبادة : تأملات في الحرب والدولة. دار الرائد للكتاب : الجزائر طبعة خاصة، وزارة المجاهدين.
-Grandmaison, Olivier Le Cour. Coloniser exterminer sur la guerre et l'état colonial. éd. Fayard, Paris.

- الإستعمار معناه التجهيل والتفقير والتحقير والحرمان من إشباع كل الحاجات بما فيها الحاجات الأساسية للإنسان.
- الإستعمار بصفة عامة معناه التجني والتعدي على حقوق الأطفال وحقوق الإنسان بصفة عامة.

وعليه، فإني أعتبر «صدمة الإستعمار» أم الصدمات النفسية و«أم الأوبئة» لأنها تعرض شعبا أو مجتمعا برمته لأخطار هذه الصدمة، كما ينجر عنها ما لا يحصى من الصدمات الفرعية الخطيرة، ومن المآسي والاضطرابات والضغوط التالية للصدمات والأمراض النفسية والجسمية والإختلالات الذهنية والسلوكية وغير ذلك من العواقب التي تمتد آثارها السلبية لأجيال.

ومن بين الصدمات الخطيرة التي نجمت عن «الإستعمار» الفرنسي للجزائر: صدمة الإحتلال، صدمة مسخ الشخصية وطمس معالمها، صدمة الإبادة، صدمة التعذيب والحرب النفسية، صدمة التهجير والنفي، صدمة الإغتصاب، صدمة التجهيل، صدمة التجويع وصدمة الأوبئة.

ولكي ندعم أطروحاتنا حول الإستعمار الفرنسي الاستيطاني الثقافي للجزائر، وما خلفه من كوارث وصدمات، فإننا نكتفي في هذه الدراسة بعرض شهادة مؤرخ فرنسي حاول إنصاف التاريخ تبرئة لضميره الفردي وربما للضمير الجمعي الفرنسي مما حدث للشعب الجزائري من مآس على يد جنرالات فرنسا وعساكرها باستعمال كل ما وصلت إليه تكنولوجيا الأسلحة والتدمير والتخريب المادي والتحطيم النفسي والمعنوي.

لقد استهل غرانميزون (2007) في كتابه «الإستعمار الإبادة» بأطروحة تمحورت حول تخطيط الدولة الإستعمارية الفرنسية لإبادة الشعب الجزائري وإحلال شعب غريب محله بكل وسائل الدمار. وللتأكيد على هذه الأطروحة عمد إلى اقتباس أقوال السياسيين الفرنسيين قبل أقوال جنرالات فرنسا وبقية قادتها العسكريين الذين نفذوا مخططات السياسيين بكل بشاعة ووحشية لا يعادلها في البربرية إلا جرائم استعمارية فرنسية وغيرها في بقية أنحاء العالم وخاصة ضد الأفارقة وضد الهنود الحمر في أمريكا الشمالية والجنوبية ناهيك عن جرائم الإستعمار الفرنسي نفسه ضد الفيتناميين.

بدأ غرانميزون كتابه بالاستشهاد بأحد السياسيين المشهورين الذين أيدوا ومنذ 1828 الاحتلال الفرنسي للجزائر بقوة. وقد كان نائبا في البرلمان الفرنسي وعضوا في أكاديمية الأخلاق والعلوم السياسية ثم وزيرا للخارجية تحت ما سمي بالجمهورية الثانية. لقد قال هذا السياسي من بين ما قال وذلك داخل البرلمان الفرنسي سنة 1847: «غالبا ما سمعت رجالا، أكن لهم كل الاحترام ولكنني لا أتفق معهم، يقولون : ليس من الأخلاق في شيء حرق المحاصيل الزراعية وتفريغ المخازن ومباغتة الرجال والنساء والأطفال العزل؛ وأنا أقول إن هذه أمور مؤسفة حقا، ولكن كل من يريد محاربة العرب يجد نفسه مضطرا لاقترافها...»[2].

فلنتأمل هذا النص ومحاولة صاحبه السياسي المثقف إيجاد تبرير أخلاقي لمحاربة العرب في الجزائر ومباغتة الرجال والنساء وحتى الأطفال العزل. وقد علق غرانميزون على موقف

-2

هذا السياسي المرموق بقوله :

«.. إن صاحب هذه المواقف هو ألكسي دي توكفيل، ولقد دافع عنها في وثيقة رسمية تلاها أمام المجلس الوطني الفرنسي وضمنها في كتيب كان يعيره اهتماما كبيرا. كان دي توكفيل عضوا في اللجنة البرلمانية المكلفة بدراسة مشروع قانون يتعلق باستعمار الجزائر، ولقد عين مقررا لذات اللجنة لعدة أسباب، من بينها معرفته الجيدة بالمنطقة...» (ص 7). وأكد غرانميزون أن مثل هذا الموقف اللا أخلاقي في الغاية والوسيلة كان شائعا آنذاك لدى الكتاب والسياسيين والعسكريين الفرنسيين مما يكشف، كما أوضح، عن «... حمى جماعية حقيقية واهتمام عظيم بأمر ما كان يسمى إيالة الجزائر، اعترت نوابا وعسكريين وكتابا ومصلحين من كل التوجهات السياسية» (ص 8). وقد ذكر غرانميزون نماذج كثيرة للكتاب والشعراء الفرنسيين الذين مجدوا «الإستعمار» الفرنسي للجزائر كما مجدوا وسائله الهمجية ومن بينهم الشاعر المشهور لامارتين، والكاتب المعروف فيكتور هوغو. ولقد صدمت شخصيا عندما عرفت أن كلا من الشاعر لامارتين والكاتب هوغو صاحب كتاب «البؤساء» قد ساندا الإحتلال الفرنسي للجزائر والسياسة القمعية الوحشية التي مورست ضد الجزائريين.

وقد دافع غرانميزون عن استعمال مفهوم «الإبادة» كعنوان لكتابه المذكور بإيراد أقوال موثقة لكتاب وسياسيين وعسكريين فرنسيين دعت لمطاردة «العرب» في الجزائر، واستبدالهم بصينيين وزنوج لأن هؤلاء أقل خطورة من العرب وأكثر استعدادا لتقبل شروط العمل الصناعي الحديث وأكثر انصياعا، وبالتالي يعول عليهم أكثر لاستغلال الأراضي المسلوبة والإستيلاء حتى على الواحات الصحراوية البعيدة (ص 19).

وقد ذهب بعض الفرنسيين إلى أبعد من ذلك حيث دعوا لإبادة الشعب الجزائري. «وذهب البعض إلى أبعد من المطارة، بل قالوا بإبادة جزء من «العرب» أو كلهم بحجة دامغة: العرب جنس أدنى غير قابل للتحضر. واستعان هؤلاء كثيرا بصنيع الغرب بهنود أمريكا وشعب الأبورجين في استراليا...» (ص 19).

وكمثال لما حدث في الجزائر من عمليات إبادة ومجازر جماعية ضد الشعب الجزائري ما أورده غرانميزون (2007) عن إبادة قبيلة أولاد رياح في الظهرة. قادت قبيلة أولاد رياح عمليات مقاومة شرسة ضد العدو الفرنسي في منطقة «الظهرة» بالاعتماد على تكتيك الكر والفر أو ما يسمى بحرب العصابات بعد أن طردت من ديارها وأراضيها ولجأت إلى قمم الجبال حيث يمكن الاحتماء بالمغارات والكهوف.

ولإخضاع هذه القبيلة وإرهابها وغيرها من القبائل المقاومة في منطقة «الظهرة»، عين الكولونيل جان جاك بليسيي لهذه المهمة القذرة. وفي اليوم السابع عشر من جوان (يونيو) 1857، أصدر هذا الكولونيل أمرا بإشعال النيران حول المغارات والكهوف، التي لجأت إليها القبيلة بكل أفرادها صغارا وكبارا، ذكورا وإناثا بهدف القضاء عليهم بالحرق والاختناق. وبعد 12 ساعة، ورغم المقاومة التي أبداها رجال القبيلة، فإن النيران بدخانها قد أدت إلى احتراق من بالكهوف أو اختناقهم بالدخان. وبعد إخراج حوالي 600 جثة من الكهوف والمغارات تبين أنه لم ينج من الموت إلا عدد ضئيل.

أليست هذه محرقة بأتم معنى الكلمة لم يكن هدفها القضاء على كل أفراد قبيلة مقاومة للاحتلال فقط بل لتكون درسا للقبائل الأخرى حتى تستسلم. ولكم أن تتصوروا شدة

الصدمة النفسية التي أصيب بها أقارب هذه القبيلة وجيرانها، وتأثيراتها الذهنية والوجدانية والسلوكية، وانعكاساتها السلبية الشديدة على الصحة النفسية للصغار والكبار على السواء.

لقد خصص غرانميزون الفصل الأول من كتابه للخصائص الذهنية والوجدانية والسلوكية للعرب وذلك تحت عنوان «بخصوص العرب» حيث استعرض أقوالا موثقة لمؤرخين وكتاب فرنسيين تحط من شخصية الجزائري وتسخر من طبيعته البشرية بكل أبعادها. ومن العناوين الرئيسية التي أبرزها في هذا الفصل ما يلي:

«العربي دائما جاهل لا يتغير» (ص 34).

«القرصنة والعصابات العربية والجنس الأمازيغي (القبائلي) الأصيل» (ص 40).

«الكسل والزراعة والرجال- القطيع» (ص 63).

«الممارسات والانحرافات الجنسية وصحة الأعراق» (ص 73).

«في الدعارة الذكورية» (ص 74).

«في الدعارة النسوية وآثارها» (ص 89).

«العدوى العربية والصحة العمومية» (ص 93).

«متوحشون وبرابرة : حيونة وتبهيم» (ص 101).

«العربي : حيوان مفترس» (ص 110).

وقد دعم الأدلة، التي أوردها غرانميزون تحت العناوين المذكرة أعلاه كجزء من الحرب النفسية التي شنتها أبواق الاستعمار منذ احتلال الجزائر سنة 1830 إلى ما بعد استقلالها سنة 1962، ميليرون(2007) في موضوع تحت عنوان «العمل البسيكولوجي ومسخ إنسانية الخصم»[3] حيث كان الهدف من استخدام هذا العمل أو السلاح البسيكولوجي (السيكولوجي) كما أوردت الكاتبة في قولها : «أن تستخدم السلاح البسيكولوجي يعني أن تقوم بعملية موجهة ضد العدو بهدف التأثير على فكره وعواطفه وموقفه وسلوكه، لفائدة مخططات الحكومة والقيادة، وفي آن واحد أن تتوجه إلى عناصر صديقة، وحليفة أو محايدة للحصول على الدعم وكسب تعاطف فعال» (ص 211).

ومن أساليب الحرب النفسية المتبعة تشبيه الجزائري بالحيوان الخطير والمفترس؛ وقد نقل غرانميزون صورة تشبيه الجزائري بالحيوان المفترس بقوله : «وإن كان الإنسان المتوحش قد صير حيوانا، فإن البربري من جهته، صير حيوانا مفترسا كما يدل على ذلك المفردات المستعملة للحديث عن «العرب». والفرق بينهما هو الفرق بين المثال والنموذج...» (ص 110-111).

وبعد أن أورد غرانميزون عدة أقوال لكتاب فرنسيين يصفون فيها الجزائري بالحيوان المفترس وبالدموي وبالطائر الجارح وبابن آوى وبالثعبان والخفافيش وغيرها، ينتهي إلى خلاصة مفادها أن هؤلاء الكتاب مهما اختلفت مرجعياتهم : «... يتفقون جميعهم في المرجعيات التي تسمح لهم باستعمال ما يبدو لهم مناسبا من وسائل تجاه «العربي» المفترس والمخيف. فالأمر هنا لم يعد يتعلق بتوليفه، بل بمحاربته ومطاردته دون رحمة...

3-ميليرون، كريستين (2007). العمل البسيكولوجي ومسخ إنسانية الخصم في "العنف، التعذب والإستعمار: من أجل الذاكرة الجماعية". إشراف كلود ليوزو، ترجمة إبراهيم سعدي، دار القصبة للنشر، الجزائر، ص 902-232.

ولذا، فلم يكن غريبا أن يعتبر بعض الفرنسيين اجراءات مثل الطرد والمجازر وحتى الإبادة جد مهمة وضرورية لبلوغ الهدف المنشود، ألا وهو جعل الجزائر مستعمرة مستقرة غانمة. فكل شيء مسموح به لمواجهة البرابرة الذين يهددون الحضارة بالموت، لأنهم لا يتركون خيارا ثالثا : إما أن يموتوا هم، وإما أن تموت الحضارة» (ص 114-113).

وتشبيه الجزائري بالحيوان من طرف الدعاية الفرنسية ليس شيئا جديدا أو من ابداعات «المكتب الخامس» المتخصص في الحرب النفسية فقط بل هو تشبيه قد تم تداوله منذ الاحتلال؛ والدليل على ذلك قول الجنرال بيجو في وصفه العرب بأنهم حيوانات «تستاهل» أن تموت داخل الكهوف مخنوقة بالدخان مثل الثعالب (غرانميزون، ص 199).

وإلى جانب هذا، أفاض لوغرانميزون في إيراد أمثلة ووقائع عن المحرقات والمجازر الجماعية التي ارتكبها قادة فرنسا السياسيين والعسكريين بالجزائر عقب الاحتلال، ذاكرا التواريخ التي حدثت فيها والمصادر الفرنسية التي اقتبس منها هذه الأمثلة والشواهد. ويكفي أن نرجع في ذلك إلى ما ذكر ما بين صفحة 174 وصفحة 251. ولم يكتف الجيش الفرنسي بالتقتيل الجماعي بكل الوسائل بل مثّل بالموتى ليثير الرعب في نفوس الجزائريين، ولكي تكون الصدمة النفسية أشد وأمر. ولم يكن هذا التمثيل عملا فرديا منعزلا بل كان عملا شائعا حيث أكد ذلك لوغرانميزون بقوله : «نرى إذن كيف أن التمثيل بالموتي ليس فعلا مذنبا سريا يقوم به جندي ثارت ثائرته أو تغلبت عليه غرائز دموية، وقد يعرض مقترفه لعقوبة ما، بل كان من الممارسات الشائعة التي يعرفها اكل ويبتهج لها اكل على طول السلم العسكري، بل ويشجعها المسؤولون لأنهم يرونها حلا نافعا في الحرب على القبائل العربية» (ص198).

ومن الذين أشاروا إلى ما يحدثه التمثيل بالجثث من ترهيب وترويع للنفس البشرية على المستوى الفردي والجماعي، كما نقل ذلك لوغرانميزون، القائد العسكري مونتانياك الذي مثّل بالموتى بتمزيق جثثهم وقطع رؤوسهم حيث كتب في إحدى رسائله : «... فإن رأسا مقطوعة تسبب رعبا أكبر من موت خمسين شخصا»[4]. وكان من أهداف التمثيل بالإضافة إلى الترويع والترهيب، نزع صفة الإنسانية عن القتيل، فهو أصبح عديم الشخصية بما أن جثة من دون رأس شيء مجهول الهوية قبيح. فلا أحد يبكي عليه ويحزن لموته»[5].

وعن العواقب الوخيمة التي ترتبت عن الإحتلال ووحشيته وصدماته القاسية والقاصمة والجسد كتب أحد مؤيدي إبادة الشعب الجزائري وهو توكفيل ملاحظا أن وسائل الإبادة المتبعة قد « أردت المجتمع المسلم أكثر حرمانا وأكثر فوضى وجهلا ووحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» ![6]

وكأن الإبادة لشعب برمته شيء عادي بالنسبة للإحتلال مما دفع بغرانميز ون أي يجعل أحد عناوينه الفرعية هذا العنوان : «الإبادة أبسط طرق الإستعمار» !!(ص 240).

ومن عواقب الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى جانب حملات الإبادة للبشر، مصادرة الأملاك

4-المرجع نفسه ص 198

5-المرجع نفسه ص 201

6- توكفيل، تقرير حول مشروع القانون المتعلق بالقروض فوق العادة التي طلبت للجزائر (1847) ص 813 و820 .. مذكور في غرانميزون، ص 243.

الفردية والجماعية والأوقاف. وقد أورد غرانميزون نصا لأحد مؤيدي مصادرة أملاك الجزائريين وهو إرنست بيكار الذي قال عن الصدمة النفسية التي تخلفها عملية مصادرة الأراضي فرديا وجماعيا : «إن المصادرة تحدث أثرا كبيرا في أنفس الأهالي لأنهم يرون حقيقة أن الحكومة عازمة وقادرة على ضربهم في الصميم» (ص275).

ويكفي أن نذكر في هذه القراءة السريعة أن الاحتلال الفرنسي للجزائر قد أفرز إلى جانب الإبادة والاعتقال والتعذيب والحرق والترهيب ومصادرة الأملاك مؤسسات حكم وإدارة قائمة على التسلط والقهر والديكتاتورية وقمع جميع الحريات. وقد أشار غرانميزون لذلك بقوله : «ولدت الديكتاتورية العسكرية ثم المدنية في الجزائر الفرنسية من حرب وغزو، وترسخت بعدها لمقتضيات قيل إنها مصيرية لفعل الإحتلال والمسالمة، وهي تبدو في شكل سيطرة من نوع جديد يخرج عن الأطر السياسية والقانونية المعروفة» (ص290).

وقد أدت هذه الديكتاتورية المسلطة على الشعب الجزائري إلى حرمان هذا الأخير من أبسط حقوقه الإنسانية وحاجاته الأساسية. وقد أدت هذه الدكتاتورية إلى خضوع الشعب الجزائري لنظام استثنائي دائم وضعه في وضعية المغلوب المكرسة بأحكام متقنة قائمة على التمييز العنصري الذي جرد الشعب من كل حق (غرانميزون ص309).

إن هذا الكتاب جدير بأن يقرأ عدة قراءات كالقراءة التاريخية والقراءة السيكولوجية والقراءة السياسية. وبودي أن أشير إلى أن القراءة التي قدمتها قراءة مبتسرة وسريعة هدفها حث الباحثين النفسانيين وغيرهم لتقديم قراءات مختلفة لهذا الكتاب وغيره لتوثيق ما حدث للشعب الجزائري حتى لا تنسى الأجيال القادمة.

ورغم كل الجرائم الفرنسية المقترفة في الجزائر، والموثقة توثيقا دقيقا بأيدي جنرالات فرنسا نفسها وبأيدي مختلف ضباطها وكتابها ومؤرخيها كما أوردنا، ورغم ما تشهد به الأرقام والإحصاءات، وما تنطق به ومالا تنطق به الأجساد والقلوب والأكباد المعذبة ... فقد أصدرت الحكومة الفرنسية في فبراير 2005 قانونا ممجدا للاستعمار ... فيالها من صدمة جديدة للضمير الإنساني ... وياله من عار في تاريخ كل من يمجد الاحتلال والاستعمار !!.

ومهما حدث في الجزائر من كوارث طبيعية وغير طبيعية، وما تخلفه من دمار وصدمات، كالحروب الأهلية والزلازل والجراد والحرائق والفيضانات والأوبئة... فإن «وباء الاستعمار» يبقى أفتك الأوبئة، وإن «صدمة الاستعمار» تظل أخطر وأشد الصدمات !!.

وإن آثار هذا الوباء وجروح هذه الصدمة – التي هي أدهى كل الصدمات– العميقة والغائرة في الجسم والوجدان والروح ستبقى عبر الأجيال...، وسوف تبقى عبر التاريخ تغذي الذاكرة الجماعية والذاكرة الجمعية للجزائريين، كما تغذي وتشحن ذاكرة الجسد الممزق وذاكرة الوجدان المضطرب وذاكرة الروح الحائرة.

ولكن، ومهما تمزق الجسد واضطرب الوجدان وحارت الروح...فإن الإرادة الجمعية والجماعية أبت إلا أن تثور وتقوم للجهاد وتضحي بالنفس والنفيس لمدة سبع سنوات من 1954 إلى 1962...لتصبح الجزائر حرة مستقلة...ورغم الجراح العميقة...ورغم التضحيات العظيمة ورغم الصدمات الشديدة تبقى جزائر الشهداء... جزائر الأحرار صامدة !!.

عرض ونقد لكتاب الأدب الأوروبي من منظور الآخر[1]

تحرير: **د. فرانكا سينوبولي**

مراجعة: **أ.د. مجدي يوسف**

قراءة ونقد: **أ.د. عباس السوسوة**
جامعة تعز- اليمن

محررة الكتاب فرانكا سينوبولي إيطالية من مواليد 1965، محاضرة في الأدب المقارن بجامعة لاسابينزا في روما، وحاضرت في جامعة لوزان بسويسرا وسيدني باستراليا. اهتماماتها البحثية منصبة على الأدب المقارن من حيث هو منهج لدرس التفاعل بين الثقافات، وعلى الترجمة والتمازج بين الأنواع الأدبية المختلفة. من أهم مؤلفاتها: أسطورة الأدب الأوروبي 1999م.

مراجع الكتاب مجدي يوسف، باحث مصري له مؤلفات بست لغات أوروبية، منصبة على النقد المعرفي للمركزية الأوروبية في نظرية الأدب والثقافة، أفاد منها باحثون غربيون في مؤلفاتهم. أسس دراسات الأدب العربي الحديث في جامعة كولن 1965 وظل يحاضر ستة عشر عاما في الأدب المقارن والحضارة في جامعتي كولن وبوخوم. أسس في برلين الرابطة الدولة لدراسات التداخل الحضاري. من مؤلفاته بالعربية: التداخل الحضاري والاستقلال الفكري 1993، من التداخل إلى التفاعل الحضاري 2001، معارك نقدية 2003.

عرض لمحتوى الكتاب:

تتمحور الأبحاث التي كتبها ثمانية باحثون من أقطار مختلفة: إيطاليا والولايات المتحدة ومصر والهند والصين والمغرب والبرازيل وكوريا، حول إسقاط النموذج السائد في الدارسات الأدبية في الغرب، والمتمحور حول المعايير الأوربية، الرافض لأي شكل من القيمة المستقلة عن تلك المعايير في سائر الثقافات غير العربية، ناهيك عن أن يكون لتلك الثقافات ندية من أي نوع بازاء آداب الغرب وثقافاته. وتدحض هذه الدراسات الأسس الفلسفية التي تقوم عليها النظريات الداعية لوحدة مزعومة بين الآداب الأوربية، أو أوربية الأصل حتى تبرر ما صار يدعى (الأدب الأوربي) بصيغة المفرد، وهو المفهوم السائد في النظام التعليمي في البلاد الأوربية.

الكتاب في بابين يتناول أولهما تاريخ واسطورة الأدب الأوربي، فيعرض تطور هذه الصورة الذاتية للثقافات الأوربية من خلال طريقة تقديمها في الجامعات الأمريكية، ثم الدعوة للتخلص من النزعة الاستعمارية بالدعوة إلى أن تحل المنجزات الثقافية للشعوب غير الغربية محل (الأدب العالمي) الذي صار معادلا للآداب الغربية ومعه تلك التي تقيّم على أساس المعايير الغربية حتى تُعرَف بها وتصبح (عالمية). وتسعى دراسة مجدي يوسف

1- فرانكا سينوبولي، ترجمة جماعة من المؤلفين، مراجعة مجدي يوسف (2003). الأدب الأوروبي من منظور الآخر. دار النشر المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

- Franca Sinopoli (2003). La letteratura europea vista dagli altri. Matémi, Roma.

إلى تفنيد الأسس المعرفية الفلسفية للنظريات التي تبرر وجود ما يدعى (الأدب الأوربي) بالمفرد لا بالجمع – وتكشف التناقض المعرفي المنهجي في خطابات ادوارد سعيد ورينيه إتيامبل ومارتن برنال؛ فهؤلاء شديدو النقد للمركزية الأوربية في نظرية الأدب والثقافة، لكنهم يدرسونها بنفس الأسس الفيلولوجية. ويقترح وضع سياق الاستقبال على درجة واحدة من المساواة مع سياق الإرسال الثقافي، ويترتب على ذلك استخدام منهج ثقافي اجتماعي لتلك العلاقة، يشمل مجمل منجزات العلوم الاجتماعية.

وإليك عناوين الباب الأول:

- مسألة الهوية في تكوين أوربا – بيتر كارافيتا
- خرافة الأدب الأوربي – مجدي يوسف
- الأدب العالمي وأدب العوالم – أرماندو نيشي

أما الباب الثاني (سوء الفهم الثقافي) فعناوينه كما يلي:

- النسبية الثقافية والقيمة الأدبية – أميا ديف
- الاختلافات والالتباسات الثقافية – يو دا يون
- التقويم الثنائي – عبدالفتاح كيليطو
- اسهامات أمريكا اللاتينية في الأدب العالمي في القرن العشرين–روبرتو فرديناندیز رتيامار
- ضد النظريات الأوربية للرواية – شو دونج إيل

بعد ذلك تحدثت (المحررة) عن نصوص الكتاب وما نشر منها في إيطاليا من قبل وما لم ينشر. ثم كانت المراجع، والقراءات الإضافية، معززة بمواقع على الشابكة (انترنت) والروابط المتعلقة بالشبكة.

وقد صُنفت إلى الكتب التاريخية، المعاجم والموسوعات، دراسات في تاريخ الأدب، أدلة وخرائط للتاريخ الأدبي الأوربي والغربي، دراسات نقدية ومنتخبات أدبية ومقالات (أ) حول فكرة الأدب الأوربي (ب) حول فكرة أوربا والثقافة الأوربية (جـ) حول نقد المركزية الأوربية.

كل ذلك أوردها المترجمون والمُعدّ بعناوينها في لغاتها وترجماتها إلى العربية وهو أمر غير معهود يحمد لهم، ما عدا أنهم جاءوا بأسماء المؤلفين مجتزأة بحيث لا يبين للقارئ أنه قد ترجم لبعضهم أعمال إلى العربية من قبل. ومن ذلك.

- ص 269 البير، ر، م وهو البير ريس
- ص 271 تروبشكوى، صوابه تروبتسكوي
- فيزمات، دبليو ز ك، بروكس – صوابه ويمزات بروكس
- ص276 أمين، س. صوابه سمير أمين
- ص 278 دريدا، جيه. صوابه جاك دريدا
- ص 282 ايجلتون، ت. صوابه تيري إيجلتون

والكتاب ذو قيمة عظيمة سواء من حيث عرض وجهات نظر عالمية متعددة، أو من حيث إعطاء معلومات كانت خافية على القارئ الذي كان يسلم بوجهة نظر واحدة من قبل.

ولأن هذا العرض لا يغني عن قراءة الكتاب، فيكفي أن نشير إلى التنوع الثري للروايات الأمريكية اللاتينية بين عامي 1960– 1975 (نحو ثلاثين عنوانا) (انظر ص 227)، كما تذكر ص 228 نحو خمسين شاعرا.

بعض المآخذ عن الكتاب:

وبما أن هذا الكتاب – في صورته العربية – صار شركة بين كتّاب الأبحاث والمراجع والمترجمين فاننا نأخذ عليه ما يلي:

أولا: اعتماد المراجع على ذاكرته أوقعته في مزالق علمية يتورع عن الوقوع فيها الحصفاء.

ومن ذلك (الرقم الأول للصفحة والثاني للسطر و هـ للهامش):

ص 56 **هـ**1(**المراجع**)"حتى أن الإمام الغزالي كان يشرع أثناء إقامته في بغداد. حيث كان على رأس المدرسة النظامية فيها على نحو يختلف عن تشريعه أثناء إقامته في مصر".

قلت: 1. الغزالي لم يزر مصر إطلاقا.

2. المقصود الإمام محمد بن إدريس الشافعي ت 204هـ

3. لم تكن المدرسة النظامية ببغداد قد تأسست، إذ بينهما نحو ثلاثة قرون.

4. المقصود أن للشافعي مذهبا في بغداد يختلف إن قليلا أو كثيرا عن مذهبه عندما استوطن مصر.

ص 74 **هـ** 2 (**المراجع**) "يزعم أن فكرة القومية استوحاها نجيب محفوظ من فكرة القومية الألمانية في رواية توماس مان (آل بودنبروك)".

ولا نوافقه لا على الاستيحاء ولا – ضمنا – على تشابه الروايتين، إذ لا يجمع بينهما سوى أنهما من روايات الأجيال.

ص 142**هـ** 1"رينيه فيلك بالاشتراك مع أوستن وارن : نظرية الأدب، نيويورك 1942. أنظر كذلك ترجمته العربية التي قام بها إبراهيم سلامة".

قلت: بل ترجمة محيي الدين صبحي ومراجعة حسام الدين الخطيب.

ص 174 **هـ**"جعلوا اسماء كبار العلماء العرب من أمثال الفارابي وابن سينا الخ على لوحات الإعلانات".

قلت: هؤلاء مسلمون كتبوا بالعربية وليسوا عربا، فالفارابي تركي وابن سينا أوزبكي.

ومثل ذلك ما جاء عند الكاتب المغربي عبدالفتاح كيليطو، الذي عنده عقدة قرون.

ففي ص 169 يتحدث عن الهمداني (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي)، والصواب القرن الرابع الهجري=العاشر الميلادي، ذلك أن بديع الزمان متوفي عام

395هـ.

وفي ص 198 ذكر أن أبا نواس في القرن الثالث والمتنبي في الخامس! فزاد كل واحد علاوة قرنا كاملا، فالنواسي ت 197هـ وأبو الطيب ت 354هـ.

وفي ص 199 يذكر أن الخامس الهجري =13 الميلادي ! والصواب الحادي عشر.

وفي الصفحة نفسها يذكر الطهطاوي والشدياق في القرن الرابع عشر الهجري = العشرون الميلادي ! والصواب أنهما من القرن الثالث عشر الهجري=19 م، أما العشرون فلم يعيشا فيه يوما واحدا.

ثانيا: أخطاء من المراجع والمترجمين لعدم معرفتهم بالآداب الهندية القديمة:

ص 171**هـ** أميايف هو أستاذ الأدب المقارن بجامعة جادا فبور بكلكتا.

قلت: تنطق بوجهين: يادفبور وكادفبور بالجيم السامية.

ص 177 فالقصيدة الهندية القديمة ماهباراتا هي من نوع اتيهازا... قصيدة راميانا تنتمي إلى كايفا. (تكرر الخطأ).

قلت: صوابه إتيهاس (معناها التاريخ) و(كافيا) بتقديم الفاء المجهورة المثلثة على الياء، معناها (شِعر).

ص 178 ينقل المترجم حديث المؤلف عن ساكونتالا . أربع مرات. وصوابه شاكُنتَلا، بشين معجمة يليها الف مد، وكاف مضمومة ونون ساكنة، ثم تاء مثناة يليها فتحة، ثم لا.

أقول: شاكنتلا بالهندية وهي بالسَنسكريتية شاكنتَلَم.

وفي هامش الصفحة أنه العمل المسرحي الذي أبدعه الشاعر الهندي كاليداسا.

صوابه: كاليداس

وفيه أن ساكونتالا (صوابه شاكنتلم) اسم بطلة المسرحية التي تدور في البلاط، وتحكي حكاية اسطورية

بخلفية رومانسية عن الحب الذي يكثفه وينضجه العداء. ساكونتالا (؟) خادمة تزوجت من الملك الذي يسحرون له حتى ينسى عروسه حتى (هكذا) يجد خاتمها في بطن سمكة (المترجم)

قلت: للأسف كل هذا خطأ. والصواب أن شاكنتلم بنت جميلة لكاهن يعيش مع أسرته في الغابة وذات يوم ذهب الملك دوشيانث للصيد في الغابة، فرأى هذه البنت واحبها، وتزوجا منفردين، وأعطاها الملك خاتمه قائلا لها : عندما تأتين إلى مملكتي هاتي معك هذا الخاتم حتى أتعرف عليك. عاد دوشيانت إلى مملكته، بعد مدة أحست شاكنتلم بحركة الجنين في بطنها، فسافرت في قارب غرق في النهر، وسقط الخاتم من أصبعها لتبتلعه سمكة. عندما وصلت إلى المملكة لم يستطع الملك التعرف عليها وطردها. وحدث أن صيادا اصطاد

تلك السمكة ووجد الخاتم في بطنها، فأسرع وسلمه للملك، وبه تعرف على شاكنتلم التي ولدت له بهارَ ت (= الهند).

ص184 هـ1، ما يكل مادهاسودان دوت. صوابه مايكل مدهاسودَن دَت. هو مؤلف عمل ملحمي بعنوان (اغتيال ميغاناد)

صوابه: اغتيال ميكَناد.

ثالثا: كتابة الأعلام والعناوين أحيانا على غير ما ألفه القارئ العربي. ومن ذلك :

38-5 فمع انتصار كارلو مارتيللو في بواتييه

صوابه: شارل مارتل

69 -11 عرف تشابود chabod

صوابه: شابو بغيردال. وتكرر في ص 94.

13-97 نظرية الأدب لرينيه فيلك بالاشتراك مع أوستن وارن.

قلت: ذاك هو اسمه بالتشيكية، اما المعروف به فهو بالواو ويلك. منذ ترجم كتابه محيي الدين صبحي. لم يختلف في ذلك اثنين وتكرر في ص 98، 102، 104، 130 ، 142، 147 على سبيل المثال.

115 - 15 إيبوليت تين.

قلت: هذا بالنطق الفرنسي غير ان المألوف كتابته بالعربية : هيبوليت.

151 هـ 4 مما جعل شارل دوجول .

المعتاد ديجول أو ديغول بنسبة أقل.

295 التقويم الثنائي – عبدالفتاح كليتو. وفي الهامش كليطو.

قلت: في عناوين كتبه وابحاثه كيليطو، بياءي مدّ.

227- 11 مئة عام من الوحدة

صوابه: مئة عام من العزلة.

رابعا: أخطاء نحوية ومعجمية، أهمها:

27-6 الحكمة السادسة والخمسين بعد المئتين

صوابه: والخمسون

53 - 3 اصبحوا هم الآخرون

صوابه: الآخرين

57- 16 في السنوات العشر أو الخمسة عشرة الأخيرة

صوابه: الخمس عشرة

72 هـ س 3 من أسفل. إن لم يكن فاشي

صوابه: فاشيّا

109- 3 من أسفل .وإني لأحدد هنا عن قصد كتابا المان ونمسويين

صوابه: ألمانا

153 - هـ 7 . ولد..... عن أسرة موسرة... مما أدر عليه أموال طائلة.

صوابه: ولد في أسرة موسرة... مما دّر عليه أموالاً طائلة.

156 سوى نذر قليل.

صوابه: نزر (مثلها ص 223)

3-172 تم إجراؤها مع قافلة من غرب أفريقيا

صوابه: قبيلة

201 هـ حي شفابنح بميونيخ.

صوابه: شفاينج

206- 4 ونقرأ (المنجد)للغزالي من خلال رؤية واعية لديكارت.

صوابه: (المنقذ من الضلال)

3-209 خوسيه انريك رودو Jose Henque Rodo

صوابه: Henrique

2-223 ان روسيا والولايات المتحدة لم تتم حتى الإشارة إليهم.

صوابه: إليهما

ولم نذكر ما كان خطأ طباعيا يسهل التعرف عليه ورده إلى الأصل.

لكن كل هذا لا يقلل من أهمية الكتاب ولا من جهود المترجمين والمراجع.

تقـــاريـــر

تقرير حول الملتقى الدولي الثالث عشر للرواية «عبد الحميد بن هدوقة»

بتاريخ: 14 - 16 ديسمبر 2010

ببرج بوعريريج - الجزائر

أ.د. الشريف مريبعي

جامعة الجزائر2

انعقد الملتقى الدولي الثالث عشر للرواية «عبد الحميد بن هدوقة» بمدينة برج بوعريريج من 14 إلى 16 ديسمبر 2010، وقد حضر الملتقى جمع غفير من الطلبة والباحثين والمبدعين أمثال مرزاق بقطاش وجيلالي خلاص ولحبيب السايح والسعيد بوطاجين وحسين أبو النجا وحميده العياشي ومولود عاشور بالإضافة إلى وجوه إعلامية وأكاديمية مثل عبد العزيز بوباكير وعبد الحميد بورايو÷واحسن بشاني والشريف مريبعي وعبد القادر شرشار وغيرهم. كما حضر الملتقى أدباء وأكاديميون من روسيا وتونس وسوريا واليمن. وقد دارت أشغال الملتقى حول خمسة محاور هي :

1. الإنتاج الأدبي والفني لعبد الحميد بن هدوقة (الرواية، القصة القصيرة، المسرحية، الشعر، المسرحية، التأليف في الأمثال، الترجمة الأدبية، الإنتاج السمعي البصري حول ابن هدوقة).
2. الرواية الفلسطينية ونقدها (الموضوعات، الجماليات، صورة الأنا والآخر).
3. الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية ونقدها (المحتوى، النشأة والتطور، الجماليات، الأعلام).
4. الأدب الروائي لمولود عاشور (المحتوى، البنية، التعالقات النصية، الخ..)
5. شهادات لكتاب الرواية العربية.

ففي هذه المحاور أُلقي ما يربو عن عشرين محاضرة منها محاضرة الأستاذ محمد آيت ميهوب من تونس بعنوان «عبد الحميد بن هدوقة مترجما» استعرض فيها الأعمال الأدبية التي قام الأديب عبد الحميد بن هدوقة بترجمتها إلى اللغة العربية من عدة لغات وخاصة اللغة الروسية معتمدا على اللغة الفرنسية كلغة وسيطة، كما حلل مفهوم الترجمة وأهدافها وغاياتها عند الروائي عبد الحميد بن هدوقة، وبين خصائصها ومميزاتها.

أما الأستاذ محمد الأمين بحري فكان عنوان محاضرته هو «محفل الرومانسك عند عبد الحميد بن هدوقة : دراسة أنثروبولوجية لدلالات الصدام الحضاري بين الريف والمدينة»، وقد لاحظ بأن المنجز السردي لعبد الحميد بن هدوقة كان مثقلا ليس فقط بالدلالات والمعاني المستقاة مما حكته مدنه وأريافه، نساؤه ورجاله، شعبه ومعتقداته، بل إن ذلك

الموروث الحضاري والثقافي قد انتظم في صورة جملة من الفنون الأدبية المنتشرة في قصصه ورواياته. بل إن القارئ يمكن أن يجد أكثر من جنس أدبي في قصة واحدة أو رواية. إنه محفل الرومانسك الذي وصفه جاك دريدا بعبارة : (La dissimilation des genres littéraires) أي ذلك التنوع الفني الحاصل داخل الجنس الأدبي الواحد.

كما بين الباحث بأن هذا الاكتناز الدلالي الحاصل في نصوص عبد الحميد بن هدوقة هو نتاج استراتيجية بليغة الأثر تقوم على الزج بالريف بكل بساطته وسذاجته وحميميته في معترك المدينة بكل زحمتها، وتناقضها وفجورها. وهو ما من شأنه أن يحدث تصدعا في مسرح الأحداث تنبجس منها سيول من الهواجس الشاعرية، وانطباعات مشحونة بالأمثال، ومؤانسات تعبق بحكايات شعبية أسطورية وخرافية، ونوبات جنون تحت وطأة الصدام الحضاري تأخذ من كل حديث بطرف. إنها محنة الرومانسك في تشكله، ومحفله المثقل بآمال وآلام أمة يناقض ريفها مدينتها، ولكلٍ منهما حضارة وثقافة وأناس تعلموا عادات قسرية من هذا المقام وذاك.

وفي هذا المحور الأول ألقى الأستاذ صلاح صالح من سوريا مداخلة موضوعها المدينة الجزائرية في الرواية، حيث أبرز تواضع المظهر المعماري للجزائر انطلاقا من دلالات سرد الكتاب الذين خلعوا عليها صفات العهر والقمامة والأحمرة في معظم الروايات التي استدل بها، وخلص إلى أن الأدباء سردوا مدنا منبوذة مع ممارستهم للحنين إلى باريس وجعلها مرجعا.

وفي هذا المحور أيضا قدم الأستاذ أحمد بقار مداخلة بعنوان المتعاليات النصية (التناص والمناص) في رواية الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة، وبين المتدخل بأن من أوجه التناص التي نصادفها في هذه الرواية القرآن الكريم، حيث استشهد «بن هدوقة» في روايته بآية واحدة، وجاءت على لسان الطيب الشاب السجين، وأجراها بعد أن شابهت حالته تماما، ولقد وردت بين مزدوجين وبخط محجم : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)، ولقد جاء بها الراوي ليضفي على نصه مسحة دينية. وإذا ذهبنا إلى السرقات (الاقتراض) سنجد ما لا حصر له من الاقتراضات من القرآن الكريم، وهذا يعطينا انطباعا أننا في الدشرة حيث تكثر الكتاتيب لتعليم القرآن الكريم. كما وظف الأمثال، ولقد أورد صاحب الرواية أمثالا شعبية ولكنها بلغة فصيحة، وأخرى من التراث العربي القديم، وفي ما يلي الأمثال التي ساقها في روايته:

- «الملح ما يدود وساقته الجازية لتعبر عن وفائها للطيب السجين، وإظهار وفاء المرأة الريفية، وتناصها من التراث العربي «من يصلح الملح إذا الملح فسد».
- «الشجرة لا تهرب من عروقها» وساقه تبيانا لارتباط الأخضر الجبايلي وزوجته بالدشرة، وتناصها من التراث الشعبي «الشجرة الخارجة من عروقها مذبالة».
- «ماء الجبل ما يسيل إلى أعلى» وهي قيمة واقعية حملها هذا المثل في الرواية، ويبين احتكاك الريفي بأرضه.

أما الأستاذ ديمتري ميكولسكي من روسيا ففضل أن يلقي محاضرة عن ترجمة أعمال الروائي المرحوم الطاهر وطار إلى اللغة الروسية، مبرزا ماتمت ترجمته من تلك الأعمال، والدوافع التي وقفت وراء ذالك المجهود الثقافي المتميز، محددا أهم المترجمين الذين تلقوا الأدب السردي الجزائري وترجموه بشغف إلى اللغة الروسية، وعلى رأسهم العالمة

«أولغا فلاسوفا» التي كان لها اليد الطولى في تعريف القارئ الروسي بالأدب السردي الجزائري. كما بين الأستاذ ديميتري ميكولسكي بأنه بسبب ميول الطاهر وطار السياسيّة اليساريّة كان من الأدباء العرب المرحّب بهم في الاتّحاد السوفياتيّ الأسبق. وفعلا، وهو ما أكدته السيّدة المحترمة ألغا فلاسوفا المعروفة في الجزائر وفي سائر بلدان المغرب العربيّ، والتّي كانت آنذاك تتولّى منصب المستشارة في الأدب العربيّ المغاربيّ في اللجنة الخارجيّة لاتّحاد الأدباء السوفيات.

أما بالنسبة إلى المحور الثاني فكان من أهم المداخلات التي ألقيت فيه مداخلة الأستاذ عبد القادر شرشار بعنوان سؤال الهوية وإشكالية علاقة التاريخ بالأدب في رواية «بعيدا عن المدينة المنورة» لآسيا جبار، وقد أبرز بأن إشكالية العلاقة بين التاريخ والأدب عند آسيا جبار تُطرح بشكل أكثر تعقيدا مع ظهور رواية «بعيدا عن المدينة المنورة»، فالكتابة باللغة الفرنسية، تشكل وحدها بُعدا إيحائيا استفزازيا لمشروع آسيا جبار، يتعلق الأمر ها هنا بالكتابة بلغة الآخر في حقل معرفي يكتسب شرعيته العلمية، ومصداقيته التاريخية من مرجعيته العربية، لغة القرآن، مرجعية تاريخية لا يرقى إليها الشك في نظر الكثيرين، تحرّى في جمعها وتدوينها الرواة والمؤرخون أساليب علمية-الإسناد- غاية في الدقة، إلا أن ذلك لم يمنع آسيا جبار من إيجاد ثغرات، تسللت عبرها، لا حبا في التشكيك، ولكنها كانت فرصة لإضافة أحداث لم يجرؤ المؤرخون الأوائل على ذكرها،وسعفها الخيال الإبداعي، وتداعيات التفكير المعاصر حول القضايا التراثية لملء فراغات النصوص التاريخية بها. إنه الحق الذي تمنحه صفة الأدبية، وتلغيه تعاليم التاريخ وضوابطه العلمية والموضوعية.

ثمة إذن ما أخفته أقلام المؤرخين والرواة، وما حجمته الأحدوثة : قدر الأنثى ورغبتها الدائمة في أن تكون كما أرادت، مقاتلة، شاعرة، راوية، مغنية، راهبة أو طالبة إرث. إنه خطاب الرفض والتمرد على حراس النوايا الذي يتناوب أكثر من ثلاثين صوت امرأة على الجهر به عبر 350 صفحة.

وفي السياق ذاته قدمت الأستاذة جمعة طيبي من جامعة تبسة مداخلة بعنوان البنية الموضوعاتية في رواية (سأهبك غزالة) لمالك حداد، وقد بينت بأنه على غير ما تعودنا عليه في الروايات الجزائرية من مضامين اجتماعية سياسية وحضارية... فقد أبى مالك حداد إلا أن يعالج موضوعا آخر يندر أن نجده في الأعمال الأدبية الأخرى، ويطرح انشغالا مختلفا تماما عما ألفناه، ويتمثل في معالجته قضية الإنتاج الأدبي وقضاياه، ابتداء من البحث عن ناشر للرواية إلى كيفية استقبالها من طرف القراء. وقد سجل مالك حداد بذلك سبقا أدبيا وقام بتجديد حقيقي في زمانه على مستوى موضوع الرواية المتمثل في (إنتاج العمل الأدبي وكيفية استقباله، وأثر الاستقبال والتلقي على مستقبل الأديب).

أما محور الرواية الفلسطينية فكان من موضوعاته ما قدمه الأستاذ محمد السعيد بن سعد بخصوص دلالات العنوان في رواية «لاجئة» لسحر الرملاوي، وبهذا الصدد بين الأستاذ أن اللافت للنظر في هذه الرواية هو أن العنوان «لاجئة» يستمر في الظهور من بداية الرواية إلى نهايتها، لكنه يمتنع عن البوح بمكنوناته، ذلك أنه يشكل فاتحة نصية، والنص مستودع معان، بحيث يصنع لنفسه آفاقا متعددة من التوقعات، دون أن ينتهي إلى معنى بعينه، على الرغم من أنه يمكن أن نرصد دلالات متناثرة كالغربة والسراب والملكية والانتماء والبيت والوطن وغيرها من الدلالات المبثوثة في سطور الرواية. بهذا لاحظ الأستاذ المحاضر أن العنوان يثير أسئلة متعددة، قادرة على تجاوز الفلسطيني من خلال الواقع الراهن. وحاول من

كل هذا السعي إلى تعيين تموضعات العنوان في النص وكشف مختلف الدلالات المكنونة في المفرد والتركيب، وهل وفقت الكاتبة بتموقعات عنوانها في النهوض بوظائف مرجعية؛ لغوية وتأثيرية وأيقونية.

أما الأستاذ حسين أبو النجا فكان بحثه متعلقا بالوظيفة الاجتماعية للمكان في الرواية الفلسطينية متخذا من رواية عائد إلى حيفا لغسان كنفاني أنموذجا، وقد لاحظ الباحث أن رواية عائد إلى حيفا لغسان كنفاني تعتبر واحدة من الروايات الفلسطينية القليلة التي يفرض فيها المكان نفسه من خلال العنوان، ومن هنا فان المكان يستمد قيمته من نظام النص الذي ينتمي إليه». ومعنى هذا أن المكان هو الذي يحدد الهوية وتدور حوله الدلالات والمعاني المختلفة كما يقول هنري ميتيران من خلال «إدراجه في سياق محدد».

وأضاف الباحث بأن أول ما يلفت النظر في المكان ان حيفا ليست مكانا عابرا في حياة صفية، وإنما هي مستقرة في وجدانه لا تتزحزح ولو قيد أنملة، تتذكر التفاصيل الدقيقة للغاية دون أي خطأ على الرغم من مرور عشرين عاما، وعلى الرغم من كل التحولات الاجتماعية والسياسية التي ما فتئت تتوالى خلال العشرين عاما التي تحدثت عنها الرواية، ومن البديهي انه ستترك «أثرها على المكان»، و«تتضمن معان عديدة».

إن أهمية المكان في عائد إلى حيفا تكمن في الخروج من حالة الاندهاش إلى الوعي التدريجي، فالمتتبع يمكن أن يلاحظ بسهولة أن سعيدا س يتحول كلما تطور الحدث من حالة إلى حالة وهو يجابه المكان الذي يحيل عليه عنوان الرواية»، وان الوعي يتدرج في كل مرحلة نتيجة لـ «حسه المكاني» إلى أن يصل إلى النضج عندما يتمنيان أن يكون ابنهما خالد قد التحق بالكفاح المسلح،مما يؤكد أن ما حدث في حيفا «في غياب الفضاء الوطني قد أحدث نقلة نوعية في درجة الوعي السياسي والاجتماعي معا. وإذا كانت المدينة بعامة هي المكان الذي تلتقي فيه الأعراق المختلفة فإنه في عائد إلى حيفا ملتقى يشمل الأعداء، ومن هنا فإنه يخلق مجاورات جديدة تتكشف عن لوحة للعالم مشبعة بضرورة داخلية حقيقية».

وفي اليوم الثالث للملتقى استمع الحضور إلى شهادات الروائيين هند هيثم من اليمن ومحمد آيت ميهوب من تونس، وجيلالي خلاص ولحبيب السايح والسعيد بوطاجين، حيث استعرض كل منهم تجربته في حقل الإبداع الروائي، وتبع ذلك نقاش مثمر شارك فيه الطلبة والأساتذة.

وفي هذا اليوم أيضا تم تكريم الكاتب الجزائري مولود عاشور الذي يعد من بين الأدباء المعبرين باللغة الفرنسية، وتمتاز كتابته بنزعة واقعية يعالج فيها مواضيع مقتبسة من الواقع الحي، حيث أصدر عديد المؤلفات نذكر منها «ما وراء الأفق» و «ريح الشمال » و«أيام القلق»، وقد ترجم الأستاذ أحمد منور إلى العربية إحدى رواياته بعنوان «آخر موسم للعنب».÷÷

كما وزعت الجوائز على الفائزين في مسابقتي القصة القصيرة والشعر.

بورتريه عبد الحميد بن هدوقة

إعداد : أ.د عبد القادر بوزيدة
جامعة الجزائر2

1. النشأة والمسار:

ولد الأديب عبد الحميد بن هدوقة في 09 جانفي سنة 1925 في بلدة المنصورة. قضى طفولته في تلك المنطقة القروية. تلقّى تعليما تقليديا على يدي والده، ثم تعلّم مبادئ اللغة العربية في المدرسة الابتدائية. حصل على تكوين مهني تقني في المؤسسة الفرنسية. وتابع دراسته في مدارس جمعية العلماء بقسنطينة. وابتداء من 1950، واصل دراسته في المؤسسة التعليمية الحديثة المزدوجة اللغة بتونس؛ والتحق في الوقت نفسه بمعهد الفن الدرامي؛ ثم أصبح مدرّسا للأدب العربي بين 1954-1955. ساهمت كل هذه الروافد، كما يقول أ.د. عبد الحميد بورايو، في تمكينه من «الأدوات الثقافية التي أهّلته لأن يمرّ إلى مرحلة العطاء والمساهمة الفعالة في تشكيل الوعي الثقافي». لاحقته الشرطة الاستعمارية بسبب مشاركته، في وقت مبكر، في الحركة الوطنية، فسافر إلى فرنسا في نهاية 1955واستقرّ بها عامين تقلّب خلالها بين مهن مختلفة، وعرف أنواعا من الصعوبات والحرمان؛ ومرض مرضا أقعده عن العمل واتجه إلى نوع آخر من النشاط أي العمل الصحفي والتأليف.

2. الإنتاج الأدبي والفكري:

بدأ عبد الحميد بن هدوقة يكتب نصوصا مسرحية متميزة مع ترحاله إلى تونس في 1958. حيث كتب نصوصا مسرحية وقصصا للأطفال للإذاعة التونسية، ومقالات لصحف جبهة التحرير الوطني، ونشر عددا من القصص في المجلات والجرائد التي كانت تصدر بتونس. صدرت له في1999 مجموعة دراسات في كتاب يحمل عنوان : «بين الأمس واليوم» نشرته وزارة الأخبار في الحكومة الجزائرية المؤقتة؛ ثم مجموعتان قصصيتان : ظلال جزائرية (1960)والأشعة السبعة (1962). في 1962، عاد عبد الحميد بن هدوقة إلى أرض الوطن وساهم مع إطارات جزائرية أخرى في تعويض الطاقم الفرنسي (المنسحب)، في الإذاعات الجزائرية الناشئة، وقد ساعده في ذلك تعامله مع الإذاعة التونسية خلال إقامته بهذا البلد.

ثم توالت أعماله الإبداعية دون توقف، وكتب في أجناس مختلفة: كتب أعمالا مسرحية للإذاعة والتلفزيون، ونشر مجموعة قصصية «الكاتب وقصص أخرى» (1972) وديوانا شعريا «الأرواح الشاغرة» (1967). **ولكن الإنتاج الإبداعي الذي اشتهر به وترك أثره الكبير في الحركة الأدبية الجزائرية اليافعة هو الإنتاج الروائي** : فقد صدرت له رواية «ريح الجنوب» التي مثلت الصراع الدائر في الريف في الجزائر الجديدة بين قوى الاستغلال والتخلف وقوى التحرر والتقدم؛ ومثّل صدورها حدثا هاما في الساحة الأدبية الجزائرية. فقد عدّها النقاد فتحا جديدا باعتبارها أول رواية جزائرية باللغة العربية. ثم توالت أعماله الروائية،

فصدرت له رواية «نهاية الأمس» في 1975، ثم رواية «بان الصبح» في 1980، ثم رواية «الجازية والدراويش» في 1985 التي شكّلت نقلة نوعية، مع رواية الطاهر وطار «الحوات والقصر» في مسار الرواية الجزائرية المعاصرة. وقد امتدّ نشاط عبد الحميد بن هدوقة إلى مجال الترجمة، فترجم «قصص من الأدب العالمي»التي صدرت في 1983، ثم مسرحية من الأدب السوفياتي في 1986تحت عنوان : قصة من ايركوتسك. كما ترجم من الفرنسية دراسة لجاك فيرجيس تحمل عنوان : «دفاع عن الفدائيين». ونشر قصة للأطفال في 1985 تحت عنوان «النسر والعقاب» وهو الذي كان يكتب عديد النصوص للأطفال في الإذاعة التونسية. وبعد ذلك، أصدر مؤلفه الرائد عن «الأمثال الجزائرية» في 1993.

أصبح هو والمرحوم الطاهر وطار يمثلان بلا منازع الجيل المؤسس للرواية الجزائرية باللغة العربية. وقد ترجم العديد من أعماله إلى لغات مختلفة وخاصة «ريح الجنوب» التي ترجمت إلى الفرنسية والألمانية والهولندية والإسبانية والبولندية والسلوفينية والروسية والصينية والصربية والتشيكية.

لكن انصراف عبد الحميد بن هدوقة إلى النشاط الإبداعي الأدبي الذي بوّأه مرتبة خاصة في الساحة الأدبية الجزائرية لم يصرفه عن قضايا مجتمعه، فكما انخرط في بداية حياته في الحركة الوطنية شارك في مرحلة الاستقلال بنشاط في الحياة الثقافية الاجتماعية : فقد ظلّ لفترة رئيسا للجنة القراءة في الإذاعة الوطنية، وعيّن في نهاية الثمانينيات من القرن الماضي على رأس مجلس الثقافة فعمل على توفير إمكانيات مالية لاتحاد الكتاب الجزائريين ولمجلته «المساءلة»؛ وقد ساهم مع عديد الكتاب والمثقفين في محاولة تنشيط إتحاد الكتاب الجزائريين. ثم عُيّن على رأس المؤسسة الوطنية للكِتاب.

إن نشاطات ومسؤوليات عبد الحميد بن هدوقة كلها مرتبطة بالحقل الثقافي والأدبي. وقد كان يمكن، وهو الذي عرف كبار المسؤولين إبّان الثورة وفي مرحلة الاستقلال، أن يتبوّأ مناصب عالية في الدولة، لكن تواضعه الجم، كما قال أ.د عبد الحميد بورايو، و«حرصه على موقعه كمثقف حر»؛ جعله لم يقبل بتقلّد مسؤولية سياسية عليا إلاّ بعد انتفاضة 1988 وبعد الأحداث الخطيرة التي عرفتها الجزائر. حيث تقلّد مسؤولية عليا «نائب رئيس المجلس الاستشاري» في عهدة الرئيس الراحل محمد بوضياف، إذ كان يومها يمكن أن يُعرّض صاحبه لشتّى أنواع المخاطر.

في 1996، توفي عبد الحميد بن هدوقة بعد صراع مرير مع المرض، لكنه ظلّ معلما من معالم الحركة الأدبية والثقافية في الجزائر الحديثة وظلّ حاضرا في ذاكرة أصدقائه وشعبه.

تقرير حول مؤتمر التضامن العربي الإفريقي الأول

بتاريخ 27-28نوفمبر2010

بالخرطوم - السودان

د. نويصر مصطفى
جامعة الجزائر2

اتفقت اللجنة العليا لمؤتمر تضامن الشعوب العربية الإفريقية بالتعاون مع المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن وجامعة إفريقيا العالمية على إقامة مؤتمر تحت عنوان «المؤتمر الشعبي العربي- الإفريقي» الأول.

افتتح المؤتمر على الساعة التاسعة من صباح يوم 26-11-2010 في العاصمة السودانية – الخرطوم بحضور أكثر من 100 شخصية سياسية وبرلمانية وثقافية ونقابية واجتماعية عربية وافريقية بالإضافة إلى عدد كبير من المشاركين السودانيين العرب والافارقة لا سيما طلبة واساتذة جامعة افريقيا العالمية.

افتتح المؤتمر رئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر الدكتور قطبي المهدي بكلمة استعرض فيها توقيته في أنه يشبه بأجوائه مؤتمر الشعوب الإفريقية الأسيوية في باندونغ 1955، حيث هيمنت الامبريالية الغربية على الادارة السياسية للشعوب المستعمرة ومن ثم على اقتصادياتها.

تم طرح سؤال لماذا بعد خمسين سنة من الاستقلال السياسي والحرية لم تتم التنمية ولم يتحقق التقدم. وخلص إلى أن المطلوب من هذا اللقاء التاريخي هو أن يبحث في التحديات التي تواجه الشعوب العربية والإفريقية وتعيق تطلعاتها للحرية السياسية والتقدم الاقتصادي. كما حمّل المؤتمر في أن يبحث في آليات التضامن والتواصل التي تدعم نضالات الشعوب في سبيل تحقيق اهدافها.

ثم القى بعده رئيس المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن الاستاذ معن بشّور كلمة استعرض فيها الكفاح المشترك بين العرب والافارقة حيث اشار الى ان ما يجمعنا ليس الآلام وحدها بل المستقبل ايضاً. وحين يجتمع العرب والافارقة ومعهم شعوب آسيا وامريكا اللاتينية واحرار اوروبا وامريكا من اجل الاستقلال والوحدة والعدالة والتقدم؛ فإن قوى الهيمنة والاحتكار والاستقلال والعنصرية تزول حتماً.

من هنا نفهم اصرار الاستعمار المتواصل على اقامة الحواجز بين العرب والافارقة كما بين الافارقة انفسهم والعرب انفسهم، واشار الى ان اجتماعنا في السودان يهدف الى ان يبقى جسرا للتواصل بين العرب والافارقة مستمرا من خلال السودان الذي يعتز بعروبته وافريقيته، وبعقيدته السمحة كما يعتز بتنوعه الغني.

أما كلمة المشاركين فألقاها البروفسور في التاريخ لابيسو غيتهار شليمو (اثيوبيا) حيث تكلم عن عمق العلاقة بين العرب وافريقيا ورجع في ذلك إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والهجرة الأولى مشيراً الى ان العلاقة قامت بين دولة عظيمة هي اثيوبيا ورسالة عظيمة هي الإسلام. وبعد استعراضه لتطور العلاقات العربية-الإفريقية على الصعيد التجاري والاقتصادي قال : أن المستقبل يتطلب علاقات وثيقة على كل الأصعدة لمواجهة التحديات المعاصرة.

وتوزعت جلسات الحوار على محاور اربعة هي:

الجلسة الاولى:

تناولت العلاقات العربية الافريقية. ترأست هذه الجلسة د. رمزية الارياني-اليمن، وتحدث فيها كل من:

- أ. حسن مكي – السودان
- د. مالك انجابي – السنغال
- د. نشأت الخطيب – لبنان
- أ. كمارا عباس – غينيا
- د. محمد بن عاشور – مصر

الجلسة الثانية:

تناولت عناصر القوة في التكامل الاستراتيجي والاقتصادي الافريقي العربي وترأسها الاستاذ مامادو ناما (بوركينافاسو) وتحدث فيها كل من:

- د. عبد الرحيم حمدي – السودان
- د. ساسين عساف – لبنان
- أ. بونا ملوال – السودان
- أ. سليمان شنين – الجزائر

الجلسة الثالثة:

تناولت الدور الصهيوني والامبريالي في افريقيا والوطن العربي وترأسها الأمين العام للمؤتمر القومي العربي أ. عبد القادر غوقة (ليبيا) وتحدث فيها كل من:

- د. فيروز عثمان – جنوب افريقيا
- د. صمبو بكري – السنغال
- د. عبد المنعم ابو الفتوح – مصر
- د. ماهر الطاهر – فلسطين
- أ. عبد الاله المنصوري – المغرب
- د. خضير المرشدي – العراق
- أ. محمد احمد بحر – فلسطين

الجلسة الرابعة:

تناولت النظام الدولي والعدالة الدولية ترأسها رئيس اللجنة التحضيرية للحملة القانونية الدولية لملاحقة مجرمي الحرب في فلسطين والعراق. ترأسها أ. خالد السفياني –المغرب، وتحدث فيها كل من:

- أ. لؤي ديب – النرويج
- أ. بدرية سليمان – السودان
- أ. بشرى الخليل – لبنان
- أ. دفع الله الحاج يوسف – السودان

وسلط المؤتمر الضوء على تاريخ العلاقات العربية – الأفريقية منذ ما قبل الاسلام وبعده وواقعها ومستقبلها على مختلف الصعد السياسية والاقتصادية والثقافية والحضارية، وتعرض إلى ما تعانيه نفس العلاقات من ركود ليس له ما يبرره إلاّ الرضوخ لإرادة الاستعمار، كما بين الانعكاسات الايجابية لتطويرها على الطرفين العربي والافريقي بإتجاه دعم وتأييد القضايا العربية خاصة قضيتهم المركزية فلسطين والقضايا الإفريقية.

وأكد المؤتمر في اعلان الخرطوم على عمق الروابط التالريخية والثقافية والحضارية التي تشكل مرتكزات للحوار العربي الافريقي. ومن ثم التأكيد على العمل العربي الافريقي المشترك في مواجهة العنصرية وكل اشكال الهيمنة والاستغلال والعدوان والتدخلات الخارجية بالشؤون الداخلية للبلدان. كما اكد المؤتمر على اهمية تكثيف الجهود الافرو–عربية وتعزيز التواصل على مختلف المستويات بهدف الوصول الى صيغ افضل للتعاون بين الجانبين بما يخدم قضايا الحرية والعدل والسلام في بلدان العالم العربي والبلدان الإفريقية والعالم.

الملخصـــات بالفرنسية

RÉSUMÉS

La Plume÷et Le Sabre: Ibn Khaldûn et la problématique de la guerre

Pr. Atteriki F.
Université de Tunisie

Dans cette étude, nous avançons des éclaircissements sur l'idée de la guerre dans la Muqqaddima d'Ibn Khaldûn et ses façons de se manifester dans le pouvoir et la gouvernance. Nous pouvons dégager trois points essentiels afin de comprendre la théorie de la guerre chez Ibn Khaldûn.

- *le 1er÷point met en lumière l'assujettissement de ce phénomène à la pratique politique.*
- *Le 2ème÷point concerne la stratégie de la guerre et met en exergue les trois types de combat, à travers trois formes : primo, marcher sur l'ennemi en lignes et mener de l'offensif jusqu'à son anéantissement. Secundo, le combat par attaque et retraite, cette forme est celle des berbères arabes, elle repose sur la mobilité continue: l'attaque, la défense et la fuite. Tertio, la mobilisation ou les armées sont divisées en groupes selon l'ordre naturel des quatre directions.*
- *Le troisième point s'intéresse à la finalité de la guerre, à savoir÷: la victoire ou la stratégie de triompher.*

Ainsi, pour la 1ère÷fois, la pensée arabe et islamique avec Ibn Khaldûn s'éloigne des conseils en guerre, et ne se limite pas aux récits et aux descriptions des batailles et des conquêtes. Bien que nous ne trouvions pas dans son œuvre une reconnaissance de l'autonomie de cette science, mais il y a cependant une tentative sérieuse de théorisation et d'abstraction.

***Mots-Clés**: Guerre, pouvoir, gouvernance, bataille, civilisation, société.*

Les performances internationales en mathématiques, sciences et en intelligence: des enseignements pour les pays arabes

Pr. Khalifa O. H.
Université de Khartoum–Soudan

Cette étude aborde le thème des performances en mathématiques et en sciences dans les pays de l'Asie du Sud et vise à tirer des enseignements pour le monde arabe. Pour cela, il a été procédé à l'exposé de ces performances obtenues lors des olympiades internationales de mathématiques et des sciences organisées en 1999 et en 2003.

L'étude examine également les corrélations entre ces moyennes et les coefficients d'intelligence. Elle présente les résultats des tests d'intelligence obtenus dans le monde arabe et sur le plan international. Elle montre, par le biais de la comparaison, les similitudes et les différences entre les matrices progressives standard et les moyennes de ceux qui ont réalisé de hautes performances.

L'étude établit pour la première fois dans le monde arabe une relation entre l'effet de Lynn Flynn et les coefficients de l'intelligence nationale.

Enfin, l'étude a permis de dégager des perspectives de recherche, notamment en ce qui concerne les mesures biologiques (génétiques) et environnementales (stimulations) à prendre pour augmenter les coefficients de l'intelligence nationale.

***Mots–Clés**: Performance, maths, sciences, intelligence, pays arabes.*

Le piston et la corruption dans le monde des affaires: étude régionale comparative

Pr. Achoui M.
Université Roi Fahd –Arbie Saoudite

Pr. Peter S.
Université de Sussex U.K.

Pr. Boussena M.
Université Alger2

Dr. Al-amine Ab.
Université Roi Fahd –Arbie Saoudite

Dr. Assaiar J.
Ministère de l'éducation–Koweit

Cet article vise à étudier la relation entre la nature des attitudes envers le piston (al wasta) et le degré d'acceptation des pratiques de corruption dans le monde des affaires par les employés et les responsables des entreprises dans les pays arabes.

Nous pouvons résumer les résultats de cette étude dans ce qui suit÷:

Il existe, en effet, un rapport positif et significatif, notamment auprès des hommes, entre les attitudes envers le piston et le degré d'acceptation des pratiques de corruption. En effet, les sujets, qui développent des attitudes favorables au piston, ont tendance à accepter davantage les pratiques de corruption, contrairement à ceux qui en ont des attitudes défavorables.

Le degré d'acceptation des pratiques de corruption se situe dans les pays arabes au niveau de la moyenne sur l'échelle théorique de l'instrument de mesure employé dans cette étude. Ce résultat vient nuancer les résultats obtenus dans des études antérieures et ceux des rapports établis par Transparence Internationale qui ont tendance à souligner un niveau élevé de la corruption dans la gestion et l'administration des affaires dans les pays arabes.

Cet écart dans les résultats peut s'expliquer par la difficulté qu'éprouvent les sujets dans les pays arabes à déclarer explicitement leur acceptation de la corruption, eu égard à des principes culturels et moraux prégnants dans la culture arabe qui condamnent la corruption.

***Mots-Clés**: Le piston, la corruption, le monde des affaires, les pays arabes.*

Pour une nouvelle approche de l'histoire arabe moderne

Pr. Saidouni N.
Université de Koweit

Cette étude propose un cadre méthodologique pour une nouvelle approche de l'histoire arabe moderne dans toutes ses dimensions, en montrant sa spécificité, les notions et préjugés qui façonnent la culture historique arabe, son cadre chronologique, les principaux thèmes et contenus des écrits historiques et, enfin, les révisions nécessaires pour développer la culture historique arabe en général et l'approche académique de l'histoire arabe en particulier.

En effet, une connaissance objective et réaliste qui reflète la culture des sociétés arabes contemporaines et leur mémoire historique collective est nécessaire pour dépasser les stéréotypes de l'eurocentrisme et les errements idéologiques et sentimentaux. Un tel objectif ne peut être atteint que par des études historiques à caractère résolument scientifique et novateur.

***Mots-Clés**: Histoire, arabe, concepte, approche.*

Histoire, mémoire et politique: assaut de la France sur l'Histoire. Le cas de l'Algérie (1830-2009)

Pr. El-korso M.
Université Alger2

La loi 2005 glorifiant le colonialisme, nous invite à repenser profondément la relation entre histoire et mémoire dans son rapport à la politique du point de vue français.

La reconsidération du statut et du rôle de l'histoire dans la cristallisation de l'idéologie coloniale et ses projections sur la dynamique de la vie des partis politiques en France, nous a conduit au résultat suivant÷: les politiques françaises nonseulement se nourrissent de la mémoire coloniale, mais aussi elles posent une question fondamentale relative au problème du droit des peuples anciennement colonisés à leur histoire nationale.

Aprés que ce droit légitime a été exposé durant l'occupation à la falsification et des distorsions de la part de l'école coloniale d'histoire, il devient à présent objet de surenchères et de chantages entre les partis en lutte pour le pouvoir en France, sans aucune considération de leur part pour ceux qui en avaient subi le poids de l'histoire, c'est-à-dire les peuples anciennement colonisés dont leur histoire connait un assaut au sens propre du terme.

***Mots-Clés**: L'Algérie, la France, le colonialisme, l'histoire, la mémoire, la politique.*

Les français libéraux et l'indépendance du Maroc

Pr. Zaki M.
Université Mohamed V – Maroc

÷

L'idée prévalant chez la génération post-indépendance des Marocains est que la lutte du Mouvement National Marocain contre l'existence coloniale française a été générale et conduite contre tous les français. Ils ne font pas de distinction entre les français qui supportaient le projet Colonial et ceux (les libéraux) qui défendaient les droits et la liberté de l'homme.

Cet état de fait a été consolidé par le manque des écrits nationaux ou étrangers qui abordent et analysent ce sujet important. Les contributions des français libéraux à la cause nationale du Maroc étaient pertinentes et efficaces en termes de soutien et de support. Ils ont participé à éclairer l'opinion publique française et internationale, et au retour du Roi Mohammed V de son exile et sa reinstalation au trône, ainsi qu'à la résolution de la crise marocaine-française de manière pacifique.

Cet article, par conséquent, a pour but de faire connaitre aux générations postindépendance, certains de ces libéraux et leurs activités et combats à l'instare de Jean Jaures, Robert Jean Longuet et François Mauriac.

Mots-Clés: L'indépendance du Maroc, les Français libéraux, L'histoire politique, le colonialisme.

Tadjmaat dans la région de la Kabylie: Conseil des Archs ou conseil de village?

Dr. Harreche M.
Université Alger2

Vers la fin du 19ème et au début du 20ème siècle, est apparu dans la région de la Kabylie une prise de conscience de la "citoyenneté" au lieu de "l'Aarouchia", en raison du rôle joué par l'immigration vers l'occident en général et l'influence du mouvement nationaliste et ouvrier, ainsi que le rôle de "tadjmaat" dans la région qui est considérée comme un forum socioculturel dans le village.

En plus de cela, nous soulignons le déclin du rôle des Archs dans la gestion des affaires des villages Kabyles favorisée par le fait de:

-la politique coloniale qui visait l'encouragement du "peuplement" européen en Algérie à travers le démantèlement du fondement économique de la structure sociale fondée sur le "Arch" i.e "la propriété commune des terres" afin de parvenir facilement à la spoliation des terres par les colons.

-l'acte politique du mouvement nationaliste avec ses diverses tendances, notamment sa tendance libératrice indépendantiste

***Mots-Clés**: Kabylie, Archs, Tadjmaat, village, citoyenneté.*

De la littérature de voyage: description de la mer (étude stylistique)

Dr. Bensaad M.
Centre universitaire Ghardaia –Algérie

Cet article propose une lecture du texte de la navigation d'Abi Abbes d'al-Makkari÷, l'une des grandes figures de la littérature algérienne, et cela à partir des postulats stylistiques selon les niveaux langagiers, afin d'avoir accès à son héritage intellectuel concernant la forme et le style.

On est arrivé à÷constater: la phonologie et ses significations telle que la déviation des deux lettres al-Raa et al- lam, la structure grammaticale ÷notamment les rapports et la concision, et le niveau rhétorique dans son abandon et son écart.

Abou Abbas s'appuyait constamment sur des diglossies qui ne le quittent pas÷: eau et argile, Maghreb et Machrek, arrivée et départ, peur et ambition, terre et mer; une diglossie qui avait forgé la personnalité d'al-Makkari÷, sa façon de vivre et sa pensée.

***Mots-Clés**: Navigation, littérature algérienne, phonologie, Structure grammaticale.*

Egalité et différence entre masculinité et féminité dans la philosophie de l'existence et la philosophie de la politique chez Ibn Rochd (Averroès)

Dr. Mosbahi M.
Université Mohamed V-Maroc

Bien que le thème de la femme, chez Ibn Roch (Averroès), ne soit pas hissé au statut d'objet philosophique avec son dispositif méthodologique et problématique, en ne l'abordant qu'indirectement lorsqu'il avait traité des sujets peu ou prou proches de celui de la femme, nous trouvons, en effet, dans son œuvre philosophique, jurisprudentielle et de médecine assez d'éléments philosophiques, politiques et jurisprudentiels pour l'élaboration d'une problématique intégrée à ce sujet.

Abou El Walid (Averroès), avait confronté trois conceptions opposées de la femme : une conception philosophique Platonicienne et Aristotélicienne, une conception médico-biologique et une conception jurisprudentielle islamique.

C'est pour cela que la position d'Averroès vis-à-vis la « féminité » oscille entre une position égalitaire accordant à la femme tous ses droits, quand il l'a abordé d'un point de vue existentialiste et essentialiste dans ces ouvrages philosophiques et politiques, et une position non égalitaire qui la dépossède de tous ces droits lorsqu'il aborde le sujet sous l'angle de la raison pratique dans ses travaux médicaux et jurisprudentiels.

Nous nous limiterons dans cet article à l'analyse des fondements philosophiques et éthiques de la position égalitaire, et nous pouvons en conclure que l'inégalité entre homme et femme ne devienne un problème que lorsqu'elle se déplace du niveau philosophique à celui de la culture.

***Mots-Clés**: La femme, l'égalité, la différence, la philosophie, les droits.*

La disponibilité d'un climat psychosociologique familial pour le développement du talent÷chez les enfants÷: étude empirique avec les élèves du secondaire

Pr. Maamria B.
Université de Batna–Algérie

Dr. Khazzar Ab.
Université de Batna–Algérie

Cet article présente les résultats d'une étude empirique sur la disponibilité d'un climat familial nécessaire au développement du talent chez les enfants. L'échantillon total était formé de 389 élèves de l'enseignement secondairede la Wilaya de Batna, dont 164 garçons et 225 filles. Leurs âges variaient entre 15 et 20 ans. Ils ont été choisis parmi les élèves des filières de sciences et technologies, de sciences expérimentales, des lettres, de philosophie, et de gestion et économie. Ils appartiennent aux trois niveaux scolaires du secondaire. Un questionnaire composé de 40 items a été utilisé pour évaluer le climat familial nécessaire au développement du talent chez les enfants. Les résultats montrent que les filles sont plus conscientes de l'existence d'un climat familial nécessaire au développement du talent que les garçons. Par contre, on ne constate pas de différence de perception du climat psycho–sociologique familiale entre les garçons et les filles au niveau des pourcentages les plus hauts. Les aspects les plus importantes du climat familial sont l'encouragement à exceller aux études et à tout travail, l'encouragement à la confiance en soi, à la fiabilité, à lutter contre l'échec, à procurer la sécurité, à exprimer les idées neuves, à établir de bonnes relations familiales, à créer une bonne ambiance familiale, à montrer les talents, à ne pas hésiter à s'exprimer, et à discuter de ses idées en famille.

***Mots–Clés**: Talent, enseignement secondaire, climat familial.*

Les politiques Culturelles Arabes: Quel rôle÷?

Pr. Boukrouh M.
Université Alger3

Dans les sociétés modernes la culture occupe une place de choix dans les programmes de développement, du fait que cette dernière est devenue un pilier central dans les stratégies de développement locales, régionales et internationales au même titre que l'économie, le social et l'environnemental.

En effet le développement de la vie culturelle dans les sociétés modernes est devenu une préoccupation majeure des pouvoirs publics qui donnent une place de plus en plus prépondérante aux politiques culturelles de leur pays÷; ces dernières étant considérées comme un outil privilégié pour une meilleure utilisation des ressources et potentialités dont dispose la société.

Pour pouvoir comprendre les bases sur lesquelles repose toute politique culturelle d'un pays il faut impérativement comprendre l'histoire de ce pays. C'est l'approche que nous avons choisi pour traiter la question des politiques culturelles, avec une insistance particulière pour les pays arabes.

***Mots-Clés**: Politiques publiques, politiques culturelles, diversité culturelle.*

الملخصـــات بالإنجليزية

ABSTRACTS

The Pen and the Sword: Ibn Khaldûn and the problematic of war

Pr. Atteriki F.
University of Tunis–Tunisia

In this study, we shed some lights on the idea of war in the Al–Muqqaddima of Ibn Khaldûn and its ways of manifestations in power and governance. We could specify three essential points for understanding Ibn Khaldûn's theory of war.

- *The first point pointed out the subjection of the phenomenon to political practice.*
- *The second point is related to the strategy of war and the three types of combat, through three forms: firstly, the march in lines and the continuous offensive until the annihilation of the enemy; secondly, combat by way of hit–and–run. It is the combat of the Berber Arabs consisting of a continuous movement: attack, defense and escape; thirdly, mobilization in which the armies are divided into groups in accordance with the natural order of the four directions.*
- *The third point is related to the purpose of war by which is meant victory or the strategy of triumph.*

Thus, with Ibn Khaldûn, for the first time in the arab and islamic thought, thinking moves away from advices in war and does not limit itself to narration and the description of battles and conquests. Although, we do not find in his text an affirmation of autonomy for this science, however there is an earnest attempt at abstraction and theorization. With Ibn Khaldûn the battle becomes an important field for theorization linked to the field of politics and power and to the field of civilization and society.

***Keywords**: War, power, governance, battle, civilization and society.*

The international achievement of math, sciences and intelligence: lessons for the Arab countries

Pr. Khaleefa O. H.
University of Khartoum–Sudan

The study aimed to investigate the topic of international achievement of math, science and intelligence in South Asia and the lessons that can be learned for the Arab countries. To achieve this aim, the performance of math and science in the International Olympiad of Math and Science for the year 1999 and 2003 has been investigated.

Additionally, the study has investigated the correlation coefficient between math, sciences and intelligence, and it showed the international and the Arab performance in IQ. A comparison and contrast between the Standard Progressive Matrices and the performance of those with high abilities has been investigated. The study introduced for the first time in the Arab world the issue of Lynn–Flynn effect and the national intelligence.

Finally, some implications for further studies in the field has been reached in particular, the biological (genetics) and environmental (stimulations) measures that can be used for the increase of the national intelligence.

***Keywords**: Performance, math, sciences, intelligence, arab world.*

Pulling Strings and corruption in doing business: a regional comparative study

Pr. Achoui M.
University of king Fahd –Saoudi Arbia

Pr. Peter S.
University of Sussex U.K.

Pr. Boussena M.
University of Algiers2

Dr. Al–amine Ab.
University of king Fahd –Saoudi Arbia

Dr. Assaiar J.
Ministry of education–Kuwait

The objective of this research is to analyse the relationship between feelings towards "Al–Wasta" (pulling strings) behavior and acceptance of corruption by employees and managers of organizations. The main results of this study are summarized as follows:

1– There is a strong positive correlation, especially among the males, between the nature of the general feelings towards "Al–Wasta" and corruption acceptance. This implies that the individuals, who have positive feelings towards Al–Wasta, tend to accept corruption practices more than the individuals who have negative feelings towards "Al–Wasta".

2– The general mean of the sample's attitude towards corruption acceptance is centered on the middle point of the used scale. This result does not correspond to the reviewed studies and to the "International Transparency" reports about corruption in the Arab world. This result can be explained by the fact that it is difficult to accept openly the existence of corruption in the Arab countries especially if we know that "save face" is one of the most important values in the Arab world. However, corruption is morally rejected by the participants.

***Keywords**: Pulling strings, corruption, world of business, Arab world.*

Towards a New approach of Modern Arab History

Pr. Saidouni N.
University of Kuwait

This study sets a methodological framework for a new approach to modern Arab history in its multiple dimensions. It pinpoints its specificity, its chronological framework, the conceptions and biases that shape Arab historical culture, the main themes and contents of historical writings, and, finally, the necessary reassessments to undergo a renewal of Arab historical culture in general, and the scholarly historical knowledge in particular.

In fact, an objective and realistic knowledge reflecting contemporary Arab societies culture and their shared historical heritage is necessary go beyond the stereotypes widespread either by euro-centrism and biased ideological and sentimental lines. Such an objective could be fulfilled only by scientific and innovative historical studies.

***Keywords**: History, arabs, concepts, approach.*

History, Memory and Policy: France's assault on history. The case of Algeria (1830-2009)

Pr. El-korso M.
University of Algiers2

The statute of 2005 glorifying colonialism, urges us to rethink deeply the relation between history and memory from the French policies perspective.

The reexamination of the history's status and role in the crystallization of the colonial ideology and its projections on the dynamics of the political parties life in France, forces us, to come to the following conclusion: the policies of France are sustained by its colonial memory, moreover, it is not just that, as the fundamental question which is posed, is the problem of the right of previously colonized people to their national history.

Aside the fact that, this legitimate right had been exposed to perversions and distortions of history during the occupation by the colonial school of history, it has presently become an object of outbidding and blackmailing between those battling for power in France with no due attention to those who carried the burden of history, that is the ex- colonized people whose history is witnessing an assault in the real sense of the term.

***Keywords**: Algeria, France, colonialism, history, memory, policy.*

The French Liberals and the Independence of Morocco

Pr. Zaki M.
University of Mohamed V–Marocco

The prevailing idea among the post–independence generation of Moroccans is that, the struggle of the Moroccan nationalist movement against the French colonial presence was general and against all the French. They do not differentiate between the French who supported the colonial project and those (liberals) who defended the rights and freedom of man.

This dominant idea has been strengthened by the lack of national or foreign writings about this important subject. The contributions of French liberal's to the national cause of Morocco were effective and Significant in terms of service and support.

They took part in enlightening the French and the International public opinion, and in the return of King Mohammed V from his exile to the throne, and in settling the Moroccan–French crisis peacefully.

Therefore, this article aims to introduce some of those Liberals and their activity and struggle, like: Jean Jaures, Robert Jean Longuet and François Mauriac, to the post independence generations.

***Keywords**: The independence of Morocco, the liberal French, the political history, the colonialism.*

Tadjmaat in the Kabylia Region÷: Counsel of the Archs or counsel of the village?

Dr. Hereche M.
University of Algiers2

By the end of the ninetieth and the beginning of the twentieth century, an awareness of citizenship emerge instead of the "Aarouchia" in the Kabylia region, because of the role played by the immigration towards europe and the influence of the nationalist and labor movements, as well as the role of "tadjmaat" in the region which is seen as a socio-cultural forum in the village.

In addition to that, we pointed out the subsiding Archs' role as a result of the effect of :

- *the colonial policy, which aimed at enhancing the European "settlement" in Algeria through the dismantling of the economic base of the social structure of the "Arch" i.e , the common propriety of land, in order to easily manage the despoilment of it by the settlers.*
- *the political activities of the nationalist movement with its various tendencies particularly its liberation and independence's tendency.*

***Keywords**: the Kabylia region, Archs, Tadjmaat, village, citizenship.*

Literature of traveling: description of the sea (stylistic study)

Dr. Bensaad M.
University of center of Ghardaia–Algeria

This study is about a reading of the÷sailing of Abi Abbes al–Makkari, one of the great figures of Algerian literature, on the basis of the stylistic postulates according to language levels, in order to have access to his intellectual heritage as far as form and style are concerned.

We have noticed: the phonology and its significations such as the digression of the two letters al– Raa and al– lam, the grammar structure particularly the links and the concision, and the rhetoric level in its renunciation and relinquishment.

Abou Abbas was always relying on diglossia which do not quit him: water and earth, Maghreb and Machrek, arrival and departure, fear and ambition, land and sea. A diglossia that had forged al–Makkari's personality, his way of living and his thinking.

***Keywords**: sailing, Algerian literature, phonology, grammar structure.*

Equality and Difference between Masculinity and Feminity in Ibn Rochd's÷Philosophy of Existence and Philosophy of Politics

Dr. Masbahi M.
University of Mohamed V–Marocco

Although the woman's theme in ÷Ibn Rochd (Averroès) thinking did not rise up to the status of the philosophical object with its methodological and problematic plan in a straightforward and an essential way, but he incidentally tackled subjects very or not much close to the woman. Indeed, we had found basic principles in his philosophical and medical work enough to work out an integrated problematic for this subject.

Abou El Walid (Averroès) confronted three opposing conceptions of the woman: a Plato–Aristotalisian philosophical conception, a medical and biological conception and an Islamic jurisprudential conception.

Thus, we find the position of Averroès on «÷feminity÷» fluctuating between an egalitarian stance giving the woman all her rights when he looked at her from the point of view of existence and essence in his philosophical and political writings; and a non egalitarian stance dispossessing her these rights when he looked at her from the perspective of the practical mind in his medical and jurisprudential works.

We shall limit ourselves in this article to the analysis of philosophical and ethical foundations of the egalitarian stance. We may infer that the difference between man and woman becomes a problem only when it moves from a philosophical level to÷the one÷that÷of culture.

Keywords:÷÷*Woman, equality, difference, philosophy, rights.*

The availability of a family psycho-sociological atmosphere for children's talent development: empirical study among pupils' secondary school.

Pr. Maamria B.
University of Batna-Algeria
Dr. Khazzar Ab.
University of Batna-Algeria

In this article we present the results of a study on the availability of domestic atmosphere for the development of children's talents. Total sample consisted of 389 males and females pupils of secondary school in the province of Batna; 164 of them were males and 225 were females, Aged between 15 and 20 years old, were selected from specialties of science, technology, experimental sciences, literature, philosophy, management and economy of all secondary grades. The applied questionnaire consisted of 40 items to measure the domestic atmosphere for the development of children's talent. It was found that females subjects are more aware than males of the existence of a family atmosphere for the development of talents. Moreover, there is no difference between the percentages for both sexes in their perception of domestic atmosphere. The most important aspects of the domestic atmosphere were encouraging children to excel at their studies and everything they do, promoting self-confidence, reliability and resistance to failure and establishing good relationships within the family and providing an amusing atmosphere at home. Moreover, the results pointed out also, offering total freedom to the family members to express themselves and discuss without hesitation their own ideas in the family.

***Keywords**: Talent, secondary grade, family atmosphere.*

Arabic Cultural Policies: Which role?

Pr. Boukrouh M.
University of Algiers3

The Culture in modern societies is seen as a central axe of the development programs; as the cultural dimension has become a cornerstone in any strategy of local, national or international development. It has similar importance to that of economic, social and environmental dimensions.

In modern societies, the cultural and artistic life is one of the main preoccupation and duties of public's authorities. Indeed, the authorities of different governments gave more and more importance to cultural policies of their countries, as they conceder it as efficient tool that provide the best way which permit to respond to divers resources of the society.

Forms of cultural policies differ from society to society and between deferent decades within the same society, because the cultural policy is largely linked to the socio-historical context where is being developed. We have dealt with the problematic of cultural policy in this article in this frame work, with special reference to the Arabic case.

***Keywords**: Public policies, cultural policies, cultural diversity.*

"أفكار وآفاق" مجلة أكاديمية محكمة، تهدف إلى نشر الدراسات والبحوث الأصيلة المبتكرة في مختلف العلوم التي تهتم بدراسة الإنسان من حيث آدابه ومجتمعه وسلوكه وتاريخه وسياسته وتواصله وتحديات مستقبله.

وللمجلة موقع إلكتروني يمكن من خلاله التواصل والإطلاع على الدراسات والبحوث المنشورة و/أو تنزيلها.

الموقع الإلكتروني للمجلة (URL)

www.afkar-affak.org

رقم الإيداع القانوني: 2011-1208
ردمد : ISSN: 2170-1431

الثمن : 500 دج